بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

الجزء الثامن

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

في آخر الكتاب فهرسة ألفبائية شاملة

يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم
[الأنفال ٨/٢٤]

الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي
رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه في جامعة دمشق

الجزء الثامن

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

من مظاهر تعنّت المشركين والإياس من إيمانهم

﴿وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣)﴾

الإعراب :

﴿كُلَ﴾ مفعول ﴿حَشَرْنا﴾. ﴿قُبُلاً﴾ حال من ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾. ﴿إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾ أن وصلتها في موضع نصب ؛ لأنه استثناء منقطع. ﴿شَياطِينَ﴾ منصوب إما لأنه بدل من ﴿عَدُوًّا﴾ أو لأنه مفعول ثان لجعلنا. ﴿غُرُوراً﴾ منصوب إما لأنه مصدر في موضع الحال ، أو بدل من قوله ﴿زُخْرُفَ﴾ الذي هو مفعول يوحي ، أو لأنه مفعول لأجله ، أي لغرور.

﴿وَلِتَصْغى﴾ معطوف على فعل مقدر دلّ عليه قوله تعالى : ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾ وتقديره : ليغروه ولتصغى إليه ، فحمل على المعنى. وقيل : اللام لام قسم ، وتقديره: ولتصغين إليه أفئدة الذين ، فلما كسرت اللام حذفت النون.

البلاغة :

﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ﴾ ربط المشيئة بالرّبوبية ، والإضافة إلى الضمير العائد إلى النّبي ﷺ ، لتشريف مقامه ، والعناية به ، وتطييب خاطره وتسليته عليه الصّلاة والسّلام.

المفردات اللغوية :

﴿وَحَشَرْنا﴾ جمعنا. ﴿قُبُلاً﴾ أي مواجهة ومقابلة ومعاينة. ﴿عَدُوًّا﴾ العدو : ضد الصّديق ، ويستعمل للواحد والجمع والمذكر والمؤنث. ﴿شَياطِينَ﴾ جمع شيطان ، والشياطين : المردة ، قال ابن عباس : كلّ عات متمرّد من الجنّ والإنس فهو شيطان. ﴿يُوحِي﴾ يوسوس به الشّيطان ، والإيحاء : الاعلام مع الخفاء والسّرعة كالإيماء. ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾ أي الكلام المزين الذي يبدّل الحقائق أوهاما ، ويطلق لفظ الزخرف على كلّ زينة ، كالذهب للنّساء ، والورود والأزهار للرّياض وغيرها. ﴿غُرُوراً﴾ خداعا باطلا. ﴿فَذَرْهُمْ﴾ دع الكفار. ﴿وَما يَفْتَرُونَ﴾ من الكفر وغيره مما زين لهم. ﴿وَلِتَصْغى﴾ تميل ، يقال : صغي إليه : مال. ومضارعه : يصغي ، مثل رضي يرضى ، وصغي فلان وصغوه : أي ميله وهواه. ﴿إِلَيْهِ﴾ الزخرف. ﴿أَفْئِدَةُ﴾ قلوب. ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا﴾ يكتسبوا ، يقال : اقترف المال : اكتسبه ، واقترف الذّنب : اجترحه.

سبب النّزول :

روي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتى جماعة من كفار مكة وزعمائها فقالوا له : أرنا الملائكة يشهدون بأنك رسول الله ، أو ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم ، أحقّ ما تقول أم باطل؟ أو ائتنا بالله والملائكة قبيلا ، فنزلت الآية.

المناسبة :

هذا تفصيل لما ذكر على سبيل الإجمال بقوله تعالى : ﴿وَما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ فبيّن تعالى أنه لو أعطاهم ما طلبوه من إنزال الملائكة ، وإحياء الموتى حتى يكلّموهم ، بل لو زاد في ذلك بأن يحشر عليهم كلّ شيء قبلا يشهد بصدق الرّسول ، ما كانوا ليؤمنوا لتأصّلهم في الضّلال إلا أن يشاء الله.

التفسير والبيان :

قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ ..﴾ : وهم أهل الشقاوة ، ثم قال : ﴿إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾ : وهم أهل السعادة الذين سبق لهم في علمه تعالى أن يدخلوا في الإيمان [١].

---

(١) تفسير الطبري : ٨ / ٣٠٢

والمعنى : ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم : لئن جاءتهم آية ليؤمننّ بها ، فنزلنا عليهم الملائكة ، تخبرهم بالرّسالة من الله ، بتصديق الرّسل كما سألوا ، فقالوا : ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾ [الإسراء ١٧ / ٩٢] و ﴿قالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ﴾ [الأنعام ٦ / ١٢٤] ما آمنوا بمحمد ﷺ وبالقرآن.

وبعبارة أخرى : لو أنّنا نزّلنا إليهم الملائكة ، فرأوهم بأعينهم مرة بعد أخرى ، وسمعوا شهادتهم لك بالرّسالة ؛ ولو كلّمهم الموتى بأن نحييهم ، فيخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرّسل كما طلبوا : ﴿فَأْتُوا بِآبائِنا﴾ [الدّخان ٤٤ / ٣٦] ، وحشرنا ، أي وجمعنا كلّ شيء من الآيات والدّلائل معاينة ومواجهة ، فيخبرونهم بصدق الرّسل فيما جاؤوا به ، وقيل : ﴿قُبُلاً﴾ كفلاء بصحّة ما بشّرنا به وأنذرنا ، أو جماعات تعرض عليهم كلّ جماعة بعد أخرى ، ما كان شأنهم به يؤمنوا ، وليس عندهم الاستعداد أن يصدّقوا ؛ لأنهم لا ينظرون في الآيات نظر تأمّل وهداية وعظة ، وإنما ينظرون إليها نظر معاداة واستهزاء ، لا يؤمنون إلا بمشيئة الله ، أي لا يؤمنون ما داموا على صفاتهم ، إلّا أن يزيلها الله تعالى إن شاء ، فالهداية مقدور عليها من الله ، ولكنه تعالى يتركهم وشأنهم بعد أن بصّرهم بطرق الخير والانتفاع بهدي القرآن.

فالمراد بقوله : ﴿ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي ما كانوا ليؤمنوا على سبيل الاختيار ، والمراد من قوله : ﴿إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾ هو الإيمان الاختياري ، وليس الإيمان الاضطراري ، كما قال الرّازي ؛ لأن المستثنى يجب أن يكون من جنس المستثنى منه ، والإيمان الحاصل بالإلجاء والقهر ليس من جنس الإيمان الاختياري [١].

---

(١) تفسير الرّازي : ١٣ / ١٥٠ ـ ١٥٢

ولكن أكثر هؤلاء المشركين يجهلون أن الإيمان إليهم والكفر بأيديهم ، متى شاؤوا آمنوا ومتى شاؤوا كفروا ، وليس ذلك كما يظنون ، لا يؤمن منهم إلا من هديته له فوفقته ، ولا يكفر إلا من خذلته عن الرّشد فأضللته. هذا ما يراه الطبري [١] وهو الظاهر الرّاجح.

ويرى الزّمخشري : ولكن أكثر المسلمين يجهلون أن هؤلاء لا يؤمنون إلا أن يضطرهم الله ، فيطمعون في إيمانهم إذا جاءت الآية المقترحة [٢]. يعني أن المعتزلة يرون أن المستثنى هو الإيمان الاضطراري ، وأن الضمير في قوله : ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ عائد في رأي الزمخشري إلى المسلمين لا إلى الكفار ، والمعتزلة يقولون : المراد : أنهم أي المشركون جهلوا أنهم يبقون كفارا عند ظهور الآيات التي طلبوها ، والمعجزات التي اقترحوها ، وكان أكثرهم يظنون ذلك. وأهل السّنّة يقولون : المراد : يجهلون بأنّ الكلّ من الله وبقضائه وقدره [٣].

قال ابن عباس : المستهزئون بالقرآن كانوا خمسة : الوليد بن المغيرة المخزومي ، والعاصي بن وائل السّهمي ، والأسود بن عبد يغوث الزهري ، والأسود بن المطلب ، والحارث بن حنظلة ، أتوا الرّسول ﷺ في رهط من أهل مكة ، وقالوا له : أرنا الملائكة يشهدون بأنك رسول الله ، أو ابعث موتانا حتى نسألهم ، أحقّ ما تقوله أم باطل؟ أو ائتنا بالله والملائكة قبيلا ، أي كفيلا على ما تدّعيه ، فنزلت الآية [٤].

ثمّ أراد الله تعالى التّخفيف على نبيّه ومواساته وتسليته ، فأبان أنّ سنّته في الخلق أن يكون للأنبياء عدوّ من الجنّ والإنس ، فقال : ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْنا ...﴾

---

(١) تفسير الطّبري : ٨ / ٢

(٢) الكشّاف : ١ / ٥٢٤

(٣) تفسير الرّازي : ١٣ / ١٥٢

(٤) المرجع السابق : ١٣ / ١٤٩ . ١٥٠

أي وكما جعلنا لك يا محمد أعداء يخالفونك ويعادونك ويعاندونك ، جعلنا لكلّ نبيّ من قبلك أيضا أعداء ، فلا يحزنك ذلك ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ، فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ [الأنعام ٦ / ٣٤] ، وقال تعالى : ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان ٢٥ / ٣١] ، وقال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم : «إنه لم يأت أحد قطّ بمثل ما جئت به إلا عودي» أي أنّ سنّة الله جرت على أن يكون بعض الناس أعداء للأنبياء وورثتهم ، وكلّ أصحاب دعوات الإصلاح في الأمور الدّينيّة والاجتماعيّة ، وهذا ما يعبّر عنه بتنازع البقاء وبقاء الأصلح ، كما قال تعالى : ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً ، وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرّعد ١٣ / ١٧].

والعداوة سواء من شياطين الإنس والجنّ ، قال مجاهد وعكرمة وقتادة والحسن البصري : من الجنّ شياطين ، ومن الإنس شياطين ، يوحي بعضهم إلى بعض. وقال قتادة : بلغني أن أبا ذر كان يوما يصلّي ، فقال له النّبي ﷺ : «تعوّذ يا أبا ذرّ من شياطين الإنس والجنّ» فقال : أو إن من الإنس شياطين؟ فقال رسول الله ﷺ : «نعم» [(١)]. وجاء في سورة البقرة : ﴿وَإِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا : إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [١٤].

ثم ذكر تعالى أثر عداوة الشّياطين للأنبياء ، وهو مقاومتهم دعوة الله وهدايته ، فقال: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ ..﴾ أي يلقي بعضهم إلى بعض القول المزيّن المزخرف ، وهو المزوّق الذي يغترّ سامعه من الجهلة بأمره ، وينخدع ويميل إلى رأي القائل ، ويتأثّر بإغراء الشياطين بالمعاصي. والوحي : الإيماء والقول السريع ، والزّخرف : الذي يكون باطنه باطلا ، وظاهره مزيّنا خادعا.

---

(١) ذكره الطبري وابن كثير ، ثم قال الأخير : وهذا منقطع بين قتادة وأبي ذرّ ، وقد روي من وجه آخر عن أبي ذرّ ﷺ (تفسير الطّبري : ٨ / ٥ ، تفسير ابن كثير : ٢ / ١٦٦).

ولو شاء ربّك ألا يفعلوا هذا التغرير ، ما فعلوه ، ولكنه لم يشأ أن يجبرهم على الهداية ، بل شاء أن يكون الناس مختارين سلوك أي الطريقين : طريق الخير وطريق الشّرّ ، كما قال تعالى : ﴿وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد ٩٠ / ١٠] هذا ما يراه المعتزلة.

وقال أهل السّنّة في قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ﴾ : وذلك كلّه بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيئته أن يكون لكلّ نبيّ عدوّ من الشياطين.

فدعهم وما يفترون أي يكذبون ، أي دع مجابتهم واتركهم يخوضون في إفكهم وكذبهم ، ولا تأبه لهم ، وامض في تبليغ دعوتك وتأدية رسالتك ، وتوكّل على الله ، فإن الله كافيك وناصرك عليهم ، وعليك البلاغ ، وعلينا الحساب والجزاء.

وقوله : ﴿وَلِتَصْغى ..﴾ معطوف على فعل مقدر مفهوم مما سبقه ، وتقديره : يوحي هؤلاء الشياطين إلى بعضهم زخرف القول والمموه أو المزيّن منه ، ليغروا المؤمنين أتباع الأنبياء ، ولتميل إليه قلوب الكفار والفسّاق الذين لا يؤمنون بالآخرة ؛ لأنه الموافق لأهوائهم. أمّا المؤمنون الواعون الذين ينظرون في عواقب الأمور ، فلا ينخدعون بأباطيل الأقوال ، ولا تغرّهم الزّخارف. وضمير ﴿إِلَيْهِ﴾ وضمير ﴿فَعَلُوهُ﴾ راجع إلى ما ذكر من عداوة الأنبياء ووسوسة الشياطين.

﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ أي وليرضوه لأنفسهم ، وليترتب على ذلك أن يكتسبوا ما هم مكتسبون من المعاصي والآثام بغرورهم به ورضاهم عنه.

فقه الحياة أو الأحكام :

لن يؤمن الكفار كما سبق في علم الله تعالى ، ولو جاءتهم المعجزات العجيبة والآيات البليغة القاطعة الدّالّة على صدق الرّسل. فلو فرض أن الله تعالى أجابهم إلى ما اقترحوه ، فأنزل الملائكة إليهم ، وعاد الموتى إلى الحياة فكلّموهم ، وجمعت لهم

كلّ الآيات معاينة ومواجهة ، فإنهم لن يؤمنوا ، لتأصّلهم في الكفر ، وفقد استعدادهم للإذعان بالحقّ ، فأكثر المشركين يجهلون الحقّ ولا يعرفونه.

ومن سنّته تعالى في الخلق ظهور أعداء من الإنس والجنّ للأنبياء وأتباعهم ، لأنّ الحقّ يعرف بضدّه من الباطل.

وأهل الباطل يصغون أسماعهم لما يوسوس به شياطين الجنّ وشياطين الإنس ، ويقتنعون بالقول المزيّن المغشوش الذي لا مصداقيّة له ولا صحّة ، ولا بقاء ولا استقرار.

قال مالك بن دينار : إن شيطان الإنس أشدّ عليّ من شيطان الجنّ ، وذلك أنّي إذا تعوّذت بالله ، ذهب عنّي شيطان الجنّ ، وشيطان الإنس يجيئني فيجرّني إلى المعاصي عيانا.

والله قادر على تحويل المشركين إلى مؤمنين ، ولكن حكمته ومشيئته وإرادته اقتضت ترك الاختيار إليهم ، ليكون الجزاء عدلا مطابقا للواقع.

ودلّ قوله تعالى : ﴿**ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ**﴾ على أنه تعالى ما شاء منهم الإيمان ، فهم لا يؤمنون إلا أن يشاء الله إيمانهم.

ومآل القول المزخرف المزيّن وهو الباطل وعاقبته أنه يستمع إليه ويميل إليه غير المؤمنين بالآخرة ، ويرضون به ، ويؤدي بهم إلى اكتساب المعاصي واقتراف السّيئات واجتراح الذّنوب.

وهكذا فإن عقاب العصاة بسبب ذنوبهم وسيئاتهم ، وليس لله حاجة في تعذيبهم والتّنكيل بهم ، وإنّما العقاب أمر يقتضيه العدل المطلق للتّمييز بين المحسنين الأبرار وبين المسيئين الأشرار ، فلا يعقل التّسوية بين من لازم الطاعة ، فعمل والتزم أوامر الله ، وبين من قارف المعصية ، فأعرض واستكبر ، وعتا

وعاند ، وتنكّر لأوامر الله ولم يأبه بما حظره الله ومنعه ، وأهمل نداء الحقّ والخير.

القرآن الكريم دليل صدق رسالة النّبي ﷺ

﴿أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥)﴾

الإعراب :

﴿أَفَغَيْرَ اللهِ﴾ منصوب بأبتغي. ﴿حَكَماً﴾ إما منصوب على الحال ، أو على التّمييز.

﴿مُنَزَّلٌ﴾ نائب الفاعل له ضمير مستتر يعود على الكتاب. ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ في موضع نصب ؛ لأنه يتعلّق بمنزّل. ﴿بِالْحَقِّ﴾ حال من ضمير ﴿مُنَزَّلٌ﴾.

﴿صِدْقاً وَعَدْلاً﴾ منصوبان على المصدر ، وقيل : يجوز كونهما مصدرين في موضع الحال ، بمعنى صادقة وعادلة.

البلاغة :

﴿فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الخطاب للرّسول ﷺ على طريق إثارة الحماسة وإلهاب المشاعر ، أو التّهييج والإلهاب ، كقوله تعالى : ﴿وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام ٦ / ١٤].

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ مجاز مرسل ، من قبيل إطلاق الجزء وإرادة الكلّ ، أي تمّ كلامه ووحيه.

المفردات اللغوية :

﴿أَبْتَغِي﴾ أطلب. ﴿حَكَماً﴾ قاضيا بيني وبينكم ، والحكم : من يحكم بالحقّ فقط ، فهو أبلغ من الحاكم ؛ إذ لا يستحق التّسمية بحكم إلا من يحكم بالحقّ ؛ لأنها صفة تعظيم في مدح ، أما الحاكم

فهو صفة جارية على الفعل ، فقد يسمّى بها من يحكم بغير الحقّ. ﴿مُفَصَّلاً﴾ مبيّنا فيه الحقّ والباطل ، والحلال والحرام. ﴿الْمُمْتَرِينَ﴾ المترددين الشّاكين.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ المراد بالتّمام هنا : أن كلمة الله وافية في الإعجاز ، والدّلالة على صدق الرّسول ﷺ ، والمراد بالكلمة هنا : القرآن. وأصل معنى تمام الشيء : انتهاؤه إلى حدّ لا يحتاج معه إلى شيء خارج عنه. ﴿صِدْقاً﴾ الصدق يكون في الأخبار ومنها المواعيد. ﴿وَعَدْلاً﴾ العدل يكون في الأحكام. ﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ﴾ التّبديل : التّغيير بالبدل ، والمعنى : لا مبدّل لكلمات الله بنقض أو خلف.

المناسبة :

بعد أن ندّد الله تعالى بالكفار الذين أقسموا بالله ليؤمنن بالآيات إذا جاءتهم ، وأبان أنه لا فائدة في إظهار تلك الآيات ؛ لأنه تعالى لو أظهرها لبقوا مصرّين على كفرهم ، أبان هنا أنّ الدّليل الدّال على نبوّة محمد ﷺ قد حصل من وجهين :

الأول ـ أنه أنزل إليه الكتاب المفصّل المبين المشتمل على العلوم الكثيرة والفصاحة الكاملة ، وقد عجز الخلق عن معارضته ، مما يدلّ على صدق نبوّته.

والثاني ـ اشتمال التّوراة والإنجيل على الآيات الدّالة على أنّ محمدا ﷺ رسول حقّ ، وعلى أنّ القرآن كتاب حقّ من عند الله ، وهو المراد بقوله : ﴿وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِ﴾.

والوجهان مذكوران في قوله تعالى : ﴿قُلْ : كَفى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ﴾ [الرعد ١٣ / ٤٣].

وبعد أن بيّن تعالى أنّ القرآن معجز ، ذكر أنّه تمّت كلمة ربّك ، أي القرآن ، والمراد : تمّ القرآن في كونه معجزا دالّا على صدق محمد عليه الصّلاة والسّلام.

التّفسير والبيان :

يأمر الله نبيّه ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين بالله الذين يعبدون غيره :

ليس لي أن أطلب قاضيا بيني وبينكم ؛ لأنه لا حكم أعدل من حكم الله ، ولا قائل أصدق من قوله ، وهو الذي أنزل إليكم القرآن مبيّنا فيه حكم كلّ شيء ، من العقائد والشّرائع والآداب ، وقد جاوزت سنّ الأربعين ، ولم يصدر عنّي مثله في العلوم والمعارف ، والأخبار الماضية والمستقبلة ، ولا في الفصاحة والبلاغة ، كما قال تعالى : ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ﴾ [يونس ١٠ / ١٦] ، أي : أفغير الله أطلب لكم حاكما ، وهو الذي كفاكم مؤنة المسألة ، في الآيات ، بما أنزله إليكم من الكتاب المفصّل ، أي المبين.

وبعبارة أخرى : لا فائدة من طلبكم دليلا على صدق نبوّتي ، فهناك دليلان واضحان يؤيّدان رسالتي ، وهما الآية الكبرى وهي القرآن المعجز الدّال بإعجازه على أنّه كلام الله ، واشتمال التّوراة والإنجيل على ما يدلّ على أنّي رسول الله حقّا وأنّ القرآن كتاب حقّ من عند الله تعالى.

وإن أنكر هؤلاء المشركون أحقيّة القرآن وكذّبوا به ، فإن اليهود والنصارى أهل الكتاب يعلمون أنه منزّل من ربّك بالحقّ ، بما ورد عندهم من البشارات بك ، على لسان الأنبياء المتقدّمين ، كما قال تعالى : ﴿الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة ٢ / ١٤٦].

فلا تكونن يا محمد من المترددين الشّاكين ، وهذا على أسلوب التّهييج والإلهاب ، أو على طريق التّعريض ، كقوله تعالى : ﴿وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس ١٠ / ١٠٥] ، وقوله : ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ ، فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ ، لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس ١٠ / ٩٤].

وليس هذا النّهي مؤذنا بوقوع الشّك من النّبي ﷺ ؛ لأنه شرط ، والشّرط

لا يقتضي وقوعه ، لذا قال عليه الصّلاة والسّلام : «لا أشكّ ولا أسأل».

وتمّ كلام الله وهو القرآن ، فلا يحتاج إلى إضافة شيء فيه ، وأصبح كافيا وافيا بإعجازه وشموله ، ودلالته على الصدق ، فهو صادق فيما يقول ، عدل فيما يحكم ، صدقا في الإخبار عن الغيب ، وعدلا في الطلب ، فكلّ ما أخبر به فهو حقّ لا مرية فيه ولا شكّ ، وكلّ ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه ، وكلّ ما نهى عنه فباطل ، فإنه لا يأمر إلا بخير ، ولا ينهى إلا عن مفسدة وشرّ ، كما قال تعالى : ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الأعراف ٧ / ١٥٧].

وكلّ ما ورد في القرآن من أمر ونهي ، ووعد ووعيد ، وقصص وخبر لا تغيير فيه ولا تبديل لكلمات الله ، وليس أحد يعقب حكمه تعالى ، لا في الدّنيا ولا في الآخرة.

وهو السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم ، الذي يجازي كلّ عامل بعمله.

فقه الحياة أو الأحكام :

الآية الأولى بتّ قاطع في مسألة التّحكيم الذي طالب به المشركون بينهم وبين النّبي ﷺ ، وهي ردّ مفحم عليهم بأنّه قد قام الدّليل القاطع على إثبات نبوّة محمد ﷺ من ناحيتين :

الأولى ـ تأييده بالقرآن الكريم وهو المعجزة الدائمة الخالدة الدّالة على النّبوة.

الثانية ـ معرفة أهل الكتاب وبشارات أنبيائهم به وبصدقه وبصدق القرآن.

ودلّت الآية الثانية : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ على وجوب اتّباع دلالات

القرآن ؛ لأنّه حقّ لا يمكن تبديله بما يناقضه ؛ لأنه من عند حكيم لا يخفى عليه شيء من الأمور كلها.

والكلمات كما قال قتادة : هي القرآن لا مبدّل له ، لا يزيد فيه المفترون ولا ينقصون.

ضلالات المشركين والمنع من أكل ذبائحهم

﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧) فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآياتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَما لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَذَرُوا ظاهِرَ الْإِثْمِ وَباطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِما كانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)﴾

الإعراب :

﴿أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُ مَنْ﴾ في موضع نصب بفعل مقدر دلّ عليه ﴿أَعْلَمُ﴾ وتقديره : يعلم من يضل عن سبيله. ولا يجوز أن يكون في موضع جر ؛ لأنه يستحيل المعنى ، ويصير التقدير : إن ربك هو أعلم بالضالين ؛ لأن أفعل إنما تضاف إلى ما هو بعض له ، وذلك كفر محال. مثل قوله

تعالى : ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ﴾ [الأنعام ٦ / ١٢٤] حيث : في موضع نصب بفعل مقدر ، دلّ عليه : أعلم ؛ لأن حيث هاهنا اسم محض ، وتقديره : يعلم حيث يجعل رسالته ، ولا يجوز أن تكون حيث في موضع جر ؛ لأنها بمعنى مكان ، فيكون التقدير : الله أعلم أمكنة رسالاته ، وهذا أيضا كفر.

﴿وَما لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا﴾ : أن في موضع نصب بحذف حرف الجر. و ﴿ما﴾ استفهامية مبتدأ ، وما بعدها خبرها ، وتقديره : وأي شيء لكم في ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه.

البلاغة :

﴿وَذَرُوا ظاهِرَ الْإِثْمِ وَباطِنَهُ﴾ يوجد طباق بين لفظ ﴿ظاهِرَ﴾ و «باطن».

المفردات اللغوية :

﴿أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي الكفار. ﴿سَبِيلِ اللهِ﴾ دينه. ﴿إِنْ﴾ ما. ﴿يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَ﴾ في مجادلتهم لك في أمر الميتة ، إذ قالوا : ما قتل الله أحق أن تأكلوه مما قتلتم. ﴿يَخْرُصُونَ﴾ يحدسون ويقدرون ويكذبون في ذلك. والخرص : الحدس والتخمين. ﴿أَعْلَمُ﴾ أي عالم. ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾ أي ذبح على اسم الله. ﴿وَما لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾ من الذبائح. ﴿وَقَدْ فَصَّلَ﴾ بيّن وأزال عنكم اللبس في المحرّمات. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ المتجاوزين الحلال إلى الحرام.

﴿وَذَرُوا﴾ اتركوا. ﴿ظاهِرَ الْإِثْمِ وَباطِنَهُ﴾ علانيته وسره ، والإثم : القبيح ، وشرعا : ما حرمه الله من كل معصية كالزنى والسرقة ونحوهما. ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ في الآخرة. ﴿يَقْتَرِفُونَ﴾ يكتسبون.

﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾ بأن مات أو ذبح على اسم غيره ، وإلا فما ذبحه المسلم ولم يسم فيه عمدا أو نسيانا فهو حلال ، كما قال ابن عباس ، وأخذ به الشافعي. ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي الأكل منه ﴿لَفِسْقٌ﴾ معصية وخروج عن دائرة الدين إلى ما لا يحل. ﴿لَيُوحُونَ﴾ يوسوسون. ﴿إِلى أَوْلِيائِهِمْ﴾ أعوانهم الكفار. ﴿لِيُجادِلُوكُمْ﴾ في تحليل الميتة.

سبب النزول :

نزول الآية (١١٨):

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾ : روى أبو داود والترمذي عن ابن عباس

قال : أتى ناس النّبي ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، أنأكل ما نقتل ولا نأكل ما يقتل الله؟ فأنزل الله : ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ ...﴾ إلى قوله : ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

وأخرج أبو داود والحاكم وغيرهما عن ابن عباس في قوله : ﴿وَإِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ ..﴾ قال : قالوا : ما ذبح الله لا تأكلوا ، وما ذبحتم أنتم تأكلون؟ فأنزل الله الآية.

نزول الآية (١٢١):

﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ..﴾ : قال المشركون : يا محمد ، أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها؟ قال : الله قتلها ، قالوا : فتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال ، وما قتل الكلب والصقر حلال ، وما قتله الله حرام؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية [١].

وأخرج الطبراني وغيره عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾ أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمدا ، فقولوا له : ما تذبح أنت بيدك بسكّين فهو حلال ، وما ذبح الله بشمشار من ذهب ، يعني الميتة ، فهو حرام ، فنزلت هذه الآية : ﴿وَإِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ﴾ قال : الشياطين من فارس وأولياؤهم قريش.

وعبارة عكرمة في ذلك هي : إن المجوس من أهل فارس ، لما أنزل الله تعالى تحريم الميتة كتبوا إلى مشركي قريش ، وكانوا أولياءهم في الجاهلية ، وكانت بينهم مكاتبة : إن محمدا وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله ، ثم يزعمون أن ما ذبحوا فهو حلال ، وما ذبح الله فهو حرام ، فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء ، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

---

(١) أسباب النزول للواحدي : ١٢٨

المناسبة :

بعد أن أجاب الله تعالى عن شبهات الكفار ، وأثبت صحة نبوة محمد ﷺ ، ذكر هنا أنه لا ينبغي الالتفات إلى ما يقوله الجهال ؛ لأنهم يسلكون سبيل الضلال ، ويتبعون الظنون الفاسدة ، وهذا المنهج بالتعبير الحديث تحييد لأهل الإسلام ، وتوفير لاستقلال شخصيتهم ، وإبراز ذاتيتهم ، بالرغم من أن أكثر أهل الأرض كانوا ضلالا بسبب غلبة الشرك على عقائدهم.

التفسير والبيان :

لا يلتفت في شرعة الحق والقرآن إلى مسالك أهل الضلال والشرك ؛ لاتباعهم الظنون الفاسدة ، وإن تطع يا محمد وكل من تبعك أكثر من في الأرض من الكفار والمشركين في أمور الدين ، وتخالف ما أنزل الله عليك ، يضلون عن دين الله ومنهجه وسبيله ، سبيل الحق والعدل والاستقامة ؛ إذ هم لا يتبعون إلا الأهواء والظنون الباطلة أو الكاذبة ، ولا يقيمون وزنا للبراهين الإلهية ، والأدلة العقلية ، وإن هم إلا يخرزون ويحدسون أو يخمنون تخمينا عاريا عن الصحة والحقيقة كخارص ثمر النخل والعنب وغيرهما ، فاعتقادهم قائم على الحدس والتخمين ، لا على البرهان والدليل.

وهذا يدل على أن أكثر أهل الأرض كانوا ضلالا في الاعتقاد فلازموا الشرك ، وفي النبوات فأنكروها ، وفي الأحكام التشريعية كإحلال الميتة والدم والخمر وتحريم المواشي البحائر والسوائب والوصائل. وهذا كقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات ٣٧ / ٧١] وقوله : ﴿وما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف ١٢ / ١٠٣].

وإن ربك يعلم بالضالين عن سبيله القويم ، ويعلم أيضا بالمهتدين السالكين سبيل الاستقامة ، وليس كما يزعم المشركون. وهذا تحذير مؤكد لما سبق من

ضرورة رفض منهج أهل الضلال ، ومسلك أهل الشرك والأهواء.

ولما كان المشركون يعتبرون الذبائح لغير الله من أصول الشرك ، وكان حال أكثر الناس الضلالة والكفر ، أمر الله المؤمنين بما هو من أصول الاعتقاد بالله ، وهو الأكل مما ذكر اسم الله عليه وذبح باسم الله ، فقال : ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ ..﴾ أي احذروا بما ذبح للأصنام والأوثان ولغير الله ، وكلوا مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح دون غيره ، إن كنتم بآيات الله الدالة على الهدى والنور والعقيدة الصحيحة مؤمنين مصدقين بها ، مكذبين بما يناقضها من الشرك والوثنية والضلال.

فهذه إباحة واضحة من الله لعباده المؤمنين أن يأكلوا ما ذكر عليه اسمه ، ترسيخا لأصل الاعتقاد بالله ، وردا على مشركي العرب وغيرهم الذين كانوا يجعلون الذبائح من أمور العبادات وأصول الدين والاعتقاد ، فيتقربون بالذبائح لآلهتهم.

ومفهوم الآية أنه لا يباح ما لم يذكر اسم الله عليه ، كما كان يستبيحه كفار قريش من أكل الميتات وأكل ما ذبح على النصب وغيرها.

وجمهور المفسرين على أن في هذه الآية حصرا مستفادا من جهتين : الأولى ـ مما ذكر في الآية السالفة من عدم اتباع المضلين ، والثانية ـ من الشرط في قوله تعالى : ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآياتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ فيكون المعنى : اجعلوا أكلهم مقصورا على ما ذكر اسم الله عليه ، ولا تتعدوه إلى الميتة.

ثم ندب تعالى إلى الأكل مما ذكر اسم الله عليه ، وأنكر أن يكون هناك شيء يدعوهم إلى ترك الأكل مما ذكر اسم الله عليه ، من البحائر والسوائب وغيرها ، فقال : ﴿وَما لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾.

وفي ذلك إشارة إلى ضرورة رفض عوائد الجاهلية واعتراضاتهم وشبهاتهم الواهية.

﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ..﴾ أي ليس هناك ما يمنعكم ، أو أي شيء يمنعكم أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، والحال أنه قد بين لكم المحرم عليكم في قوله : ﴿قُلْ : لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً ، أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ ، أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾ [الأنعام ٦ / ١٤٥] ومعنى الأخير : ما ذكر عليه اسم غير الله كالأصنام والأنبياء والصالحين ، فبقي ما عدا ذلك على الحل.

ثم استثنى الله تعالى حال الضرورة فقال : ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أي لكن الذي اضطررتم إلى أكله مما هو محرم عليكم ، فإنه يباح لكم ما وجدتم حال الضرورة. ومن هذه الآية وأمثالها أخذت القاعدة الشرعية : «الضرورات تبيح المحظورات» وقاعدة : «الضرورة تقدر بقدرها».

ثم بيّن الله تعالى جهالة المشركين في آرائهم الفاسدة من استحلاهم الميتات وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى ، فقال : ﴿وَإِنَّ كَثِيراً ...﴾ أي إن كثيرا من الكفار ليضلون الناس بتحريم الحلال ، وتحليل الحرام ، بأهوائهم وشهواتهم الباطلة ، وبغير علم أصلا ، إنما هو محض الهوى ، والله أعلم باعتدائهم وكذبهم وافترائهم ، وسيجازيهم على هذا الاعتداء والتجاوز ، ولا محالة ، مثل عمرو بن لحيّ وقومه الذين اتخذوا البحائر والسوائب ، وأحلوا أكل الميتة ، وما أهل به لغير الله بذكر اسم نبي أو وثن أو صنم.

ثم أمر تعالى بترك جميع الآثام والمعاصي ، فقال : ﴿وَذَرُوا ظاهِرَ ...﴾ أي اتركوا جميع المعاصي والمحرمات ما أعلنتم وما أسررتم ، قليله وكثيره ، سواء ما تعلق بأفعال الجوارح والأعضاء كالزنى مع البغايا وأفعال القلوب كالحقد والحسد والكبر والمكيدة ، والزنى مع الخليلة والصديقة والأخدان ، ومن المعاصي تجاوز المضطر حدّ الضرورة المبين في قوله تعالى : ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ ، فَإِنَّ رَبَّكَ

غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام ٦ / ١٤٥] وقوله : ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ ، فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة ٥ / ٣].

والإثم لغة : ما قبح ، وشرعا : ما حرمه الله ، ولم يحرم الله شيئا إلا لضرره. والصحيح . كما قال ابن كثير . أن الآية عامة في ذلك كله ، وهو ما ذكر ، وهي كقوله تعالى : ﴿قُلْ : إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ﴾ [الأعراف ٧ / ٣٣] ولهذا قال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِما كانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ أي سواء كان ظاهرا أو خفيا ، فإن الله سيجزيهم عليه ، أي أنه لا بد من أنه سيجازي مرتكب المعاصي على عصيانهم إذا ماتوا ولم يتوبوا. وجاء تعريف الإثم في حديث النواس بمن سمعان فيما أخرجه أحمد والدارمي بإسناد حسن : «الإثم : ما حاك في النفس وتردد في الصدر» وفي رواية مسلم : «الإثم : ما حاك في نفسك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس».

أما من تاب توبة صحيحة صادقة ، وندم على ما فرط ، فإن الله يغفر له ما بدر منه من الذنوب ؛ لقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ [النساء ٤ / ١١٦] وكذلك فعل الحسنة عقب السيئة يمحوها ، لقوله تعالى : ﴿إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ﴾ [هود ١١ / ١١٤]. وورد في حديث أبي ذر جندب بن جنادة ومعاذ بن جبل فيما أخرجه الترمذي : «واتبع السيئة الحسنة تمحها».

ثم صرح الله تعالى بالنهي عن ضد ما فهم من الأمر السابق ، وهو قوله : ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾ فقال : ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ ..﴾ أي ولا تأكلوا أيها المؤمنون مما مات ولم يذبح ولم يذكر اسم الله عليه ، ولا ما ذبح لغير الله وهو ما كان يذبحه المشركون لأوثانهم ، والذبح لغير الله والأكل من المذبوح فسق ومعصية ، قال عطاء في قوله تعالى : ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ

﴿اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾ : ينهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش للأوثان ، وينهى عن ذبائح المجوس.

والمتبادر من المقام تخصيص ما لم يذكر اسم الله عليه بالحيوان ، فيكون ذلك نهيا عن الأكل من الحيوان الذي لم يذكر اسم الله عليه ، فتحرم الميتة وما ذكر عليه اسم غير الله.

ثم ردّ الله تعالى على مجادلات المشركين في إباحة الميتات فقال : ﴿وَإِنَّ الشَّياطِينَ ...﴾ أي إن شياطين الإنس والجن ليوسوسون إلى أوليائهم وأعوانهم من المشركين ليجادلوا محمدا وصحبه في أكل الميتة ، كما تقدم ، وإن أطعتموهم فيما يزعمون من استحلال الميتة ، إنكم لمشركون مثلهم ؛ لأنكم عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره ، فقدمتم عليه غيره ، وهذا هو الشرك ؛ كقوله تعالى : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [التوبة ٩ / ٣١] وقد روى الترمذي في تفسيرها عن عدي بن حاتم أنه قال : يا رسول الله ، ما عبدوهم؟ فقال : «بلى ، إنهم أحلوا لهم الحرام ، وحرموا عليهم الحلال ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم».

قال الزجاج : وفيه دليل على أن كل من أحلّ شيئا مما حرم الله تعالى ، أو حرم شيئا مما أحل الله تعالى ، فهو مشرك ؛ لأنه أثبت مشرّعا سوى الله ، وهذا هو الشرك بعينه.

وقوله : ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ...﴾ على تقدير القسم ، وحذف اللام الموطئة للقسم ، أي ولئن أطعتموهم إنكم لمشركون ، فيكون جواب القسم أغنى عن جواب الشرط.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآيات على ما يلي :

١ ـ إباحة ما ذبحه المسلم وذكر اسم الله عليه.

٢ ـ الأمر بذكر اسم الله على الشراب والذبح وكل مطعوم.

٣ ـ إن الإيمان بأحكام الله والأخذ بها يتضمن ويقتضي الأخذ بها والانقياد لها.

٤ ـ عدم إباحة ما لم يذكر اسم الله عليه كالميتات وما ذبح على النصب (الحجارة حول الكعبة) وغيرها.

٥ ـ إباحة المحرّمات حال الضرورة الشرعية بقدر ما تقتضيه الضرورة.

٦ ـ عدم الالتفات لآراء المشركين الزائفة من استحلالهم الميتات وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى.

٧ ـ تحريم ارتكاب جميع المعاصي ، سواء في السرّ أو في العلن ، وسواء أفعال الجوارح كاليد والرجل ، وأفعال القلوب كالحسد والحقد.

٨ ـ الجزاء أمر محتم واقع يوم القيامة على كل معصية ، والعصاة معذبون يجازيهم الله تعالى لا محالة.

٩ ـ كل من استحل حراما أو حرم حلالا ، واتبع غير أحكام الله في شرعه ودينه ، فهو كافر ومشرك ؛ لأنه أشرك بالله غيره ، وأثبت مشرّعا سوى الله ، بل آثر حكمه على حكم الله.

أما ما يذبح عند استقبال الحاكم أو الحاج فهو في رأي الحنفية حرام أكله ، لأنه مما أهلّ به لغير الله. ورأى بعض الشافعية أن المقصود من الذبح الاستبشار بقدومه ، فهو كذبح العقيقة لولادة المولود ، وهذا لا يوجب التحريم ، وهذا هو المعقول.

لكن لو كان الذبح بين رجلي القادم أو مرّ عليه من فوقه ، فلا يؤكل ؛ لأنه ذبح أهل لغير الله به ، أي ذكر اسم غير الله عليه.

١٠ ـ استدل بعض العلماء بقوله تعالى : ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾ على أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها ، وإن كان الذابح مسلما. وهذه مسألة متروك التسمية عمدا أو سهوا ، وقد اختلف فيها العلماء :

أ ـ فقال داود الظاهري : لا تؤكل ذبيحة المسلم إن تعمد ترك التسمية أو نسي التسمية ، لظاهر هذه الآية الكريمة.

ب ـ وقال الشافعية : متروك التسمية حلال مطلقا ؛ لقوله تعالى : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾ إلى قوله : ﴿إِلَّا ما ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة ٥ / ٣] فأباح المذكى ولم يذكر التسمية ، وليست التسمية جزءا من مفهوم الذكاة ، فإن الذكاة لغة : الشق والفتح ، وقد وجدا ، واستدلوا أيضا بحديث البخاري وأبي داود والنسائي وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها قالت : إنهم قالوا : يا رسول الله ، إن قومنا حديثو عهد بالجاهلية ، يأتون بلحمان ، لا ندري اذكروا اسم الله عليها أم لم يذكروا ، فنأكل منها؟ فقال رسول الله ﷺ : «سموا وكلوا» : وروى أبو داود حديثا مرسلا عن الصلت السدوسي : «ذبيحة المسلم حلال ، ذكر اسم الله ، أو لم يذكر».

وروى الدارقطني عن البراء بن عازب : «اسم الله على قلب كل مؤمن ، سمّى أو لم يسمّ».

لكن التسمية سنة مستحبة عند أكل كل طعام وشراب.

والمراد من الآية : ما ذبح للأصنام ؛ لأن من أكل متروك التسمية ليس بفاسق ، وقد قال الله : ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ ولأن الله تعالى وصف من أكل ذبيحة الأصنام ورضي بها بالشرك ، ولأن قوله : ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ مخصوص بما أهل به لغير الله ، بدليل آية أخرى : ﴿أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾ [الأنعام ٦ / ١٤٥].

ج . وذهب الجمهور (أبو حنيفة ومالك وأحمد) إلى أن متروك التسمية عمدا حرام لا يؤكل وهو ميتة ، ويحل أكل متروك التسمية سهوا ، أو كان الذابح المسلم أخرس أو مستكرها.

وأضاف الحنابلة : من ترك التسمية على الصيد ولو سهوا ، لم يؤكل ، أي أن التسمية على الذبيحة تسقط بالسهو ، وعلى الصيد لا تسقط.

ودليل الجمهور : قوله تعالى : ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ ، وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ وقوله ﷺ في الحديث الصحيح : «ما أنهر الدم ، وذكر اسم الله عليه فكل» وروي عنه ﷺ أنه قال : «تسمية الله في قلب كل مسلم» والناسي ليس بتارك للتسمية ، بل هي في قلبه ، فيكون متروك التسمية عمدا حراما ، ومتروك التسمية سهوا ليس مما لم يذكر اسم الله عليه ، ولم يلحق العامد بالناسي لأنه بترك التسمية عمدا كأنه نفى ما في قلبه.

مثل المؤمن المهتدي والكافر الضال

﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) وَكَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها لِيَمْكُرُوا فِيها وَما يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنْفُسِهِمْ وَما يَشْعُرُونَ (١٢٣)﴾

الإعراب :

﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً﴾ فيه مضاف محذوف تقديره : أو مثل من كان ميتا ، بدليل : ﴿كَمَنْ

﴿مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ﴾. و ﴿مَنْ﴾ اسم موصول مبتدأ ، والكاف في ﴿كَمَنْ﴾ خبره ، واسم كان ضمير يعود إلى ﴿مَنْ﴾ و ﴿مَيْتاً﴾ خبرها ، والجملة من الفعل واسمه وخبره صلة ﴿مَنْ﴾.

﴿لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها﴾ في موضع نصب على الحال من الضمير المرفوع في قوله : ﴿فِي الظُّلُماتِ﴾.

﴿مُجْرِميها﴾ مفعول أول لجعلنا ، و ﴿أَكابِرَ﴾ مفعول ثان مقدم. ﴿لِيَمْكُرُوا﴾ اللام : لام كي.

البلاغة :

﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ نُوراً ... فِي الظُّلُماتِ﴾ الموت والحياة ، والنور والظلمات: استعارة ، فقد استعار الموت للكفر ، والحياة للإيمان ، والنور للهدى ، والظلمات للضلال.

المفردات اللغوية :

﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً﴾ بالكفر. ﴿فَأَحْيَيْناهُ﴾ بالهدى. ﴿وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ يتبصر به الحق من غيره وهو الإيمان. ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ﴾ مثل : زائدة أي كمن هو ، والمثل : الصفة والنعت. ﴿فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها﴾ وهو الكافر. ﴿كَذلِكَ﴾ زين للمؤمنين الإيمان كما ﴿زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصي.

﴿وَكَذلِكَ﴾ كما جعلنا فساق مكة أكابرها. ﴿جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِميها﴾ الأكابر : الرؤساء ، جمع كبير أو أكبر ، والمجرمون : مرتكبو الاجرام ، والاجرام : هو الإفساد والإضرار من الأفعال والأقوال ، والقرية : البلد الذي يجمع فيه الناس ، وقد تطلق على الشعب أو الأمة. ﴿لِيَمْكُرُوا فِيها﴾ بالصدّ عن الإيمان. ﴿وَما يَمْكُرُونَ﴾ المكر : التدبير الخفي لصرف الغير عما يريده بحيلة أو خديعة أو تدليس قولي. ﴿إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ لأن وباله عليهم.

سبب النزول :

نزول الآية (١٢٢):

﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً﴾ : أخرج أبو الشيخ ابن حيان الأنصاري عن ابن عباس في قوله: ﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ﴾ قال : نزلت في عمر وأبي جهل. وأخرج ابن جرير الطبري عن الضحاك مثله ، وذكر أبو بكر

لحارثي عن زيد بن أسلم مثله : ﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً﴾ قال : عمر بن الخطاب ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ﴾ قال : أبو جهل بن هشام.

وذكر الواحدي النيسابوري عن ابن عباس قال : قوله تعالى : ﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً﴾ يريد حمزة بن عبد المطلب وأبا جهل ، وذلك أن أبا جهل رمى رسول الله ﷺ بفرث ، وحمزة لم يؤمن بعد ، فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنصه وبيده قوس ، فأقبل غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس وهو يتضرع إليه ويقول : يا أبا يعلى ، أما ترى ما جاء به ، سفّه عقولنا ، وسبّ آلهتنا ، وخالف آباءنا؟ قال حمزة : ومن أسفه منكم؟ تعبدون الحجارة من دون الله ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، فأنزل الله تعالى هذه الآية [١].

اتفقت الروايات على أن الكافر الضال هو أبو جهل ، وأما المؤمن المهتدي فقيل : حمزة ، وقيل : عمر رضي الله عنهما ، والصحيح كما قال ابن كثير والقرطبي : أن الآية عامة يدخل فيها كل مؤمن وكافر [٢].

المناسبة :

ذكر الله تعالى في الآية السابقة أن أكثر أهل الأرض ضالون متبعون للظنون الزائفة والتخمينات ، وأن المشركين يجادلون المؤمنين في دين الله ، ثم ذكر هنا مثلا يوضح حال المؤمن المهتدي وحال الكافر الضال ، فأبان أن المؤمن المهتدي بمنزلة من كان ميتا ، فجعل حيا بعد ذلك ، وأعطي نورا يهتدي به في مصالحه ، وأن الكافر بمنزلة من هو في ظلمات منغمس فيها ، لا خلاص له منها ، فيكون متحيرا على الدوام.

---

(١) أسباب النزول : ١٢٨

(٢) تفسير ابن كثير : ٢ / ١٧٢ ، تفسير القرطبي : ٧ / ٧٨

التفسير والبيان :

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتا ، أي في الضلالة ، هالكا حائرا ، فأحياه الله ، أي أحيا قلبه بالإيمان وهداه له ، ومثل ضربه الله للكافر المنغمس في الظلمات أي الجهالات والأهواء والضلالات.

هذه مقارنة أو موازنة بين أهل الإيمان وأهل الكفر ، أفمن كان ميتا بالكفر والجهل ، فأحييناه بالإيمان ، وجعلنا له نورا يضيء له طريقه بين الناس ، وهو نور القرآن المؤيد بالحجة والبرهان؟ وهو أيضا نور الهدى والإيمان؟

كمن مثله مثل السائر في الظلمات : ظلمة الليل ، وظلمة السحاب ، وظلمة المطر ، وهو ليس بخارج منها ، أي لا يهتدي إلى منفذ ولا مخلص مما هو فيه.

وفي المقارنة بين المؤمن والكافر وردت آيات كثيرة ، منها : ﴿**أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى ، أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ [الملك ٦٧ / ٢٢]. ومنها : ﴿**مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ ، وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ، هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً ، أَفَلا تَذَكَّرُونَ**﴾ [هود ١١ / ٢٤] ومنها : ﴿**وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ ، وَلَا الظُّلُماتُ وَلَا النُّورُ ، وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ، وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلَا الْأَمْواتُ ، إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ ، وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ، إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ**﴾ [فاطر ٣٥ / ١٩ ـ ٢٣].

وإذا كان الاهتداء إلى الإيمان والانغماس في ظلمات الكفر والضلال بسبب من الإنسان واختيار منه ، فإن الله تعالى يزيد المؤمنين توفيقا إلى الخير ، ويترك الكافرين سائرين في متاهات الكفر ، لذا ختم الله الآية بقوله : ﴿**كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ أي كما زين الإيمان للمؤمنين ، زين للكافرين الكفر والمعاصي ، أي حسّن لكل فريق عمله ، فحسّن الإيمان في أنظار المؤمنين ، وحسّن الكفر والجهالة والضلالة في أعين الكافرين ، كعداوة النّبي ﷺ ، وذبح القرابين

لغير الله ، وتحريم ما لم يحرمه الله ، وتحليل ما حرمه.

وقال ابن كثير : حسّن لهم ما كانوا فيه من الجهالة والضلالة ، قدرا من الله وحكمة بالغة ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأورد حديثا في المقارنة المتقدمة بين المؤمن والكافر ، رواه الإمام أحمد في مسنده عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إن الله خلق خلقه في ظلمة ، ثم رشّ عليهم من نوره ، فمن أصابه ذلك النور ، اهتدى ، ومن أخطأه ضلّ» (١).

ثم أورد الله تعالى ما يدلّ على سنته الثابتة في البشر ، فقال : ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ ..﴾ أي وكما أن أعمال أهل مكة مزينة لهم ، وجعلهم الله أكابرها مع أنهم فسّاقها ، كذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها رؤساءها ودعاتها إلى الكفر والصدّ عن سبيل الله ، ليمكروا فيها بالصدّ عن سبيل الله ؛ لأنهم أقدر على المكر والخداع وترويج الباطل بين الناس بحكم نفوذهم وسيادتهم وسيطرتهم.

وهكذا سنة الله في المجتمعات البشرية ، يثور النزاع بين الحق والباطل ، ويشتد الصراع بين الإيمان والكفر ، ولكل اتجاه أعوانه وأنصاره ، وسادته وكبراؤه ، والأنبياء وأتباعهم من المصلحين يوجدون في هذا الوسط المتصارع ، فيتبعهم الضعفاء ، ويكفر بهم الأشراف ، وينصرهم الأوساط ، ويقاوم دعوتهم الأكابر المجرمون الذي يعادون حركة الإصلاح والتقدم ، والبناء والتحضر ، في كل بيئة ومجتمع.

ولكن العاقبة والنصر للمتقين المصلحين ، والهزيمة أو الانقراض والخذلان للكافرين المفسدين ، وما يمكر هؤلاء الأكابر المجرمون المعادون للرسل إلا بأنفسهم ؛ لأن وبال مكرهم عليهم ، وعاقبة إفسادهم تلحق بهم ، لكنهم عديمو النظر للمستقبل والواقع ، والاعتبار بالماضي ، وعديمو الشعور والإحساس ،

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ١٧٢

وما يشعرون شعورا صادقا صحيحا بمدى أعمالهم.

وهذا مؤيد للقاعدة الاجتماعية الشهيرة وهي تنازع البقاء ، وبقاء الأصلح ، كما قال تعالى : ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً ، وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد ١٣ / ١٧].

وقد ساد هذا وصار سنة متبعة أيضا في الماضين الأولين ، فقال تعالى : ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً ، وَمَكَرْنا مَكْراً ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل ٢٧ / ٥٠ ـ ٥١] أي أن الذين مكروا حفاظا على نفوذهم ومراكزهم ، لم يشعروا بأن عاقبة مكرهم تحقيق بهم ، لجهلهم بسنن الله في خلقه : ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر ٣٥ / ٤٣].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيتان على ما يأتي :

١ ـ المؤمن المهتدي كمن كان ميتا فأحياه الله ، فهو الذي ينعم بحق بالحياة الصحيحة السوية المتكاملة المطمئنة ؛ لأنه على بصيرة تامة بواقعة وعمله وسيرته ، وعلى معرفة دقيقة بدينه وما ينتظره من مستقبل حافل بالآمال العذبة ، والخيرات المغدقة ، والنعيم الخالد.

والكافر الضال يعيش في الواقع في ظلمات بعضها فوق بعض ، ظلمة الكفر ، وظلمة المنهج والطريق ، وظلمة المستقبل الغامض ، المحفّل بشتى ألوان العذاب والضيق والحيرة والقلق والاضطراب.

٢ ـ سنة الله في الاجتماع البشري أن يكون النفوذ والسيطرة لأكابر المجرمين ، وقادة الفسق والعصيان ، وأهل الانحراف الذين يعادون الرسل ، ويقاومون حركة الإصلاح في كل زمان.

ولكن العاقبة والفوز والفلاح في النهاية لأهل الحق والإيمان والاستقامة ، والخسارة والدمار ووبال المكر لأهل الكفر والضلال. وهذا من الله عَزَّوَجَلَّ وهو الجزاء على مكر الماكرين بالعذاب الأليم ، والحال أنهم لا يشعرون الآن ، لفرط جهلهم أن وبال مكرهم عائد إليهم.

وقد أثار المفسرون بمناسبة قوله تعالى : ﴿كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مسألة الجبر والقدر ، فقال أهل السنة : ذلك المزين هو الله تعالى ؛ لأن كل فعل يتوقف على باعث له كائن بخلق الله تعالى ، والباعث أو الداعي له : عبارة عن علم أو اعتقاد أو ظن بأن الفعل مشتمل على نفع وصلاح ، وهذا الباعث هو التزيين ، فإذا كان موجد هذا الباعث أو الداعي هو الله تعالى ، كان المزين لا محالة هو الله تعالى كما قال : ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ﴾ [النمل ٢٧ / ٤].

وقالت المعتزلة : ذلك المزين هو الشيطان ، الذي أقسم : لأغوينهم أجمعين. وهذا الرأي غريب وضعيف ؛ لأن الله تعالى صرح بأنه هو المزين ، ولا مزين آخر سواه [١].

تعنت المشركين ومطالبتهم بالنبوة

﴿وَإِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذابٌ شَدِيدٌ بِما كانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤)﴾

---

(١) تفسير الرازي : ١٣ / ١٧١

الإعراب :

﴿اللهُ أَعْلَمُ﴾ جملة من مبتدأ وخبر ، وهو كلام مستأنف للإنكار عليهم ، والإخبار بألا يصطفي للنبوة إلا من علم أنه يصلح لها ، وهو أعلم بالمكان الذي يضعها فيه منهم.

﴿صَغارٌ﴾ فاعل مرفوع لفعل : يصيب.

المفردات اللغوية :

﴿وَإِذا جاءَتْهُمْ﴾ أي أهل مكة. ﴿آيَةٌ﴾ أمارة وحجة ودليل قاطع على صدق النّبي ﷺ. ﴿حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ﴾ من الرسالة والوحي إلينا ، لأننا أكثر مالا وأكبر سنا. ﴿حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ﴾ مفعول به لفعل دلّ عليه أعلم ، أي يعلم الموضع الصالح لوضعها فيه ، فيضعها ، وهؤلاء ليسوا أهلا لها. ﴿أَجْرَمُوا﴾ ارتكبوا جرما بقولهم ذلك. ﴿صَغارٌ﴾ ذل وهوان ، بسبب الكفر والطغيان. ﴿وَعَذابٌ شَدِيدٌ﴾ في الدارين من الأسر والقتل ، وعذاب النار.

سبب النزول :

نزلت هذه الآية في الوليد بن المغيرة قال : لو كانت النبوة حقا ، لكنت أولى بها من محمد ؛ لأني أكبر منه سنا ، وأكثر منه مالا وولدا [١].

المناسبة :

بعد أن أبان الله تعالى سنته في البشر بأن يكون في كل بلد أو جماعة زعماء مجرمون يقاومون دعوة الرسل والإصلاح ، أوضح أن هذه السنة موجودة في زعماء مكة الذين دفعهم المكر والحسد إلى أنه متى ظهرت لهم معجزة قاهرة تدل على نبوة محمد ﷺ قالوا : لن نؤمن حتى يحصل لنا مثل هذا المنصب من عند الله.

التفسير والبيان :

إذا جاءتهم ، أي المشركين ، آية وبرهان وحجة قاطعة من القرآن تتضمن

---

(١) تفسير القرطبي : ٧ / ٨٠

صدق الرسول ﷺ في تبليغه وحي ربه ، قالوا حسدا منهم وتعنتا وغرورا وظنا منهم أن النبوة منصب دنيوي : لن نؤمن حتى يكون لنا مثل محمد منصب عند الله ، وتظهر على أيدينا آية كونية أو معجزة مثلما أوتي رسل الله كفلق البحر لموسى ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى لعيسى ؛ لأنهم أكثر مالا وأولادا وأعز جانبا ورفعة بين الناس.

وقال ابن كثير : حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة ، كما تأتي إلى الرسل ، كقوله جلّ وعلا : ﴿وَقالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا : لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا﴾ [الفرقان ٢٥ / ٢١].

وهكذا يظهر أن مشركي مكة أكابر قريش طمحوا أن تكون النبوة في بعضهم ، كما حكى تعالى عنهم : ﴿وَقالُوا : لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٣٢] والقريتان : مكة والطائف. وفي آية أخرى : ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً﴾ [المدثر ٧٤ / ٥٢].

فردّ الله عليهم بقوله : ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ﴾ أي هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه. فالرسالة منصب ديني له مقومات خاصة ، وفضل من الله يمنحه من يشاء من عباده ، لا ينالها أحد بكسب أو جهد ، أو بسبب أو نسب ، أو بخصائص دنيوية عادية كالمال والولد والزعامة والنفوذ ، وإنما تؤتى من هو أهل لها لسلامة فطرته ، وطهارة قلبه وقوة روحه ، وحسن سيرته ، وحبه الخير والحق.

ثم أوعد الله المتخلفين عن الإيمان بدعوة النّبي ﷺ فقال : ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ ...﴾ أي سيلحق المجرمين يوم القيامة ذل وهوان دائمان ، ويدركهم العذاب المؤلم الشديد ، جزاء بما كانوا يمكرون ، وعقوبة لتكبرهم عن

اتباع الرسل ، والانقياد لهم فيما جاؤوا به ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي ، سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾ [غافر ٤٠ / ٦٠] أي صاغرين ذليلين حقيرين.

ولما كان المكر غالبا إنما يكون خفيا وهو التلطف في التحيل والخديعة ، قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة جزاء وفاقا : ﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ [الكهف ١٨ / ٤٩].

ومعنى كون العذاب من عند الله : أنه مما اقتضاه حكمه وعدله وسبق به تقديره ، كما قال تعالى : ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ. فَأَذاقَهُمُ اللهُ الْخِزْيَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر ٣٩ / ٢٥ ـ ٢٦].

فقه الحياة أو الأحكام :

النبوة أو الرسالة تمنح لمن هو مأمون عليها وموضع لها ، وأقدر على تحمل أعبائها ، وليست هي مثل مناصب الدنيا التي تعتمد على النفوذ والسلطة أو المال والجاه ، أو النسب ، أو كثرة الأعوان والأولاد.

وما على الناس إلا الإيمان بما جاء به الأنبياء ؛ لأن نبوتهم تثبت بدليل قاطع ، وبمعجزة خارقة للعادة.

فإن لم يؤمنوا أصابهم أمران : صغار وذل وهوان ، وعذاب الله الشديد في الآخرة ، بسبب إجرامهم ومكرهم ، وحسدهم وحقدهم ، وهذا حق وعدل ، تمييزا بين الطائعين وبين العصاة ، وإنما قدم الصغار على ذكر الضرر ، لأن القوم إنما تمردوا على طاعة محمد ﷺ طلبا للعز والكرامة ، فقابلهم الله بضد مطلوبهم.

والمشهور في تفسير الآية أن زعماء مكة أرادوا أن تحصل لهم النبوة والرسالة ،

كما حصلت لمحمد عليه الصلاة والسلام ، وأن يكونوا متبوعين لا تابعين.

ولكن الله تعالى أبان لهم أنهم غير أهل للنبوة ، وأنهم أيضا سيتعرضون للهوان والذل ، والإلقاء في جهنم ، وهذا عقاب المعرضين عن اتباع الأنبياء ، استكبارا وعتوا وعلوا في الأرض.

سنّة الله في المستعدّين للإيمان وغير المستعدّين

وجزاء الفريقين بعد بيان الحق ومنهجه

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) وَهذا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنا قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ خالِدِينَ فِيها إِلاَّ ما شاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨)﴾

الإعراب :

﴿ضَيِّقاً﴾ مفعول ثان ل ﴿يَجْعَلْ﴾. ﴿حَرَجاً﴾ من قرأ بفتح الرّاء جعله مصدرا ، ومن قرأ بكسرها جعله اسم فاعل ، وهو صفة منصوب لقوله ﴿ضَيِّقاً﴾. ﴿كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ﴾ في موضع الحال من الضمير في حرج وضيق.

﴿مُسْتَقِيماً﴾ منصوب على الحال المؤكّدة من : ﴿صِراطُ﴾ ، وإنّما كانت مؤكّدة ؛ لأن صراط الله تعالى لا يكون مستقيما.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَوْمَ﴾ : منصوب بفعل مقدر ، تقديره : واذكر يوم نحشرهم.

و ﴿جَمِيعاً﴾ : منصوب على الحال من الهاء والميم في نحشرهم.

﴿النَّارُ مَثْواكُمْ﴾ يجوز أن يكون المثوى مصدرا بمعنى الثواء وهو الإقامة ، ويجوز أن يكون مكانا أي مكانا للإقامة ، فإذا كان مصدرا كان هو العامل في الحال : ﴿خالِدِينَ فِيها﴾ ، وإذا كان مكانا كان العامل في الحال معنى الإضافة ؛ لأن معناه المضامّة والمماسّة ، مثل قوله تعالى : ﴿وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً﴾ [الحجر ١٥ / ٤٧] ، وقوله تعالى : ﴿أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر ١٥ / ٦٦] وليس في التّنزيل حال عمل فيها الإضافة إلا هذه المواضع الثلاثة. ﴿إِلَّا ما شاءَ اللهُ ما﴾ : في موضع النصب على الاستثناء المنقطع ، فإن جعلت ﴿ما﴾ لمن يعقل لم يكن منقطعا.

البلاغة :

﴿قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي أفرطتم في إضلال وإغواء الإنس. ومثله ﴿اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ﴾ أي استمتع بعض الإنس ببعض الجنّ ، وبعض الجنّ ببعض الإنس.

﴿النَّارُ مَثْواكُمْ﴾ تعريف الكلمتين لإفادة الحصر.

المفردات اللغوية :

﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ﴾ يوسّعه لقبول الإيمان والخير ، أو يقذف في قلبه نورا ، فينفسخ له ويقبله ، كما ورد في حديث ، والمراد جعل النفس مهيأة لقبول الحقّ فيها. ﴿ضَيِّقاً﴾ ضدّ الواسع. ﴿حَرَجاً﴾ بفتح الرّاء وكسرها : شديد الضيق ، من الحرجة : وهي الشّجر الكثير الملتف بحيث يصعب الدّخول فيه. ﴿يَصَّعَّدُ﴾ أو يصّاعد أي يتصاعد في السماء ، ويسبح في الفضاء ، وكأنّما يزاول أمرا غير ممكن إذا كلف الإيمان ، لشدّته عليه. ﴿كَذلِكَ﴾ الجعل. ﴿يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ﴾ أي يسلط الله العذاب أو الشيطان ، وأصل الرّجس : كل ما يستقذر حسّا أو شرعا أو عقلا. ﴿وَهذا﴾ منهج محمد ودينه. ﴿صِراطُ رَبِّكَ﴾ أي طريقه الذي ارتضاه لخلقه. ﴿مُسْتَقِيماً﴾ لا اعوجاج فيه ولا زيغ. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ بيّنا. ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي يتّعظون ، وخصّوا بالذّكر ؛ لأنهم المنتفعون.

﴿لَهُمْ دارُ السَّلامِ﴾ أي دار السّلامة ، وهي الجنّة. ﴿وَلِيُّهُمْ﴾ متولّي أمورهم وكافيهم ما يهمّهم. ﴿يا مَعْشَرَ﴾ المعشر : القوم والرّهط وهو الجمع من الرجال فحسب. ﴿قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ

﴿الْإِنْسِ اسْتَكْثَرْتُمْ﴾ أخذتم الكثير بإغوائكم. ﴿وَقالَ أَوْلِياؤُهُمْ﴾ الذين أطاعوهم في وسوستهم. ﴿اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ﴾ أي انتفع الإنس بتزيين الجنّ لهم الشّهوات ، والجنّ بطاعة الإنس لهم. ﴿وَبَلَغْنا أَجَلَنَا﴾ وصلنا يوم البعث والجزاء أو الموت. ﴿خالِدِينَ فِيها﴾ الخلود : المكث الطويل غير المحدد بوقت.

﴿النَّارُ مَثْواكُمْ﴾ مأواكم. ﴿إِلَّا ما شاءَ اللهُ﴾ من الأوقات التي يخرجون فيها لشرب الحميم ، فإنه خارجها ، كما قال تعالى : ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات ٣٧ / ٦٨] أو ينقلون من عذاب النار إلى عذاب الزّمهرير. ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه. ﴿عَلِيمٌ﴾ بخلقه.

المناسبة :

هذه الآيات استمرار في مناقشة مواقف تعنّت المشركين والرّدّ عليهم وتفنيد حججهم وشبهاتهم ، وهي الآن تحسم الأمر ، فتوضح أنهم ليسوا أهلا للإيمان ، وغير مستعدّين لقبوله ، كما أوضح في الآية السابقة أنهم غير أهل للنّبوة. وعلى كلّ حال : طريق الحقّ قد بان لكلّ ذي بصيرة ، ومنهج الاستقامة الذي يرضي الله قد تجلّى لكلّ البشريّة ، فمن قبله فله دار السّلامة ، ومن أعرض عنه فله عذاب النار. وقبل هذا الجزاء يوجد الحشر والحساب ، وإقامة الحجّة على الكفار.

التفسير والبيان :

عرف من الآية السابقة أن المشركين سيلقون جزاء عنادهم وغرورهم ، وهنا كلمة الفصل : وهي أن الأمر كله لله ، فلا يهتمن أحد ، ولا يحزن على إعراض المشركين عن دعوة الإسلام ، فمن يرد الله أن يوفقه للحقّ والخير والإسلام ، ومن كان أهلا بإرادة الله وتقديره لقبول دعوة القرآن ، فإنه يشرح صدره له ، وييسره وينشطه ويسهله لذلك ، كقوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ ، فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزّمر ٣٩ / ٢٢] ، وقوله : ﴿وَلكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات ٤٩ / ٧].

قال ابن عباس في آية ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ﴾ : يقول تعالى : يوسّع

قلبه للتوحيد والإيمان به. وهو تفسير ظاهر مقبول.

وجاء في حديث رواه عبد الرزاق عن أبي جعفر : وسئل النّبي ﷺ عن هذه الآية : ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ﴾ قالوا : كيف يشرح صدره يا رسول الله؟ قال : «نور يقذف فيه ، فينشرح له وينفسح» قالوا : فهل لذلك من أمارة يعرف بها؟ قال : «الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت».

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير الطبري عن أبي جعفر أيضا قال : قال رسول الله ﷺ عن هذه الآية : «إذا دخل الإيمان القلب انفسح له القلب وانشرح» قالوا : يا رسول الله ، هل لذلك من أمارة؟ قال : «نعم ، الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل الموت» [١].

وإلقاء هذا النور يكون في موضعه : في النفس التي حسنت فطرتها ، وطهرت ، وكان فيها استعداد للخير ، وميل إلى اتباع الحق.

ومن فسدت فطرته بالشرك ، وتدنست بالآثام يجد في صدره ضيقا شديدا عازلا له عن الإيمان ، كاتما له عن نفاذ الخير إليه ، مثله كمثل من يصعد إلى السماء في طبقات الجو العليا حيث يشعر بضيق شديد في التنفس ، وكأنما يزاول أمرا غير ممكن ، لأن صعود السماء مثل فيما يمتنع ويبعد من الاستطاعة ، وتضيق عنه المقدرة.

وكما يجعل الله صدر من أراد إضلاله لفقد استعداده للإيمان ضيقا حرجا ، كذلك يسلط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله ، فيغويه ويصده عن سبيل الله سبيل الحقّ [٢]. والرجس : كما قال مجاهد : كل

---

(١) تفسير الطبري : ٨ / ٢٠

(٢) المرجع السابق : ٨ / ٢٤

مالا خير فيه ، أو كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : العذاب باعتبار أنه الفعل المؤدي إلى الرجس ، من الارتجاس وهو الاضطراب. وقال الزمخشري : الرجس يعني الخذلان ومنع التوفيق.

﴿وَهذا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً﴾ أي وهذا الإسلام الذي يشرح له صدر من يريد هدايته ، هو طريق ربك الذي ارتضاه للناس واقتضته الحكمة ، وأكد ذلك بقوله : ﴿مُسْتَقِيماً﴾ أي طريقا سويا لا اعوجاج فيه ؛ لأن صراط الله تعالى لا يكون إلا مستقيما ، وغيره من السبل معوج منحرف ، كما قال النّبي ﷺ في حديث أحمد والترمذي عن علي في وصف القرآن : «هو صراط الله المستقيم ، وحبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، والنور المبين».

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي قد وضحناها وبيناها وفسرناها لقوم لهم فهم ووعي يعقلون عن الله ورسوله.

ولهؤلاء القوم الملتزمين طريق الاستقامة دار السلامة والطمأنينة وهي الجنة ؛ لأنهم التزموا منهج الأنبياء ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي يوم القيامة. والله وليهم أي متولي أمورهم وكافيهم ، جزاء على صالح أعمالهم.

واذكر يا محمد فيما نقصه عليك وتنذرهم به يوم نحشر الإنس والجن جميعا ، ونقول : يا جماعة الجن قد استكثرتم من إغواء الإنس وإضلالهم ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً ، أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس ٣٦ / ٦٢]. ويقول الذين أطاعوا الجن واستمعوا إلى وسوستهم وتولوهم ، من الإنس ، في جواب الله تعالى : انتفع كل منا بالآخر ، انتفع الإنس بالشياطين حيث دلوهم على الشهوات وعلى أسباب التوصل إليها ، وانتفع الجن بالإنس حيث أطاعوهم وساعدوهم على مرادهم.

وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا أي الموت ، أو أنهم يعنون يوم البعث. وهذا

الكلام اعتراف بما كان منهم من طاعة الشياطين ، واتباع الهوى ، والتكذيب بالبعث ، أي أن المقصود من الكلام : أننا في هذا اليوم الرهيب وهو يوم البعث والجزاء ، اعترفنا بذنوبنا ، فاحكم فينا بما تشاء ، وأنت أحكم الحاكمين ، ولقد أظهرنا الحسرة والندامة على ما كان منا من تفريط في الدنيا.

فأجابهم الحق تعالى : النار مأواكم ومنزلكم أنتم وإياهم وأولياؤكم ، وأنتم ماكثون فيها مكثا مخلدا الأبد كله ، إلا ما شاء الله من الخروج خارج النار لشرب الحميم أو الانتقال من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير ، وكل من الحالين انتقال من عذاب إلى عذاب ، روي أنهم يدخلون واديا فيه من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض ، فيتعاوون ، ويطلبون الرد إلى الجحيم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ فيما يجازي به الناس ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يستحقه كل فريق.

وهي نظير قوله تعالى : ﴿خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ ، إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ ، إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ﴾ [هود ١١ / ١٠٧].

ويحسن الأخذ في تفسير هذه الآية وما هنا بما رواه ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم وابن المنذر وأبو الشيخ ابن حيان عن ابن عباس قال : «إن هذه الآية آية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه ، ولا ينزلهم جنة ولا نارا» [(١)].

فقه الحياة أو الأحكام :

آية : ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ ...﴾ تدل على إثبات الإرادة لله عزّ وجلّ في هداية الإنسان وتوفيقه للإيمان والحق والخير.

وتمسك أهل السنة بهذه الآية في بيان أن الضلال والهداية من الله تعالى ، أي بخلقه وإيجاده ، بمعنى أن العبد قادر على الإيمان ، وقادر على الكفر ، فقدرته

---

(١) تفسير الطبري : ٨ / ٢٦

بالنسبة إلى هذين الأمرين حاصلة على السوية ، لكن هذه القدرة منوطة بحصول باعث في النفس ، وداعية في القلب تدعو إما إلى الإيمان ، وإما إلى الكفر ، وذلك الباعث أو الداعية هو علمه أو اعتقاده أو ظنه بكون ذلك الفعل مشتملا على مصلحة أو ضرر ، فإن تكوّن في قلبه الميل إلى المصلحة أو المنفعة ، فعل الشيء ، وإن تكوّن في قلبه الميل إلى الضرر أو المفسدة ، ترك الشيء ، وحصول هذه الميول أو الدواعي لا يكون إلا من الله تعالى ، ومجموع القدرة البشرية مع الداعي الإلهي يوجب الفعل.

وعلى هذا لا يصدر الإيمان عن العبد إلا إذا خلق الله في قلبه اعتقاد أن الإيمان راجح المنفعة زائد المصلحة أي تكوين القناعة الذاتية ، وإذا حصل في القلب هذا الاعتقاد ، مال القلب ، ورغب في تحصيله ، وهذا هو انشراح الصدر للإيمان [1].

وهذا متفق مع ما ذكرت في تفسير الآية من حديث النّبي ﷺ عن شرح الصدر إذ قال : «هو نور يقذفه الله في قلب المؤمن ، فينشرح له وينفسح».

وقد ضرب الله تعالى مثلا في هذه الآية : وهو تشبيه المتلكئ عن الإيمان ، المتثاقل عن الإسلام بمنزلة من يصّعد في السماء ، فقد شبه الله الكافر في نفوره من الإيمان وثقله عليه بمنزلة من تكلف ما لا يطيقه ، كما أن صعود السماء لا يطاق ، أو أن الكافر إذا طولب بالإيمان تضايق وكان حاله كحال الصاعد في السماء ، كلما ارتفع وخف الضغط الجوي عليه ، ضاق نفسه ، وهذه نظرية علمية حديثة معروفة الآن فقط ، وقد أشار إليها القرآن.

ومثل جعل صدر الكافر شديد الضيق ، كذلك يلقي الله العذاب

---

(١) تفسير الرازي : ١٣ / ١٧٧ . ١٧٨

والخذلان ، أو اللعنة في الدنيا ، والعذاب في الآخرة على الذين لا يؤمنون بآيات الله تعالى.

والثابت المقرر المقطوع به : أن ما أنت عليه يا محمد والمؤمنون بك هو صراط الله المستقيم أي دين ربك لا اعوجاج فيه.

وللمتذكرين آيات الله ، والمتدبرين براهينه بعقولهم ، والمؤمنين المعتبرين المنتفعين بالآيات : دار السلام أي الجنة ، التي يسلم فيها المؤمن من الآفات ، كما سلم من الاعوجاج في الدنيا ، ومعنى ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أنها مضمونة لهم عنده ، يوصلهم إليها بفضله ، والله هو وليهم أي ناصرهم ومعينهم.

وفي يوم الحساب تتبدد وتتقطع صلات الوصل والمنافع بين الإنس والجن الذين ينتفع كل منهم بالآخر ، فاستمتاع الجن من الإنس : أنهم تلذذوا بطاعة الإنس وإياهم ، واستمتاع الإنس من الجن : قبولهم وساوس الشياطين وإطاعتهم لهم حتى زنوا وشربوا الخمور بإغواء الجن إياهم. ومعنى الآية هنا : تقريع الضالين والمضلين وتوبيخهم في الآخرة على أعين العالمين.

وأما خلود الكفار في النار فمرجعه إلى مشيئة الله ، هذا ما أرجحه ، أي أن خلودهم بمشيئة الله. وقد قيل في استثناء ﴿إِلَّا ما شاءَ اللهُ﴾ أقوال كثيرة ، رجح الزجاج والطبري منها : استثناء أوقات المحاسبة ؛ لأن في تلك الأحوال ليسوا بخالدين في النار ، لأن معنى الاستثناء إنما هو من يوم القيامة ، أي خالدين في النار إلا ما شاء الله من مقدار حشرهم من قبورهم ، ومقدار مدتهم في الحساب ، فالاستثناء منقطع.

والقول الثاني ـ المراد الأوقات التي ينقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير ، روي أنهم يدخلون واديا فيه برد شديد ، فهم يطلبون الرد من ذلك البرد إلى حر جهنم.

والقول الثالث لابن عباس : الاستثناء لأهل الإيمان ، استثنى الله تعالى قوما سبق في علمه أنهم يسلمون ويصدقون النّبي ﷺ ، وعلى هذا القول يجب أن تكون ﴿ما﴾ بمعنى «من» ولا يكون الاستثناء منقطعا.

تولية الظلمة على بعضهم وتقريع الكافرين على عدم إيمانهم

﴿وَكَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (١٣٠) ذلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها غافِلُونَ (١٣١) وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢)﴾

الإعراب :

﴿يَقُصُّونَ﴾ و ﴿يُنْذِرُونَكُمْ﴾ : كل منهما جملة فعلية في موضع رفع ؛ لأنها صفة لرسل.

﴿ذلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ ذلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : الأمر ذلك. و ﴿أَنْ﴾ في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر ، وتقديره : لأن لم يكن ربك ، فلما حذف حرف الجر انتصب ، فاللام مقدرة ، وأن مخففة من الثقيلة أي لأنه.

البلاغة :

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ﴾ استفهام توبيخ وتقريع.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ﴾ أي لكل من العاملين ، فالتنوين عوض عن محذوف لهم.

المفردات اللغوية :

﴿وَكَذلِكَ﴾ أي كما متعنا عصاة الإنس والجن بعضهم ببعض ﴿نُوَلِّي﴾ من الولاية والإمارة ، أو نجعل بعضهم أنصار بعض ﴿بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً﴾ أي على بعض ﴿بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من المعاصي ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ أي من مجموعكم ، ويصدق ذلك على بعض الإنس : لأن الرسل من الإنس ، ولم يكن من الجن رسول ، فهذا من باب التغليب ، كقوله تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ﴾ [الرحمن ٥٥ / ٢٢] وإنما يخرجان من البحر المالح لا العذب. ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ﴾ يخبرونكم بها مع التوضيح والتبيان.

﴿شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا﴾ أن قد بلّغنا ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا﴾ أي خدعتهم الدنيا بزخارفها فلم يؤمنوا.

﴿ذلِكَ﴾ أي إرسال الرسل ﴿وَأَهْلُها غافِلُونَ﴾ لم يرسل إليهم رسول يبين لهم.

﴿وَلِكُلٍ﴾ من العاملين ﴿دَرَجاتٌ﴾ مراتب جزاء على وفق أعمالهم ﴿مِمَّا عَمِلُوا﴾ من خير أو شر.

المناسبة :

لما حكى الله تعالى عن الجن والإنس أن بعضهم يتولى بعضا ، بيّن أن ذلك إنما يحصل بتقديره وقضائه ، فقال : ﴿وَكَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً﴾ أي مثل ما ذكر من استمتاع الجن والإنس ببعضهم في الدنيا ، لتماثلهم في الاتجاه والوسائل والغايات والأعمال ، نولي بعض الظالمين ولاية بعض ، فنجعلهم أمراء عليهم ، أو أنصارا لهم.

التفسير والبيان :

مثل تولي الجن والإنس بعضهم لبعض نولي الظالمين بعضهم ببعض ، بأن نجعل بعضهم أنصار بعض بمقتضى التقدير والسنة الكونية ، كما أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، كما قال تعالى : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة ٩ / ٧١] وقال سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال ٨ / ٧٣].

قال قتادة في تفسير الآية : إنما يولي الله الناس بأعمالهم ، فالمؤمن ولي المؤمن أين كان ، وحيث كان ، والكافر ولي الكافر أينما كان وحيثما كان ، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي. واختاره الطبري ، ويكون معنى الآية : وكما جعلنا بعض هؤلاء المشركين من الجن والإنس أولياء بعض ، يستمتع بعضهم ببعض ، كذلك نجعل بعضهم أولياء بعض في كل الأمور ، بما كانوا يكسبون من معاصي الله ويعملون [١].

وقال السيوطي في الإكليل : الآية في معنى حديث «كما تكونوا يولّى عليكم» [٢] وقال الفضيل بن عياض : إذا رأيت ظالما ينتقم من ظالم ، فقف وانظر متعجبا. وروى أبو الشيخ ابن حيان عن منصور بن أبي الأسود ، قال : سألت الأعمش عن قوله تعالى : ﴿وَكَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً﴾ ما سمعتهم يقولون فيه؟ قال : سمعتهم يقولون : إذا فسد الناس أمّر عليهم شرارهم ، أي أن الولاية والإمارة تكون لأشرارهم ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها ، فَفَسَقُوا فِيها ، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ، فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً﴾ [الإسراء ١٧ / ١٦].

أي أن التولية بين الظالمين إما بالتعاطف والتناصر فيما بينهم ، وإما بتسلط بعضهم على بعض وتأمّرهم عليهم ، فما من ظالم إلا سيبلى بأظلم منه. والظلم عام يشمل الظالمين لأنفسهم ، والظالمين للناس من الحكام وغيرهم ، فكل فريق يتولى شبهه في الخلق والعمل ، وينصره على غيره. قال ابن عباس : «إذا رضي الله على قوم ولى أمرهم خيارهم ، وإذا سخط على قوم ولى أمرهم شرارهم».

وهذا تهديد عام لكل ظالم في الحكم والسلطة أو غير ذلك.

---

(١) تفسير الطبري : ٨ / ٢٦ ، تفسير ابن كثير : ٢ / ١٧٦

(٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس عن أبي بكرة ، ورواه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي إسحاق السبيعي مرسلا ، وهو حديث ضعيف.

وتابع الله تقريع الظالمين وتهديد كافري الجن والإنس ، وبيان حالهم يوم القيامة ، حيث يسألهم ، وهو أعلم ، هل بلّغتهم الرسل رسالاته ، وهذا استفهام تقرير وتقريع وتوبيخ ، فقال : ﴿يا مَعْشَرَ الْجِنِّ ...﴾ أي يا جماعة الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم؟ أي من جملتكم ، والرسل من الإنس فقط ، وليس من الجن رسل ، كما قرر جمهور السلف والخلف ، وقد عبر بذلك من باب التغليب ، كما قال تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ﴾ [الرحمن ٥٥ / ٢٢] واللؤلؤ والمرجان إنما يستخرجان في عرف المتقدمين من المالح ، لا من الحلو ، ثم ثبت أن بعض الأنهار الحلوة الماء قد استخرج منها اللؤلؤ.

ويمكن أن يكون المراد رسل الإنس المعروفين ، ورسل الجن : وهم الذين كانوا يستمعون إلى النبي ﷺ ، ثم يذهبون لإنذار قومهم بما سمعوا : ﴿وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف ٤٦ / ٢٩] ﴿قُلْ : أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ ، فَقالُوا : إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً ...﴾ [الجن ٧٢ / ١].

ومهمة هؤلاء الرسل : أنهم يتلون على أقوامهم آيات الإيمان والأحكام والآداب ، وينذرونهم لقاء يوم الحشر وما فيه من الحساب والجزاء لمن يكفر بها ويجحدها.

فأجابوا عن السؤال ، وقالوا يوم القيامة : أقررنا بأن الرسل قد بلغونا رسالاتك ، وأنذرونا لقاءك ، وأن هذا اليوم كائن لا محالة ، ونظير الآية قوله تعالى : ﴿قالُوا : بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ ، فَكَذَّبْنا وَقُلْنا : ما نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الملك ٦٧ / ٩].

وخدعتهم الحياة الدنيا بزينتها ومتاعها من الشهوات والأموال والأولاد وحب السلطة ورفعة الجاه ، ففرطوا في حياتهم الدنيا ، وهلكوا بتكذيبهم الرسل ، وإنكار المعجزات ، كبرا وعنادا.

وشهدوا على أنفسهم يوم القيامة أنهم كانوا كافرين في الدنيا ، بما جاءتهم به الرسل عليهم السلام .

ذلك أي إرسال الرسل وإنذارهم الناس ، وإنزال الكتب ، بسبب أن من سنة الله ألا يؤاخذ أحد بظلمه إذا لم تبلغه الدعوة ، وألا تهلك الأمم بعذاب الاستئصال ، إلا بعد إرسال الرسل إليهم ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ﴾ [فاطر ٣٥ / ٢٤] وقال سبحانه : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ ، وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل ١٦ / ٣٦] وقال عزّ وجلّ : ﴿وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء ١٧ / ١٥].

وقوله تعالى : ﴿بِظُلْمٍ﴾ يحتمل ـ كما ذكر الطبري ـ وجهين : الأول ـ بشرك ونحوه ، أي أن الظلم فعل للكفار. والثاني ـ لا يكون الهلاك ظلما بغير حق دون التنبيه والتذكير بالرسل والآيات والعبرة ، أي أن ذلك عائد إلى فعل الله تعالى والوجه الأول أقوى ، كما قال الطبري [1] والرازي وغيرهما ، والخلاصة : إن الله لا يظلم أحدا من خلقه ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ، فكل ما نزل وينزل بالمسلمين إنما هو لسوء أعمالهم ، وتركهم دينهم ، والعيب فيهم لا في نظام شرعهم.

ولكل عامل في طاعة الله أو معصيته مراتب ومنازل من عمله ، يبلغه الله إياها ، ويثيبه بها ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.

والله مطلع على كل الأعمال ، فما من عمل لهم إلا يعلمه ، وهو محصيه ومثبته لهم عنده ، ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ، ومعادهم إليه.

وهذا دليل على أن مناط السعادة والشقاء : هو عمل الإنسان ومشيئته ، أو كسبه وإرادته واختياره.

---

(١) تفسير الطبري : ٨ / ٢٨

فقه الحياة أو الأحكام :

تدل آية : ﴿وَكَذلِكَ نُوَلِّي ..﴾ على أن الرعية متى كانوا ظالمين ، فالله تعالى يسلط عليهم ظالما مثلهم ، فإن أرادوا التخلص من ذلك الأمير الظالم ، فليتركوا الظلم.

وتدل الآية أيضا على أنه لا بد للناس من أمير وحاكم ؛ لأنه تعالى إذا كان لا يخلي أهل الظلم من أمير ظالم ، فبأن لا يخلي أهل الصلاح من أمير يحملهم على زيادة الصلاح ، كان أولى. قال علي رضي الله عنه : «لا يصلح للناس إلا أمير عادل ، أو جائر» فلما أنكروا قوله : «أو جائر» قال : نعم يؤمن السبيل ، ويمكن من إقامة الصلوات ، وحج البيت».

وتذكر الآية سنة من سنن الله في الناس ، وهي أنه لما كان تعالى ولي المؤمنين أي حافظهم وحارسهم ومعينهم وناصرهم وأن لهم دار السلام ، أبان أن أهل النار بعضهم أولياء بعض ، أي أن نصراءهم من يشبههم في الظلم والخزي والنكال.

ومهمة الرسل عليهم السلام : تلاوة الآيات الإلهية وتأويلها وتوضيحها ، وإنذار الناس وتخويفهم عذاب يوم القيامة.

ولم يجد الكفار بدا من الاعتراف بذلك ، ولكن الحياة الدنيا خدعتهم وظنوا أنها تدوم ، وخافوا زوالها عنهم إن آمنوا ، واعترفوا بكفرهم.

والله عادل أتم العدل وأكمله ، لذا فإن عذاب الكفار عدل وحق وواجب ، فلا يعذبهم إلا بعد بيان وإنذار ، ولا يعاقبهم إلا بعد بعثة الأنبياء والرسل إليهم. وإرسال الرسل أمر حتمي ضروري ، لأن من خصائص الله وصفاته أنه لا يهلك أهل القرى بشركهم قبل إرسال الرسل إليهم ، فيقولوا : ما جاءنا من بشير ونذير.

ولكل العاملين لمن الجن والإنس مراتب بحسب أعمالهم ، فلمن عمل بطاعة الله درجات في الثواب ، ولمن عمل بمعصيته دركات في العقاب ، والله ليس بغافل ولا لاه ولا ساه عن كل عمل ، قليل أو كثير.

ودلت آية : ﴿ذلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها غافِلُونَ﴾ على أنه لا تكليف ولا إيجاب قبل ورود الشرع ، وأن العقل المحض لا يدل على التكليف والإيجاب أصلا.

التهديد بعذاب الاستئصال والإنذار بعذاب القيامة

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣) إِنَّ ما تُوعَدُونَ لَآتٍ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤) قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥)﴾

الإعراب :

﴿إِنَّ ما تُوعَدُونَ لَآتٍ ما﴾ اسم موصول بمعنى الذي في موضع نصب اسم ﴿إِنَ﴾. و ﴿تُوعَدُونَ﴾ صلة ، والعائد إليه محذوف ، تقديره : إن الذي توعدونه لآت ، مثل قوله تعالى : ﴿أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً﴾ [الفرقان ٢٥ / ٤١] أي بعثه.

﴿مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ مَنْ﴾ إما استفهامية مبتدأ ، وما بعدها خبره ، والجملة في موضع نصب بتعلمون ، وإما أن تكون بمعنى «الذي» خبرا ، فتكون في موضع نصب بتعلمون.

البلاغة :

﴿إِنَّ ما تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ عبر بالفعل المضارع المفيد للاستقبال ، للدلالة على الاستمرار المتجدد. والجملة مؤكدة بمؤكدين : إن ، واللام ، للرد على منكري البعث.

المفردات اللغوية :

﴿يُـذْهِبْكُمْ﴾ يهلككم يا أهل مكة ﴿وَيَسْـتَخْلِفْ﴾ أي ينشئ الخلف وهو الذرية والنسل ﴿كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ أذهبهم ولكنه أبقاكم رحمة لكم ، وقوله ﴿مِنْ ذُرِّيَّةِ﴾ أي من نسل قوم ﴿وَما أَنْـتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ فائتين عذابنا ، فالله قادر غير عاجز على إدراككم.

﴿مَكانَتِكُمْ﴾ حالتكم ﴿عاقِبَةُ الدَّارِ﴾ العاقبة المحمودة أو عاقبة الخير في الدار الآخرة ، إذ لا اعتداد بعاقبة الشر ؛ لأن الله جعل الدنيا مزرعة الآخرة. ﴿إِنَّـهُ لا يُفْلِـحُ﴾ يسعد ﴿الظَّالِمُونَ﴾ الكافرون.

المناسبة :

لما بيّن الله تعالى ثواب أهل الطاعة وعقاب أهل المعصية ، وذكر أن لكل قوم درجة مخصوصة ومرتبة معينة ، بيّن أنّه غير محتاج إلى طاعة المطيعين ، ولا ينتقص بمعصية المذنبين ، فإنه تعالى غني لذاته عن جميع العالمين ، ولكنه أيضا ذو رحمة عامة كاملة ، ثم بيّن أنه قادر على وضع الرحمة في هذا الخلق ، أو في خلق جديد بديل عنهم ، ثم فوض الأمر إلى خلقه على سبيل التهديد.

التفسير والبيان :

وربك يا محمد هو الغني عن جميع خلقه وعن عبادتهم من جميع الوجوه ، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم ، وهو مع ذلك ذو الرحمة الشاملة بهم ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحج ٢٢ / ٦٥] وقال في بيان غناه : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْـتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللهِ ، وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر ٣٥ / ١٥].

وجملة ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ تفيد الحصر ، بمعنى أنه لا غني إلا هو ، ولا رحمة إلا منه ، لأنه واجب الوجود لذاته ، وغيره ممكن لذاته ، والممكن محتاج ، فثبت أنه لا غني إلا هو ، وكل ما سوى الله منه ، فثبت أنه لا رحمة إلا من الحق ، فكل ما عداه محتاج إليه في وجوده وبقائه ، ومحتاج إلى الأسباب التي هي قوام وجوده وحياته.

إن يشأ يذهبكم أيها الكافرون المعاندون كأهل مكة ، كما أهلك من عاند الرسل كعاد وثمود ، ويأت بخلق جديد غيركم أفضل منكم وأطوع ، فهو قادر على أن يستخلف من بعدكم ما يشاء من الأقوام ، كما قدر على إنشائكم من ذرية قوم آخرين ، أي أنه قادر على الإهلاك والإنشاء معا ، وقد حق ذلك ، فأهلك زعماء الشرك المعاندين ، واستخلف من بعدهم قوما آخرين وهم المهاجرون والأنصار وأتباعهم الذين كانوا مظهر رحمة الله للبشر في سلمهم وحربهم ، حتى قال غوستاب لوبون : «ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب».

وبعد أن وجه لهم هذا الإنذار بالإهلاك في الدنيا ، أتبعه إنذارا آخر في الآخرة ، فقال: ﴿إِنَّ ما تُوعَدُونَ لَآتٍ ..﴾ أي أخبرهم يا محمد أن الذي توعدون به من الجزاء الأخروي كائن لا محالة ، وما أنتم بمعجزين ، أي لا تعجزون بهرب ولا امتناع مما يريد ، فهو القادر على إعادتكم ، وإن صرتم ترابا رفاتا وعظاما ، وهو القاهر فوق عباده. روى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النّبي ﷺ أنه قال : «يا بني آدم إن كنتم تعقلون ، فعدّوا أنفسكم من الموتى ، والذي نفسي بيده ، إنما توعدون لآت ، وما أنتم بمعجزين».

ثم أردف الله تعالى ذلك بتهديد آخر شديد ووعيد أكيد فقال : ﴿قُلْ : يا قَوْمِ ، اعْمَلُوا ...﴾ أي أخبرهم يا محمد بقولك : استمروا على طريقتكم وحالتكم التي أنتم عليها إن كنتم تظنون أنكم على هدى ، فأنا مستمر على طريقتي ومنهجي ، كقوله تعالى : ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ : اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ ، إِنَّا عامِلُونَ ، وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [هود ١١ / ١٢١ ـ ١٢٢].

قال الزمخشري في قوله : ﴿اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ﴾ : يحتمل وجهين : اعملوا على تمكنكم من أمركم ، وأقصى استطاعتكم ، وإمكانكم ؛ أو اعملوا على جهتكم وحالكم التي أنتم عليها ، إني عامل على مكانتي التي أنا عليها ، والمعنى : اثبتوا على كفركم

وعداوتكم لي ، فإني ثابت على الإسلام وعلى مصابرتكم [١].

فسوف تعلمون أينا تكون له العاقبة المحمودة ، أنحن أم أنتم؟ وعاقبة الدار : العاقبة الحسنى التي خلق الله تعالى هذه الدار لها.

وهذا ـ كما قال الزمخشري ـ طريق من الإنذار ، لطيف المسلك ، فيه إنصاف في المقال ، وأدب حسن ، مع تضمن شدة الوعيد ، والوثوق بأن المنذر محق ، والمنذر مبطل. وهو على طريقة قوله : ﴿اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ﴾ [فصلت ٤١ / ٤٠] وقوله : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ ٣٤ / ٢٤].

وهو دليل على أن أحوال الأمم مرتبة بحسب أعمالها ، وأن عاقبة كل عمل نتيجة حتمية له ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.

إنه لا يفلح الظالمون أي لا يسعد ولا ينجح الظالمون أنفسهم بالكفر بنعم الله ، واتخاذ الشركاء له في ألوهيته ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [إبراهيم ١٤ / ١٤].

ومما نحمد الله عليه أن أنجز الله موعده لرسوله ، فمكّنه في البلاد ، ونصره على مشركي العرب ، ودانت له الجزيرة العربية واليمن والبحرين في حياته ، ثم فتحت الأمصار والأقاليم بعد وفاته في أيام خلفائه ، وانتشر الإسلام في المشارق والمغارب ، وتعاقبت دول الإسلام قوية عزيزة منيعة عدة قرون من الزمان ، كما قال تعالى : ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة ٥٨ / ٢١] وقال : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ ، يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ ، وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر ٤٠ / ٥١ ـ ٥٢].

---

(١) الكشاف : ١ / ٥٢٩

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على صفات عظيمة لله عَزَّوَجَلَّ وهي الغنى المطلق عن خلقه وعن أعمالهم ، والرحمة الشاملة لعباده ، ولا سيما أولياؤه وأهل طاعته ، والقدرة الكاملة على الإماتة والاستئصال بالعذاب ، والإحياء والإنشاء واستخلاف خلق آخر أمثل وأطوع.

وقال المعتزلة : هذه الآية إشارة إلى الدليل الدال على كونه عادلا منزها عن فعل القبيح ، وعلى كونه رحيما محسنا بعباده.

ودلت الآيات أيضا على أن وعد الله محقق منجز ، وأن الإيعاد بعذاب الآخر كائن حتما لا محالة ، والجزاء أمر لازم لأهل الخير والشر.

وتضمنت الآيات إنذارين : إنذارا في الدنيا لتصحيح الأعمال بالتهديد بعذاب الاستئصال ، وإنذارا في الآخرة للرهبة من الحساب وعذاب النار.

ولا شك بأن المصير مختلف بين أهل الطاعة وأهل المعصية ، فالعاقبة الحسنة المحمودة لمن آمن بالإسلام وأطاع الله ، والمصير المشؤوم لمن كفر بالله وعصاه ورفض أوامره وتحدى رسله.

شريعة الجاهلية في الزروع والثمار والأنعام وقتل الأولاد

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعامِ نَصِيباً فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهذا لِشُرَكائِنا فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللهِ وَما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ ساءَ

ما يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شاءَ اللهُ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقالُوا هذِهِ أَنْعامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إِلاَّ مَنْ نَشاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها وَأَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افْتِراءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقالُوا ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِراءً عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّوا وَما كانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠)﴾

الإعراب :

﴿ساءَ ما يَحْكُمُونَ مِمَّا﴾ في موضع رفع ؛ لأنه فاعل ﴿ساءَ﴾.

﴿زَيَّنَ﴾ فعل مبني لمعلوم ، وفاعله : ﴿شُرَكاؤُهُمْ﴾ و ﴿قَتْلَ﴾ مفعول به وهو مصدر أضيف إلى المفعول. وقرئ زين بالبناء للمجهول ، وقتل بالضم نائب الفاعل ، و ﴿شُرَكاؤُهُمْ﴾ فاعل مرفوع بفعل مقدر دل عليه ﴿زَيَّنَ﴾ كأنه قيل : لما قيل : زين لهم قتل أولادهم : من زينه؟ فقيل : زينه لهم شركاؤهم. وقرأ ابن عامر بنصب : أولادهم ، وجر: شركائهم بالفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول ، ولا يضر كما قال السيوطي ، وهو وجه سائغ لغة ، بدليل أنها قراءة متواترة.

﴿مَنْ نَشاءُ مَنْ﴾ فاعل مرفوع لفعل : يطعم.

﴿مـا فِي بُطُـونِ مـا﴾ اسم موصول ، بمعنى الذي مبتدأ مرفوع ، و ﴿فِي بُطُونِ هـذِهِ الْأَنْعامِ﴾ صلته. و ﴿خالِصَةٌ﴾ خبر المبتدأ ، وأنث خالصة ، حملا على معنى ﴿ما﴾ لأن المراد بما في بطون هذه الأنعام : الأجنة ، وذكّر : ﴿مُحَرَّمٌ﴾ حملا على لفظ ﴿ما﴾ ويجوز أن يكون ﴿خالِصَةٌ﴾ بدلا مرفوعا من ﴿ما﴾ بدل بعض من كل ، و ﴿لِذُكُورِنا﴾ الخبر. ومن قرأ خالصة بالنصب كان منصوبا على الحال من الضمير المرفوع في قوله ﴿فِي بُطُونِ﴾. وخبر المبتدأ الذي هو ﴿ما﴾ : ﴿لِذُكُورِنا﴾.

﴿وَإِنْ يَكُـنْ مَيْتَـةً﴾ اسم ﴿يَكُـنْ﴾ ضمير مضمر فيها ، و ﴿مَيْتَـةً﴾ خبرها. و ﴿يَكُنْ﴾ محمول على لفظ ﴿ما﴾ وتقديره : وإن يكن ما في بطون هذه الأنعام ميتة. ومن رفع ميتة فلأن تأنيث الميتة ليس بحقيقي. ومن قرأ : تكن بالتاء ، وجعل كان تامة بمعنى: حدث ووقع ، ورفع ميتة لأنه فاعل ، كقوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً﴾ [النساء ٤ / ٤٠] في قراءة الرفع. ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْـفَهُمْ﴾ منصوب بنزع الخافض أي بوصفهم. ﴿سَفَهاً﴾ إما منصوب على المصدر ، وإما على أنه مفعول لأجله.

البلاغة :

﴿مـا رَزَقَهُـمُ اللهُ افْـتِراءً عَلَـى اللهِ﴾ إظهار لفظ الجلالة الثاني ، لبيان كمال عتوهم وضلالهم.

المفردات اللغوية :

﴿وَجَعَلُوا﴾ أي كفار مكة ﴿ذَرَأَ﴾ خلق وأبدع ﴿الْحَرْثِ﴾ الزرع ، جعلوا لله نصيبا يصرفونه إلى الضيفان والمساكين ، ولشركائهم نصيبا يصرفونه إلى سدنتها ﴿فَقالُوا : هـذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهذا لِشُرَكائِنا﴾ أي الأوثان التي يتقربون بعبادتها إلى الله تعالى ، فكانوا إذا سقط في نصيب الله شيء من نصيبها التقطوه ، أو في نصيبها شيء من نصيبه تركوه ، وقالوا : إن الله غني عن هذا ، كما قال تعالى : ﴿فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللهِ﴾ أي لجهته وهي سدنة الآلهة وخدمها. ﴿ساءَ﴾ بئس ﴿ما يَحْكُمُونَ﴾ حكمهم هذا.

﴿قَتْـلَ أَوْلادِهِـمْ﴾ بالوأد ﴿شُـرَكاؤُهُمْ﴾ من الجن ﴿لِـيُرْدُوهُمْ﴾ يهلكوهم بالإغواء ﴿وَلِيَلْبِسُوا﴾ يخلطوا ﴿حِجْرٌ﴾ أي حرام ممنوع ، والحجر : أصله المنع ، ومنه سمي العقل حجرا لمنعه صاحبه ﴿إِلَّا مَنْ نَشاءُ﴾ من خدمة الأوثان وغيرهم ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ أي لا حجة لهم فيه ﴿وَأَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها﴾ فلا تركب ، كالسوائب والحوامي ﴿وَأَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا﴾ عند ذبحها بل يذكرون اسم أصنامهم ، ونسبوا ذلك إلى الله ﴿مـا فِي بُطُـونِ هـذِهِ الْأَنْعامِ﴾ المحرمة وهي السوائب والبحائر ﴿خالِصَةٌ﴾ حلال ﴿أَزْواجِنا﴾ النساء ﴿وَصْفَهُمْ﴾ أي سيجزيهم جزاء وصفهم ذلك بالتحليل والتحريم ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ في صنعه ﴿عَلِيمٌ﴾ بخلقه ﴿سَفَهاً﴾ جهلا.

المناسبة :

بعد أن ندد الله تعالى بفساد عقائد المشركين ، ومنها إنكار القيامة والبعث والجزاء ، ذكر هنا أنواعا وصورا من جهالاتهم وأحكامهم المفتراة في تحليل وتحريم بعض الزروع والثمار والأنعام ، ووأد البنات.

التفسير والبيان :

هذه ألوان من شرائع الجاهلية العربية قبل الإسلام التي ابتدعها المشركون ، واخترعوها بأهوائهم وآرائهم الفاسدة ، وتأثرا بوساوس الشيطان.

النوع الأول :

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ ...﴾ أي وجعلوا لله نصيبا مما خلق من الزرع والثمار والأنعام ، وخصصوا له جزءا وقسما من الغلة والثمرة والنتاج ، وجعلوا نصيبا آخر لشركاء لله المزعومين من الأوثان والأصنام.

وقالوا في النصيب الأول : ﴿هذا لِلَّهِ﴾ ، نتقرب به إليه ، وفي النصيب الثاني : ﴿هذا لِشُرَكَائِنا﴾ أي لمعبوداتنا نتقرب به إليها.

وجعل الأوثان شركاءهم ؛ لأنهم جعلوا لها نصيبا من أموالهم ينفقونه عليها ، وأطاعوها طاعة إذعان وخضوع في التحليل والتحريم مما هو من خصائص الله تعالى. وقوله : ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ أي بتقولهم الذي لا بينة لهم عليه ولا هدى من الله ، فيزعمون أنهم يحرمونه قربة لله ، والقربة يجب أن تكون خالصة له وحده ، وبإذنه ؛ لأنه دين ، والدين لله ومن الله وحده.

ونصيب الله كانوا يجعلونه للضيوف وإكرام الصبيان والتصدق على المساكين ، ونصيب آلهتهم لسدنتها وخدمها ومصالحها.

وما عينوه لشركائهم لا يصرف منه شيء إلى الوجوه التي جعلوها لله ، بل يجعلونه للسدنة وخدمة الأصنام والأوثان وذبح القرابين.

وما جعلوه لله فقد يصرف للتقرب به إلى الأوثان.

﴿ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ أي بئس الحكم الذي يحكمون أو يقسمون ويصنعون ، بإيثارهم المخلوق العاجز على الخالق القادر على كل شيء ، فهي قسمة جائرة ؛ لأن الله تعالى هو رب كل شيء ومليكه وخالقه ، وحينما قسموا جاروا فلم يصرفوا له حقوقه ، أو جعلوا له الصنف الأضعف ، كما قال تعالى : ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ ، سُبْحانَهُ ، وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ﴾ [النحل ١٦ / ٥٧] وقال تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً ، إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ [الزخرف ٤٣ / ١٥] وقال عَزَّوَجَلَّ : ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى. تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى﴾ [النجم ٥٣ / ٢١ ـ ٢٢].

إنهم بهذا الصنع القبيح اعتدوا على حق الله في التشريع ، وأشركوا به غيره وعبدوا معه إلها آخر ، وفضلوه ورجحوه عليه بجعل ما لله لشركائهم ، ولم يستندوا في حكمهم على سند صحيح من عقل أو هداية من شرع إلهي.

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية : «إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثا ، أو كانت لهم ثمرة ، جعلوا لله منه جزءا ، وللوثن جزءا ، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان ، حفظوه وأحصوه ، وإن سقط منه شيء فيما سمي للصّمد ، ردوه إلى ما جعلوه للوثن ، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن ، فسقى شيئا ، جعلوه لله ، جعلوا ذلك للوثن ، وإن سقط شيء من الحرث والثمرة الذي جعلوه لله ، فاختلط بالذي جعلوه للوثن ، قالوا : هذا فقير ، ولم يردوه إلى ما جعلوه لله ، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه لله ، فسقى ما سمي للوثن ، تركوه للوثن.

وكانوا يحرّمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي ، فيجعلونه

للأوثان ، ويزعمون أنهم يحرمونه قربة لله تعالى».

النوع الثاني :

﴿وَكَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ...﴾ أي ومثل ذلك التزيين بقسمة الحرث والأنعام بين الله والأوثان ، زيّن لكثير من المشركين شركاؤهم (سدنة الآلهة وخدمها) أن يقتلوا أولادهم ، وقال مجاهد : شركاؤهم : شياطينهم يأمرونهم أن يئدوا أولادهم خشية العلية (الفقر) وقال السدي : أمرتهم الشياطين أن يقتلوا البنات ، إما ليردوهم فيهلكوهم ، وإما ليلبسوا عليهم دينهم ، أي فيخلطوا عليهم دينهم.

وسبب هذا التزيين : أن الشياطين خوفوهم الفقر في الحال أو في المستقبل ، كما وصف تعالى ونهى عن فعله فقال : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء ١٧ / ٣١].

وخوفوهم العار ، فقتلوا البنات خوف العار والفقر والزواج من غير كفء ، وقد سنح الله تعالى عليهم بقوله : ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير ٨١ / ٨].

وأوهموهم أن قتل الأولاد يقربهم إلى الله ، كما فعل عبد المطلب حين نذر قتل ابنه عبد الله ، وأشار إليه النبي ﷺ بقوله : «أنا ابن الذبيحين».

وذكر تعالى علة تزيين المنكرات فقال : ﴿لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أي زيّن هؤلاء الشياطين لهم هذه المنكرات ، ومنها قتل أولادهم ، ليردوا المشركين ويهلكوهم بالإغواء ، ويفسدوا عليهم فطرتهم ، وليخلطوا عليهم أمر دينهم الذي يدّعونه وهو دين إسماعيل وملة إبراهيم.

ولو شاء الله ما فعلوا هذا أبدا ، وكل هذا واقع بمشيئة الله تعالى وإرادته

واختياره لذلك بمقتضى الحكمة التامة ، قال أهل السنة : إنه يدل على أن كل ما فعله المشركون ، فهو بمشيئة الله تعالى.

وقالت المعتزلة : إنه محمول على مشيئة الإلجاء ، أي إن مشيئة الله تعالى أن يتركهم واختيارهم ، فيأخذوا بما يرونه دون جبر ولا قهر ، علما بأن الله قادر على أن يجعلهم مؤمنين ، بأن يخلقهم مطبوعين على الاستعداد للإيمان كالملائكة ، أو يخلق فيهم بواعث الإيمان ودواعيه ، فينقادوا لدعوة الإيمان عند ظهورها ، وبمجرد مجيء الرسول الذي يقنعهم بضرورة الإيمان ، والإقرار بوجود الله ووحدانيته.

فاتركهم أيها الرسول وما يدينون ، وما عليك إلا التبليغ.

النوع الثالث :

﴿**وَقالُوا : هذِهِ أَنْعامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ ...**﴾ أي إنهم لشركهم وجاهليتهم المشوهة قسموا أنعامهم وزروعهم ثلاثة أقسام :

١ ـ أنعام وأقوات ممنوعة الانتفاع على أحد ، ومخصصة لمعبوداتهم وأوثانهم ، ويقولون: هي حجر أي محتجرة للآلهة لا تعطى لغيرهم ، ويقولون : لا يطعمها إلا من نشاء أي لا يأكل منها إلا خدم الأوثان ، والرجال دون النساء. وذلك قول صادر عن زعمهم الخالي من الحجة والبرهان.

٢ ـ أنعام حرّمت ظهورها ، فلا تركب ولا يحمل عليها ، وهي البحائر والسوائب والحوامي ، التي تقدم ذكرها وتفسيرها في سورة المائدة : ﴿**ما جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سائِبَةٍ ..**﴾ [١٠٣].

٣ ـ أنعام لا يذكرون اسم الله عليها عند الذبح ، وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام ، ولا ينتفعون بها حتى في الحج.

وقد قسموا تلك القسمة مفترين على الله ، كاذبين عليه ، فهو لم يشرعه لهم ، وما كان لهم أن يحللوا أو يحرموا شيئا لم يأذن الله به ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ : أَرَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ ، فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالاً ، قُلْ : آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس ١٠ / ٥٩].

والله سيجزيهم الجزاء الذي يستحقونه بما كانوا يفترون. وهذا وعيد وتهديد لهم.

ثم ذكر الله تعالى نوعا آخر من التحليل والتحريم بزعمهم وسخفهم فقال : ﴿وَقالُوا : ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ ..﴾ أي إن أجنة وألبان هذه البحائر (أي المشقوقة الآذان) والسوائب المسيّبة للآلهة فلا يتعرض لها أحد : هو حلال خاص برجالنا ، ومحرم على إناثنا ، فلبنها للذكور ومحرم على الإناث ، وإذا ولدت ذكرا جعلوه خالصا للذكور لا تأكل منه الإناث ، وإذا ولدت أنثى تركت للنتاج فلم تذبح ، وإذا كان المولود ميتا اشترك فيه الذكور والإناث.

سيجزيهم جزاء وصفهم أي قولهم الكذب في ذلك ، كما قال تعالى : ﴿وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ : هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ ، لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل ١٦ / ١١٦].

ثم ندد الله بوأد البنات وتحريم ما أحل الله فقال : ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ ...﴾ أي خسر الذين قتلوا أولادهم ، فوأدوا البنات خسرانا مبينا ، وحرموا ما رزقهم الله من الطيبات.

إنهم قتلوا أولادهم سفها أي خفة مذمومة ، وحماقة مفضوحة ، خوفا من ضرر موهوم وهو الفقر ، وجهلا بما ينفع ويضر ويحسن ويقبح ، ولا شك أن الجهل أعظم المنكرات والقبائح ، وحرموا الطيبات افتراء وكذبا على الله ، ولقد ضلوا ضلالا مبينا لعدم توصلهم إلى مصالح الدنيا والدين ، ولم يكونوا مهتدين إلى شيء

من الحق والصواب ، وفائدة قوله : ﴿وَما كانُوا مُهْتَدِينَ﴾ لبيان أنه لم يحصل منهم اهتداء قط.

أخرج البخاري عن ابن عباس قال : «إذا سرّك أن تعلم جهل العرب ، فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام : ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً﴾ إلى قوله : ﴿وَما كانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة أنه قال في هذه الآية : هذا صنع أهل الجاهلية ، كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السّباء والفاقة ، ويغذو كلبه.

فقه الحياة أو الأحكام :

تلك شرائع العرب في جاهليتهم الجهلاء ، مصدرها وهم وسخف ، وقصور عقل ، وهوى فاسد ، روي أن رجلا قال لعمرو بن العاص : إنكم على كمال عقولكم ، ووفور أحلامكم ، عبدتم الحجر! فقال عمرو : تلك عقول كادها باريها.

هذا الذي أخبر الله سبحانه من سخافة العرب وجهلهم أمر أذهبه الإسلام ، وأبطله الله ببعثة الرسول ﷺ ، فبئس الحكم حكمهم.

قال ابن زيد : كانوا إذا ذبحوا ما الله ، ذكروا عليه اسم الأوثان ، وإذا ذبحوا ما لأوثانهم لم يذكروا عليه اسم الله.

إنهم لم يعدلوا في قسمتهم الزروع والثمار والأنعام ، فما جعلوه لله بزعمهم صرفوه لأوثانهم ، وما جعلوه لأوثانهم قدموه لها.

وقد ارتكبوا ظلما عظيما بوأد البنات : وهو دفن البنت حية مخافة السّباء والحاجة ، ولعدم ما حرمن من النصرة ، أي أنهم لا يستطيعون الغزو والقتال.

وشركاؤهم وهم الذين كانوا يخدمون الأوثان ، أو الغواة من الناس أو

الشياطين هم الذين زينوا لهم قتل أولادهم ليهلكوهم ، وليخلطوا عليهم دينهم الذي ارتضى لهم ، أي يأمرونهم بالباطل ويشككونهم في دينهم. وكانوا على دين إسماعيل.

وقد صنفوا أموالهم وأقواتهم ثلاثة أصناف ، صنف لمعبوداتهم وأوثانهم ، وصنف حرّمت ظهورها ، وصنف لا يذكرون اسم الله عليها عند الذبح ، افتراء وكذبا على الله بما لم يشرعه ، وسيلقون جزاء افترائهم.

وخصصوا ألبان الأنعام وذكورها لذكورهم الرجال ، وحرموها على الإناث ، وجعلوا الميتة شركة بين الذكور والإناث ، وتركوا الأنثى للنتاج ، سيجزيهم الله وصفهم ، أي كذبهم وافتراءهم ، أي يعذبهم على ذلك.

وكان أشد أنواع عاداتهم وأحكامهم ظلما وجرما قتلهم الأولاد أي البنات وتحريم ما أحل الله ، بدليل أنه كرر الله توبيخهم عليه في هذه الآيات ، وحكم عليهم بسبعة أمور [١] :

١ ـ الخسران : لأن الولد نعمة عظيمة من الله على العبد.

٢ ـ السفاهة : وهي الخفة المذمومة ؛ لأن قتل الولد لخوف الفقر ، والفقر وإن كان ضررا ، إلا أن القتل أعظم منه ضررا ، والفقر موهوم والقتل ضرر حتمي.

٣ ـ الجهل وعدم العلم : لأن هذه السفاهة تولدت من عدم العلم ، ولا شك أن الجهل أعظم المنكرات والقبائح.

٤ ـ تحريم ما أحل الله لهم ، وهو من أعظم أنواع الحماقة ، لأنه يمنع نفسه تلك المنافع والطيبات.

---

(١) تفسير الرازي : ١٣ / ٢٠٩

٥ ـ الافتراء على الله : ومن المعلوم أن الجرأة على الله والافتراء عليه أعظم الذنوب والكبائر.

٦ ـ الضلال عن الرشد في مصالح الدين ومنافع الدنيا.

٧ ـ إنهم ما كانوا مهتدين ، وهو وصف لازم دائم لهم.

روي أن رجلا من أصحاب النّبي ﷺ كان لا يزال مغتما بين يدي رسول الله ﷺ ، فقال له : «مالك تكون محزونا؟» فقال : يا رسول الله ، إني أذنبت ذنبا في الجاهلية ، فأخاف ألا يغفره الله لي ، وإن أسلمت! فقال له : «أخبرني عن ذنبك» فقال : يا رسول الله ، إني كنت من الذين يقتلون بناتهم ، فولدت لي بنت ، فتشفّعت إليّ امرأتي أن أتركها ، فتركتها حتى كبرت وأدركت ، وصارت من أجمل النساء ، فخطبوها ؛ فدخلتني الحميّة ولم يحتمل قلبي أن أزوجها أو أتركها في البيت بغير زوج ، فقلت للمرأة : إني أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا في زيارة أقربائي فابعثيها معي ، فسرّت بذلك وزينتها بالثياب والحلّي ، وأخذت على المواثيق بألا أخونها ، فذهبت بها إلى رأس بئر ، فنظرت في البئر ، ففطنت الجارية أني أريد أن ألقيها في البئر ؛ فالتزمتني وجعلت تبكي وتقول : أيش تريد أن تفعل بي! فرحمتها ، ثم نظرت في البئر فدخلت عليّ الحميّة ، ثم التزمتني وجعلت تقول : يا أبت لا تضيع أمانة أمّي ؛ فجعلت مرة أنظر في البئر ، ومرة أنظر إليها فأرحمها ، حتى غلبني الشيطان ، فأخذتها وألقيتها في البئر منكوسة ، وهي تنادي في البئر : يا أبت ، قتلتني.

فمكثت هناك حتى انقطع صوتها فرجعت ، فبكى رسول الله ﷺ وأصحابه وقال : لو أمرت أن أعاقب أحدا بما فعل في الجاهلية لعاقبتك [1].

---

(١) تفسير القرطبي : ٧ / ٩٧

الأدلة الواضحة على قدرة الله تعالى

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشابِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٤٢) ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهذا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤)﴾

الإعراب :

﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ﴾ معطوف بالنصب على ﴿جَنَّاتٍ﴾ ، و ﴿جَنَّاتٍ﴾ : منصوب بأنشأ ﴿مُخْتَلِفاً﴾ حال مقدرة ، أي سيكون كذلك ، لأنها في أول ما تخرج لا أكل فيها ، وإنما توصف باختلاف الأكل وقت إطعامها.

﴿حَمُولَةً وَفَرْشاً﴾ منصوب بالعطف على ﴿جَنَّاتٍ﴾ ، وتقديره : وأنشأ من من الأنعام حمولة وفرشا.

﴿ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ﴾ منصوب من خمسة أوجه : إما بفعل مقدر ، أي وأنشأ ثمانية أزواج ، وإما بفعل تقديره : كلوا لحم ثمانية ، أو بدل من قوله : ﴿حَمُولَةً وَفَرْشاً﴾ أو بدل من ﴿مِمَّا﴾ في قوله : ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ ، أو بدل من ما في قوله : ﴿وَحَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللهُ﴾ أي حرموا ثمانية أزواج.

و ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ بدل من ﴿ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ﴾ أي اثنتين من الضأن ، واثنتين من المعز ، واثنتين من الإبل ، واثنتين من البقر.

﴿آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ منصوب بحرم ، و ﴿الْأُنْثَيَيْنِ﴾ معطوف على ﴿آلذَّكَرَيْنِ﴾. و ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ﴾ : معطوف على ﴿الْأُنْثَيَيْنِ﴾.

البلاغة :

﴿حَمُولَةً وَفَرْشاً﴾ بينهما طباق ، لأن الأولى كبار ، والثانية صغار ﴿خُطُواتِ الشَّيْطانِ﴾ استعارة للتحذير من طاعة الشيطان.

المفردات اللغوية :

﴿أَنْشَأَ﴾ خلق وأوجد بالتدريج ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين مزدانة بالأشجار وسميت جنات ؛ لأنها تجن الأرض ، أي تسترها ﴿مَعْرُوشاتٍ﴾ مرفوعات على العرائش والدعائم لتمتد عليها الأغصان كالكروم ، يقال : سقف البيت : عرشه ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشاتٍ﴾ متروكات على وجه الأرض لم تعرش أو مستغنية بسوقها وأغصانها عن التعريش ﴿مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ﴾ أي يختلف ثمره وحبه في الهيئة والطعم ﴿مُتَشابِهاً﴾ في النظر ﴿وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ﴾ في الطعم ﴿وَآتُوا حَقَّهُ﴾ زكاته يوم حصاده أي قطافه من العشر أو نصفه ﴿وَلا تُسْرِفُوا﴾ بإعطاء كله ، فلا يبقى لعيالكم شيء ﴿الْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين ما حد لهم.

﴿حَمُولَةً﴾ هي الكبار التي تطيق الحمل والعمل ، وتصلح لهما ، كالإبل والبقر الكبار وغيرها ﴿وَفَرْشاً﴾ هي الصغار التي لا تصلح للحمل والعمل ، كصغار الإبل وغيرها ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ﴾ أي طرائقه من التحريم والتحليل ، ومعنى الخطوة : المسافة بين القدمين ﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي بيّن العداوة.

﴿ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ﴾ أصناف ﴿مِنَ الضَّأْنِ الضَّأْنِ﴾ الغنم ذوات الصوف ، و ﴿الْمَعْزِ﴾ ذوات الأشعار ﴿اثْنَيْنِ﴾ زوجين اثنين : ذكر وأنثى ﴿آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ قل يا محمد لمن حرم ذكور

الأنعام تارة وإناثها أخرى ، ونسب ذلك إلى الله : آلذكرين حرم الله عليكم أم حرم الأنثيين منهما والاستفهام للإنكار. ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ هي الأجنة. ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ أخبروني عن كيفية تحريم ذلك ، إن كنتم صادقين فيه ، فمن أين جاء التحريم؟ فإن كان من قبل الذكورة فجميع الذكور حرام ، وإن كان من قبل الأنوثة فجميع الإناث حرام ، وإن كان مما اشتملت عليه الأرحام فهي تشتمل على الصنفين : الذكر والأنثى ، فمن أين جاء التخصيص؟

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ﴾ حضورا ﴿إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهذا﴾ التحريم ، فاعتمدتم ذلك ، لا ، بل أنتم كاذبون فيه ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي لا أحد.

سبب النزول :

نزول الآية (١٤١):

﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ﴾ : أخرج ابن جرير الطبري عن أبي العالية قال : كانوا يعطون شيئا سوى الزكاة ، ثم تسارفوا ، فنزلت هذه الآية : ﴿وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ وروي عنه أنه قال : كانوا يعطون يوم الحصاد شيئا سوى الزكاة ، ثم تباروا فيه وأسرفوا ، فقال الله : ﴿وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾.

وأخرج الطبري أيضا عن ابن جريج قال : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس : جذ نخلا فقال : لا يأتين اليوم أحد إلا أطعمته ، فأطعم حتى أمسى ، وليست له ثمرة ، فقال الله : ﴿وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[1].

المناسبة :

عرف مما سبق أن مدار القرآن الكريم على إثبات أصول الدين وهي التوحيد والنبوة ، والبعث (المعاد) والقضاء والقدر. وقد أثبتها تعالى ، وندد بمن أنكر شيئا منها ، ولما أتم المطلوب منها ، عاد إلى المقصود الأصلي وهو إقامة الدلائل على تقرير توحيد الله ، بإثبات الألوهية والربوبية له ، وإفراده بالعبادة وحق

---

(١) تفسير الطبري : ٨ / ٤٥

التشريع ، فلا إله غيره ، ولا رب سواه ، ولا خالق عداه ، ولا مشرّع في عبادة وتحليل وتحريم غيره ، فقال : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ﴾.

وفي ثنايا إبراز مظاهر القدرة الإلهية امتن الله على المشركين وغيرهم بما يسره لهم من الرزق ، وندد بما افتروه على الله من الكذب من الشرك وعدم الإيمان بالقضاء والقدر.

التفسير والبيان :

يبين الله تعالى أنه الخالق لكل شيء من الزروع والثمار ، والأنعام التي تصرف فيها المشركون بآرائهم الفاسدة وقسموها ، فجعلوا منها حراما وحلالا ، فقال : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ ...﴾.

أي إن الله هو الذي أوجد البساتين والكروم المشجرة ، سواء منها المعروش أي الذي يحمل على العرش : وهو عيدان تصنع كهيئة السقف ويوضع الكرم عليها ، وغير المعروش : وهو الملقى على وجه الأرض ، أو المستغني باستوائه على سوقه عن التعريش كبقية أشجار الفاكهة ، حتى بعض كروم العنب نفسها ، منها المعروش وغير المعروش. وخلق أيضا النخل والزرع المختلف الطعم واللون والرائحة والشكل. وأفرد النخل بالذكر لكثرته عند العرب ، ولجماله ، ولما له من منافع كثيرة بكل أجزائه ، ولبقاء ورقه دون سقوط في مختلف الفصول ، حتى شبّه المؤمن في الحديث النبوي به.

وأنشأ سبحانه الزرع المختلف الأنواع والأكل : وهو الثمر المأكول ، والذي به حياة بني آدم ، وهو يشمل كل ما يزرع صيفا وشتاء ، وأفرده الله بالذكر كالنخل ، كما فيهما من الفضيلة.

وقد ذكرت هذه الأنواع على طريق الترقي من الأدنى في التغذية واقتيات الناس إلى الأعلى والأعم ، فإن الحبوب هي الغذاء الأساسي.

وأنشأ الزيتون والرمان متشابها في المنظر وغير متشابه في الطعم والأكل.

وكل هذه الأنواع يسقي بماء واحد وفي تربة واحدة ، ولكن كل نوع يختلف عن الآخر طعما ولونا ورائحة ووقت نضج يتناسب مع حاجة الإنسان في زمن البرد والحر والاعتدال ، مما يدل على قدرة الخالق عليها ، وإبداع المنشئ المكون لأصنافها ، وذلك هو الله الواحد الأحد المتفرد بإمداد الرزق وبالتشريع المناسب.

وقد أباحها الله الإنسان وامتن بإنعامه بها عليه ، فقال : ﴿**كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ**﴾ أي كلوا من ثمرات ما أنبت الله إذا أثمر ولو لم ينضج ، وفائدة التقييد بقوله : ﴿**إِذا أَثْمَرَ**﴾ الترخيص للمالك في الأكل منه قبل أداء حق الله تعالى وهو الزكاة.

ثم جاء التكليف الواجب فيها وهو الزكاة المفروضة ، فقال تعالى : ﴿**وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ**﴾ أي وأخرجوا الزكاة المفروضة فيه يوم الحصاد : وهو وقت قطعه بعد تمام نضجه ، ويتبعه زمن الدوس ، لفصل الحب عن التبن ، ويدخل في الحصاد : جني العنب وصرم النخل وقطف الفاكهة. والحق المفروض : هو العشر فيما سقي بالمطر ، ونصف العشر فيما سقي بالنهر والبئر ونحوهما من الينابيع. ويعطى الحق المقرر شرعا للمستحقين وهم ذوو القربى واليتامى والمساكين.

وللعلماء رأيان في الحق الواجب في الثمر ، فقال ابن عباس : إنه الزكاة المفروضة ، وهي العشر أو نصفه.

وروي عن ابن عباس أيضا وهو قول سعيد بن جبير : إنه ما كان يتصدق به على المساكين يوم الحصاد. وكان ذلك واجبا من غير تعيين المقدار ؛ لأن هذه

الآية مكية ، والزكاة إنما فرضت بالمدينة ، فنسخ هذا الواجب بافتراض العشر ونصف العشر ، وهو الزكاة.

وقيل : إن الآية مدنية ، والحق أن المراد بها هو الزكاة المفروضة ، والمعنى : واعزموا على إيتاء الحق واقصدوه واهتموا به يوم الحصاد ، حتى لا تؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء.

ثم نبّه القرآن إلى منهجه المعروف وهو الوسطية والتوسط في الأمور والاعتدال في كل شيء ، فقال تعالى : ﴿وَلا تُسْرِفُوا ...﴾ أي كلوا مما رزقكم الله من غير إسراف في الأكل ، كما قال تعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ٣١] ولا تسرفوا أيضا في الصدقة ، كما روي عن ثابت بن قيس بن شماس أنه صرم خمسمائة نخلة ، ففرق ثمرها كله ، ولم يدخل شيئا إلى منزله ، كما قال تعالى : ﴿وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ [الإسراء ١٧ / ٢٩].

وقال الزّهري : المعنى : لا تنفقوا في معصية الله ، وروي نحوه عن مجاهد فقد أخرج عنه ابن أبي حاتم أنه قال : لو كان أبو قبيس ـ جبل بمكة ـ ذهبا ، فأنفقه رجل في طاعة الله تعالى ، لم يكن مسرفا ، ولو أنفق درهما في معصية الله تعالى كان مسرفا. ومن هذا الاتجاه قول بعض الحكماء : لا سرف في الخير ، ولا خير في السّرف.

والحق : أن الإسراف في كل شيء خيرا كان أو غيره خطأ ، سواء في الأكل أو التّصدق ؛ لأن على الإنسان واجب الإنفاق على نفسه وعلى أهله وذويه وأولاده ، حتى إنه إن لم يكن له أولاد ، فادّخار شيء من دخله أمر محمود ، لإنفاقه في حوائج المستقبل ، وحتى لا يصبح عالة على الآخرين ، ولذا يحجر على السّفيه المبذر شرعا ، ولو كان الإنفاق في سبل الخير. جاء في صحيح البخاري تعليقا : «كلوا واشربوا والبسوا من غير إسراف ولا مخيلة».

ومن تمام فضل الله ونعمته ورحمته أنه أنشأ لكم أيها الناس من الأنعام (وهي الإبل والبقر والغنم) كبارا صالحة للحمل ، وصغارا كالفصلان ، والغنم والمعز ، هي كالفرش المفروش عليها ، تفرش على الأرض للذّبح ، ويتّخذ من شعرها ووبرها الفرش واللباس. وهذا مثل قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ. وَذَلَّلْناها لَهُمْ ، فَمِنْها رَكُوبُهُمْ ، وَمِنْها يَأْكُلُونَ﴾ [يس ٣٦ / ٧١ ـ ٧٢] ، وقوله : ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً ، نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل ١٦ / ٦٦].

ثم كرر الله تعالى إباحة الأكل من الأنعام كإباحته من الزّرع ، فقال : ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ أي كلوا من هذه الأنعام ، كما تأكلون من الثمار والزّروع ، فكلها خلقها الله ، وجعلها رزقا لكم ، وانتفعوا بها بسائر أنواع الانتفاع المباحة شرعا.

ولا تتبعوا خطوات الشّيطان ، أي طريقه وأوامره ، كما اتّبعها المشركون الذين حرّموا ما رزقهم الله من الثّمار والزّروع والأنعام ، افتراء على الله ، وإيّاكم أن تحرّموا ما لم يحرّمه الله عليكم ، فذلك إغواء من الشّيطان ، والله قد أباحها لكم ، والله مصدر التّشريع والتّحريم والتّحليل ؛ لأنه هو الخالق المبدع لجميع الكائنات ، وهو المتصرّف فيها ، فليس لغيره أن يحرّم أو يحلّل برأيه.

إن الشّيطان لكم أيها الناس عدوّ مبين ، أي بيّن ظاهر العداوة ، لا يأمر إلا بالسّوء والفحشاء والمنكر ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ ، فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ ، لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر ٣٥ / ٦] ، وقال : ﴿إِنَّما يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشاءِ ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة ٢ / ١٦٩].

والأنعام التي هي حمولة وفرش ثمانية أصناف ، فإنّ الحمولة : إما إبل وإما بقر ، والفرش : إما ضأن وإما معز ، وكلّ قسم من هذه الأربعة : إما ذكر وإما

أنثى ، وقد أنشأ الله من الضّأن زوجين اثنين : الكبش والنّعجة ، ومن المعز زوجين اثنين : التّيس والعنزة ، ومن الإبل اثنين : الجمل والنّاقة ، ومن البقر اثنين : الثّور والبقرة.

قال لمشركي العرب أيّها الرّسول إنكارا لصنعهم بتقسيم الأنعام إلى بحيرة وسائبة ووصيلة وحام وغير ذلك مما ابتدعوا فيها : أحرم الله الذّكرين من الكبش والتّيس؟ أم حرّم الأنثيين من النّعجة والعنز؟ أم حرّم ما حملت إناث النّوعين؟ يعني هل يشتمل الرّحم إلا على ذكر أو أنثى ، فلم تحرمون بعضا وتحلّون بعضا؟ أخبروني عن يقين ، كيف حرّم الله عليكم ما زعمتم تحريمه من البحيرة والسّائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك؟ أخبروني ببيّنة تدلّ على هذا التّحريم من كتاب الله ، أو خبر نبي من الأنبياء إن كنتم صادقين في ادّعاء التّحريم.

والحقيقة أنه لا منطق في تقسيم العرب في الجاهلية قبل الإسلام لأنواع الأنعام ، فمنها الحرام ومنها الحلال ، فإن كان المحرّم منها الذّكر ، وجب أن يكون كلّ ذكورها حراما ، وإن كان المحرّم منها الأنثى ، وجب أن يكون كلّ إناثها حراما ، وإن كان المحرّم منها ما حملته الأجنّة في بطون الإناث ، وهي تشتمل على الذّكر والأنثى ، وجب تحريم الأولاد كلّها.

والله تعالى ما حرّم عليهم شيئا من هذه الأنواع ، وإنهم لكاذبون في دعوى التّحريم ، ولا أحد في الدّنيا أظلم ممن يفتري الكذب على الله ، فيدّعي أنه حرّم شيئا ولم يحرّمه ، ونسب إليه تحريم ما لم يحرم ، من أجل إضلال النّاس ، وهو عمرو بن لحيّ بن قمعة الذي بحر البحائر ، وسيّب السّوائب ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامي ، وغيّر دين الأنبياء ، إن الله لا يهدي إلى الحقّ والخير القوم الظالمين الذين ظلموا أنفسهم ، فشرعوا ما لم يشرع الله تعالى.

ثمّ شدّد الله تعالى الإنكار عليهم والتّهكم بهم فقال : ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ ..﴾

أي هل كنتم حضورا شاهدتم ربّكم ، فوصّاكم بهذا التّحريم؟ وأمركم فيما ابتدعتموه وافتريتموه من تحريم ما لم يحرّمه الله ، وإنما هو محض الافتراء والكذب على الله ، ولا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب ، بقصد الإضلال عن جهل تام ، والله تعالى ، جزاء لهذا الظلم ، لا يوفق للرّشاد من افترى عليه الكذب ، ولا يهديه إلى الحقّ والعدل ، بل يحجبه عن إدراك الصواب وما فيه المصلحة.

فقه الحياة أو الأحكام :

الله تعالى خالق الكائنات هو مصدر شيئين أساسيين في هذه الحياة : فهو مصدر بقاء الناس بإمدادهم بالنّعم الكثيرة الوفيرة ، ومصدر التّشريع الصالح لكل زمان ومكان ، إبقاء على النظام الأصلح ، وحفاظا على مصالح البشر ، أفرادا وجماعات.

والمقصود من ذلك تقرير التّوحيد ، وإثبات الألوهيّة والرّبوبيّة لله عزّ وجلّ ، فإن في آية : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ ..﴾ ثلاثة أدلّة :

أحدها ـ أن المتغيّرات لا بدّ لها من مغيّر.

الثاني ـ المنّة من الله سبحانه علينا ، فلو شاء إذ خلقنا ألا يخلق لنا غذاء ، وإذ خلقه ألا يكون جميل المنظر طيّب الطّعم ، وإذ خلقه كذلك ألا يكون سهل الجني ، فلم يكن عليه أن يفعل ذلك في ابتداء الخلق ؛ لأنه لا يجب عليه شيء.

الثالث ـ إظهار القدرة الإلهيّة في أشياء كثيرة ، منها صعود الماء (النسغ) في الشّجر من الأدنى إلى الأعلى ، مع أن من شأن الماء الانحدار والهبوط ، ومنها تعدّد أنواع الثّمار والأشجار والزّروع ، وتنوّع أصنافها وألوانها وطعومها وأشكالها.

ودلّت آية ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ﴾ على وجوب الزّكاة المفروضة في الزّروع والثّمار: العشر ونصف العشر.

وقال جماعة : هو حقّ في المال سوى الزّكاة ، أمر الله به ندبا.

وقد تمسّك أبو حنيفة بهذه الآية وبعموم الحديث النّبوي الذي رواه البخاري وأبو داود عن ابن عمر : «فيما سقت السّماء العشر ، وفيما سقي بنضح [١] أو دالية [٢] نصف العشر» في إيجاب الزّكاة في كلّ ما تنبت الأرض طعاما كان أو غيره ، إلا الحطب والحشيش والقضب (البرسيم) والتين ، والسّعف [٣] وقصب الذريرة [٤] ، وقصب السّكر.

ورأى الجمهور أن الحديث لا يدلّ على ذلك ، وإنّما المقصود منه بيان ما يؤخذ منه العشر وما يؤخذ منه نصف العشر.

قال ابن عبد البر : لا اختلاف بين العلماء فيما علمت أنّ الزّكاة واجبة في الحنطة والشعير والتّمر والزّبيب.

فيكون للعلماء رأيان في زكاة ما تخرجه الأرض :

الرّأي الأول لأبي حنيفة : تجب الزّكاة في قليل ما أخرجته الأرض إلا ما استثني سابقا ، ودليله ظاهر الآية والحديث المتقدّم.

الرّأي الثاني للجمهور ومنهم صاحبا أبي حنيفة : لا تجب زكاة الزّروع والثّمار إلا فيما يقبل الاقتيات والادّخار ، وعند الحنابلة : فيما ييبس ويبقى ويكال ، ولم يوجب الشّافعي الزّكاة في الثّمار غير العنب والتّمر ؛ لأن الرّسول ﷺ أخذ الزّكاة منهما ، ولا زكاة في الخضروات والفواكه ؛ لأنّ الرّسول ﷺ عفا عنها وقال فيما رواه التّرمذي عن معاذ في الخضروات : «ليس فيها شيء» ، ولا بدّ من بلوغ

---

(١) النّضح : سقي الزّرع وغيره بالسّانية : وهي النّاقة التي يستقى عليها.

(٢) الدّالية : النّاعورة يديرها الماء ، والأرض التي تسقى بدلو أو بناعورة.

(٣) السّعف : جريد النّخل ، واحدها سعفة.

(٤) الذريرة : قصب يجاء به من الهند.

النّاتج خمسة أوسق (٦٥٣ كغ) لقول النبي ﷺ فيما رواه مسلم عن جابر : «ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة».

وإنما لا يشترط مضي الحول (العام الزّكوي) في زكاة النّاتج من الأرض ؛ لأنه يكمل نماؤه باستحصاده ، لا ببقائه ، واشترط الحول في غيره من الزّكوات ؛ لأنه مظنّة لكمال النّماء في سائر الأموال.

والصّحيح وهو رأي أبي حنيفة وجوب الزّكاة وقت الجذاذ ، لقوله تعالى : ﴿**يَوْمَ حَصادِهِ**﴾ والمشهور من مذهب المالكية يوم الطّيب ؛ لأن ما قبل الطّيب يكون علفا لا قوتا ولا طعاما ، فإذا طاب وحان الأكل الذي أنعم الله به ، وجب الحق الذي أمر الله به.

والمعتمد عند الشافعية والحنابلة : وجوب الزّكاة في الثّمار : ببدو صلاح الثّمر ؛ لأنه حينئذ ثمرة كاملة ، وهو قبل ذلك حصرم وبلح ، وفي الحبوب : ببدو اشتداد الحبّ ؛ لأنه كما قال المالكية حينئذ طعام ، وهو قبل ذلك بقل.

لكن خرص الثّمار أي تخمينها وتقديرها يكون بعد الطيب ؛ لحديث عائشة فيما أخرجه الدّار قطني قالت : كان رسول الله ﷺ يبعث ابن رواحة إلى اليهود ، فيخرص عليهم النّخل حين تطيب أوّل الثمرة ، قبل أن يؤكل منها ، ثم يخيّر يهودا يأخذونها بذلك الخرص أو يدفعونها إليه.

وإنما كان أمر رسول الله ﷺ بالخرص لكي تحصى الزّكاة ، قبل أن تؤكل الثّمار وتفرّق.

ودلّت آية ﴿**وَمِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً**﴾ على مقدار نعمة الله بتسخير الأنعام للإنسان للرّكوب والحمل والعمل ، وللاستفادة من لحومها وأوبارها وأصوافها وأشعارها. والأنعام كما قال أحمد بن يحيى وهو الأصحّ : كلّ ما أحلّه الله عزّ وجلّ

من الحيوان ؛ لقوله تعالى : ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة ٥ / ١].

ومن أجل بقاء نوع الحيوان جعل فيه كالإنسان صنفي الذّكر والأنثى ، للتّوالد والتّكاثر والتّكامل ، لذا كان تحريم الذّكور دون الإناث أو بالعكس معارضا لحكمة الشّرع.

وآية ﴿ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ ..﴾ احتجاج على المشركين فيما حرّموه اعتباطا من البحائر والسّوائب والوصائل والحام وغيرها ، كما قالوا : ﴿ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا﴾ [الأنعام ٦ / ١٣٩].

وذلك دليل على إثبات المناظرة في العلم ؛ لأن الله تعالى أمر نبيّه عليه الصّلاة والسّلام بأن يناظرهم ، ويبيّن لهم فساد قولهم.

وفي هذه الآية أيضا إثبات القول بالنظر والقياس.

وفيها دليل على أنّ القياس إذا ورد به النّص بطل القول به ، ويروى : «إذا ورد عليه النّقض» لأن الله تعالى أمرهم بالمقايسة الصّحيحة ، وأمرهم بأن تكون علّة القياس مطّردة في جميع الأشباه والنّظائر. وهذا مستفاد من معنى الآية : قل لهم : إن كان الله حرّم الذّكور فكلّ ذكر حرام ، وإن كان حرّم الإناث فكلّ أنثى حرام ، وإن كان حرّم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين يعني من الضّأن والمعز ، فكلّ مولود حرام ، ذكرا كان أو أنثى ، لأن كلها مولود ، فكلّها إذن حرام ، لوجود العلّة فيها ، فبيّن تعالى بهذه المناظرة أو المناقشة ورود الانتقاض عليهم وفساد قولهم ، لأن ما فعلوه من ذلك افتراء على الله ، فمن أين هذا التحريم المزعوم؟ ولا علم عندهم ؛ لأنهم لا يقرءون الكتب ، وهل شاهدتم الله قد حرّم هذا. ولما لزمتهم الحجّة أخذوا في الافتراء ، فقالوا : كذا أمر الله ، فردّ الله

عليهم : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً ، لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وهو دليل على أنهم كذبوا ، إذ قالوا ما لم يقم عليه دليل.

المطعوم المحرّم على المسلمين والمحرّم على اليهود

﴿قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤٥) وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إِلاَّ ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوايا أَوْ ما اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصادِقُونَ (١٤٦) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧)﴾

الإعراب :

﴿طاعِمٍ﴾ اسم فاعل من طعم يطعم ، وأكثر ما يجيء اسم الفاعل من فعل يفعل إذا كان لازما على فعل ، ويجيء على فاعل إذا كان متعدّيا كعلم يعلم فهو عالم. و ﴿يَطْعَمُهُ﴾ مضارع طعم. ﴿مَيْتَةً﴾ خبر ﴿يَكُونَ﴾ ، واسمها ضمير مستتر ، وتقديره : إلا أن يكون المأكول ميتة ، ومن قرأ بالرّفع جعل ﴿يَكُونَ﴾ تامّة ، و ﴿مَيْتَةً﴾ فاعل مرفوع بها ، ولا تفتقر إلى خبر.

﴿أَوِ الْحَوايا﴾ إما مرفوع عطفا على قوله : ﴿ظُهُورُهُما﴾ ، وإما منصوب عطفا على ﴿شُحُومَهُما﴾ في قوله : ﴿إِلَّا ما حَمَلَتْ﴾. و ﴿شُحُومَهُما﴾ في موضع نصب على الاستثناء من الشحوم ، وهو استثناء من موجب ، أو منصوب عطفا على قوله : ﴿شُحُومَهُما﴾ وتقديره : حرّمنا عليهم شحومهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم إلا ما حملت ظهورهما.

﴿ذلِكَ جَزَيْناهُمْ ذلِكَ﴾ : في موضع نصب ، لأنه مفعول ثان لجزيناهم ، وتقديره : جزيناهم ذلك ببغيهم.

البلاغة :

﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ من صيغ المبالغة ، أي كثير المغفرة والرّحمة.

﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ ، وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ فرّق بين الجملتين ، فجعل الأولى جملة اسميّة ؛ لأنها أبلغ من الفعليّة ، ليناسب وصف الرّحمة ، وجعل الثانية فعليّة: ﴿وَلا يُرَدُّ﴾ لتكون أقل في الإخبار عن وصف العقاب.

المفردات اللغوية :

﴿مُحَرَّماً﴾ شيئا محظورا أو ممنوعا. ﴿طاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ أكل يأكله. ﴿مَيْتَةً﴾ بهيمة ماتت حتف أنفها. ﴿أَوْ دَماً مَسْفُوحاً﴾ سائلا يجري ويتدفّق من المذبوح ، بخلاف غيره كالكبد والطّحال. ﴿رِجْسٌ﴾ قذر قبيح حرام نجس. ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾ ذبح على غير اسم الله ، للأصنام ، والإهلال : رفع الصّوت. ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أي دعته ضرورة إلى تناول شيء منه كجوع شديد أو عطش شديد أو غصص. ﴿غَيْرَ باغٍ﴾ أي غير قاصد له. ﴿وَلا عادٍ﴾ أي متجاوز قدر الضرورة.

﴿الَّذِينَ هادُوا﴾ اليهود ، لقولهم : ﴿إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٥٦] أي رجعنا وتبنا. ﴿كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ وهو ما لم تفرق أصابعه كالإبل والنّعام ، والظفر للإنسان وغيره مما لا يصيد ، والمخلب : لما يصيد. ﴿شُحُومَهُما﴾ الشّحم : ما يكون على الأمعاء والكرش والكلى من الدّهن. ﴿إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما﴾ أي علقت بها. ﴿أَوِ الْحَوايا﴾ أي حملته الأمعاء ، جمع حاوية وحاوياء.

﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ منه أي من الشّحم ، وهو شحم الألية ، فإنه أحل لهم. ﴿ذلِكَ﴾ التحريم. ﴿جَزَيْناهُمْ﴾ به. ﴿بِبَغْيِهِمْ﴾ أي بسبب ظلمهم. ﴿وَإِنَّا لَصادِقُونَ﴾ في أخبارنا ومواعيدنا. ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ فيما جئت به ﴿فَقُلْ﴾ لهم : ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ﴾ حيث لم يعاجلكم بالعقوبة ، وفيه تلطّف بدعوتهم إلى الإيمان. ﴿وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ﴾ أي عذابه إذا جاء.

سبب النزول :

نزول الآية (١٤٥):

﴿قُلْ : لا أَجِدُ ..﴾ : أخرج عبد بن حميد عن طاوس قال : إن أهل الجاهلية كانوا يحرّمون أشياء ، ويستحلّون أشياء ، فنزلت : ﴿قُلْ : لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً﴾ الآية.

المناسبة :

ردّ الله تعالى في الآيات السابقة على المشركين الذين كانوا يحرّمون ويحلّلون من الأنعام بحسب أهوائهم ، وأبان أن التّحريم والتّحليل لا يثبت إلا بالوحي ، ثم أوضح هنا أنّ المطعومات المحرّمات على الآكلين هي أربعة فقط : الميتة ، والدّم المسفوح ، ولحم الخنزير فإنه رجس ، والفسق : وهو الذي أهل به لغير الله.

التفسير والبيان :

بيّن الله تعالى في هذه السّورة المكيّة أنه لا محرّم إلا هذه الأربعة ، وأتى بها بصيغة الحصر ، مبالغة في بيان أنه لا يحرم إلا هذه الأربعة ، وأكّد ذلك في سورة النّحل فقال : ﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ ، فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [النّحل ١٦ / ١١٥].

وكلمة ﴿**إِنَّما**﴾ تفيد الحصر ، فدلّت آيتان مكيّتان على حصر المحرّمات في هذه الأربعة ، وكذلك دلّت آية مدنيّة في سورة البقرة أنه لا محرّم إلا هذه الأربعة ، فقال : ﴿**إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ**﴾ [البقرة ٢ / ١٧٣] ، وكلمة ﴿**إِنَّما**﴾ التي تفيد الحصر مطابقة لقوله : ﴿**قُلْ : لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً**﴾.

ثم ذكر الله تعالى في سورة المائدة قوله : ﴿**أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ**﴾ [المائدة ٥ / ١] ، وأجمع المفسّرون على أن المراد بقوله ﴿**إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ**﴾ هو ما ذكره بعد هذه الآية بقليل ، وهو قوله : ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ، وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ، وَالْمُنْخَنِقَةُ ، وَالْمَوْقُوذَةُ ، وَالْمُتَرَدِّيَةُ ، وَالنَّطِيحَةُ ، وَما أَكَلَ السَّبُعُ ، إِلَّا ما ذَكَّيْتُمْ**﴾ وكل هذه الأشياء من أنواع الميتة ، وأنه تعالى إنما أعادها بالذّكر ؛ لأنهم كانوا يحكمون عليها بالتّحليل ، فثبت أن الشريعة من أولها إلى آخرها كانت مستقرة على هذا الحكم وعلى هذا الحصر.

والقصد هو الرّد على مشركي العرب ؛ لأنه لما ثبت أنه لا طريق إلى معرفة المحرّمات والمحللات إلا بالوحي ، وثبت أنه لا وحي من الله تعالى إلا إلى محمد عليه الصّلاة والسّلام ، ولم ينزل في الموضوع غير هذه الآية ونظائرها ، كان هذا مبالغة في بيان انحصار التّحريم في هذه الأربعة فقط.

المعنى : يقول الله تعالى آمرا رسوله : قل يا محمد لهؤلاء الذين حرّموا ما رزقهم الله ، افتراء على الله : لا أجد محرّما على آكل يأكله سوى هذه الأمور الأربعة وهي ما يلي :

الميتة :

وهي التي ماتت حتف أنفها بغير ذبح شرعي ، وذلك يشمل المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع ونحوها. وتحريمها لمضرّتها ، وانحباس الدم فيها ، مما يؤدي إلى تسممها ، وتفسّخ لحمها ، وإيذاء من تناول شيئا منها.

والدّم المسفوح :

أي الدّم المهراق السائل الذي يجري ويتدفق من عروق المذبوح. وهذا يدلّ على أنّ المحرّم من الدّم ما كان سائلا ، قال ابن عباس : يريد ما خرج من الأنعام وهي أحياء ، وما يخرج من الأوداج عند الذّبح ، فلا يدخل فيه الدّم الجامد كالكبد والطّحال لجمودهما ، ولا الدّم المختلط باللحم في المذبح ، ولا ما يبقى في العروق من أجزاء الدّم ، فإن ذلك كله ليس بسائل. وقال عكرمة في قوله : ﴿**أَوْ دَماً مَسْفُوحاً**﴾ : لولا هذه الآية لتتبع الناس ما في العروق كما تتبعه اليهود. وجاء في الحديث الذي يرويه البيهقي في سننه والحاكم عن ابن عمر : «أحلّت لنا ميتتان ودمان ، فأما الميتتان فالحوت والجراد ـ أو السمك والجراد ـ وأما الدّمان : فالكبد والطحال». وسبب تحريم الدّم المسفوح : اشتماله على أنواع الجراثيم والميكروبات ؛ لأن الدّم بيئة صالحة لتفريخ الميكروبات ومباءة للجراثيم.

ولحم الخنزير :

ومثله شحمه وسائر أجزاء جسده ، ومثله أيضا الكلب ،

فكلّ ذلك كالميتة والدّم رجس وقذر ، تعافه النفوس الطيبة والطباع السليمة ، وهو ضار بالبدن.

واستدلّ الشافعية بقوله تعالى : ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ على نجاسة الخنزير ، بناء على عود الضمير إليه ؛ لأنه أقرب مذكور.

والفسق :

وهو ما أهل لغير الله أي ما ذبح لغير الله ولم يذكر عليه اسم الله ، أي ما يتقرب به إلى غير الله تعبّدا ، ويذكر اسمه عليه عند ذبحه ، وهو المذبوح على النّصب وعند الأوثان ، أو بعد المقاسمة عليه بالأزلام أي القمار.

ثم استثنى الله تعالى حال الضرورة ، فقال : ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ ..﴾ أي فمن كان في حال ضرورة الجوع الملجئة بسبب فقدان الحلال ، مما دعاه إلى أكل شيء من هذه المحرّمات ، حال كونه غير قاصد له ، ولا متجاوز حدّ الضرورة ، فإن الله يغفر له ويرحمه حفاظا على حقّ الحياة ، فلا يؤاخذه بأكل ما يسدّ به الرّمق ، ويدفع عنه ضرر الهلاك.

والخلاصة : إنّ الغرض من هذه الآية الكريمة الرّد على المشركين الذين ابتدعوا تحريم المحرّمات على أنفسهم بآرائهم الفاسدة ، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك ، فأمر الله رسوله أن يخبرهم أنه لا يجد فيما أوحاه الله إليه أن ذلك محرّم ، وإنّما حرّم أربعة أشياء هي : الميتة ، والدّم المسفوح ، ولحم الخنزير ، وما أهلّ لغير الله به ، لما فيها من الضّرر المادي أو المعنوي الذي يمسّ العقيدة وعبادة الله ، ولأن لحومها خبيثة ، ومن مهام هذا النّبي إباحة الطّيبات وتحريم الخبائث : ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف ٧ / ١٥٧].

لكن الحصر المستفاد من هذه الآية وأمثالها أمر نسبي لا مطلق ، وهذه الآية مخصوصة بالآيات والأخبار الدّالّة على تحريم ما حرّم من غير الأربعة ، مثل قوله

تعالى : ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ﴾ فهو يقتضي تحريم كلّ الخبائث المستقذرة كالنّجاسات وهو أم الأرض ، ومثلما رواه البخاري ومسلم في صحيحهما عن جابر رضي الله عنه قال : «نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية» ، وما رواه عن أبي ثعلبة الخشني : «أن النّبي ﷺ نهى عن أكل كل ذي ناب من السّباع»، وفي رواية ابن عباس : «وأكل كل ذي مخلب من الطّير» ، وما رواه عن عائشة وحفصة وابن عمر من قوله ﷺ : «خمس فواسق من الدّواب كلّهن فاسق ، يقتلن في الحلّ والحرام : الغراب ، والحدأة ، والعقرب ، والفأر ، والكلب العقور» ، ففي الأمر بقتلهنّ دلالة على تحريم أكلهنّ ، لأن القتل إنما يكون بغير ذبح شرعي ، فثبت أنها غير مأكولة ، ولأن ما يؤكل لا ينهى عن قتله.

وخصّص الشافعية الآية أيضا بما روي عنه ﷺ أنه قال : «واستخبثته العرب ، فهو حرام» ، ومضمون رأيهم أن الحيوان الذي لم يرد فيه نص بخصوصه بالتّحليل أو التّحريم ، ولم يؤمر بقتله ، ولم ينه عن قتله ، فإن استطابته العرب ، فهو حلال ، وإن استخبثته العرب فهو حرام. ودليلهم قوله تعالى : ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٥٧] ، وقوله تعالى : ﴿يَسْئَلُونَكَ ما ذا أُحِلَّ لَهُمْ ، قُلْ : أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ﴾ [المائدة ٥ / ٤] ، قالوا : وليس المراد بالطّيب هنا : الحلال ؛ إذ لا معنى له ، لأن تقديره : أحلّ لكم الحلال ، وإنما المراد بالطّيّبات : ما يستطيبه العرب. والمراد بالخبائث : ما يستخبثونه ، ويراعى في ذلك عاداتهم العامة في الاستيطاب والاستخباث ، ولا ينظر إلى الأعراف الخاصة ؛ لأنه يؤدي إلى اختلاف الأحكام في الحلال والحرام.

واحتجّ كثير من السّلف بظاهر الآية ، فأباحوا ما عدا المذكور فيها ، فقد أخرج أبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سئل عن أكل القنفذ ، فقرأ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم وغيره بسند صحيح عن عائشة أنها كانت إذا سئلت عن أكل كل ذي ناب من السّباع ومخلب من الطّير ، قالت : ﴿قُلْ : لا أَجِدُ ...﴾ إلخ.

وروي عن ابن عباس أنه قال : ليس من الدّواب شيء حرام إلا ما حرّم الله تعالى في كتابه : ﴿قُلْ : لا أَجِدُ﴾ الآية. واستدلّ بقوله سبحانه : ﴿عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ على أنه إنما حرّم من الميتة ما يأتي فيه الأكل منها ، فلم يتناول الجلد المدبوغ والشعر ونحوه ، وقد فهم النّبي ﷺ من النّظم الكريم ذلك ، أخرج أحمد وغيره عن ابن عباس قال : ماتت شاة لسودة بنت زمعة ، وفي رواية : لميمونة ، فقال رسول الله ﷺ : «لو أخذتم مسكها ـ جلدها ـ» ، فقالت : نأخذ مسك شاة قد ماتت ، فقال ﷺ : «إنما قال الله تعالى : ﴿قُلْ : لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ وإنّكم لا تطعمونه ، إن تدبغوه تنتفعوا به».

ثم أخبر الله سبحانه عما حرّمه على بني إسرائيل خاصة ، عقوبة لهم ، على سبيل المقارنة بما شرعه القرآن للمسلمين ، فقال : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا ..﴾ أي وحرّمنا على اليهود دون غيرهم كل ذي ظفر : وهو كلّ ما ليس منفرج الأصابع ، أو مشقوق الأصابع من البهائم والطير ، كالإبل والنّعام والإوزّ والبط ، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وسعيد بن جبير.

وحرّمنا عليهم من البقر والغنم دون غيرهما شحومهما الزائدة التي تنتزع بسهولة ، لعدم اختلاطها بلحم ولا عظم ، وهي ما على الكرش والكلى فقط ، أما شحوم الظّهر والذّيل فحلال ؛ لقوله تعالى : ﴿إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما﴾ وإلا ﴿الْحَوايا﴾ : ما حملته الأنعام ، وإلا ﴿مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ ، فكل هذه الشحوم أحللناه لهم.

ذلك التّحريم الذي حرّمناه عليهم بسبب بغيهم ، وعقوبة لهم ، لقتلهم الأنبياء بغير حقّ ، وصدّهم عن سبيل الله ، وأخذهم الرّبا ، واستحلالهم أموال النّاس بالباطل.

وفي ذكر هذا تكذيب لليهود في قولهم : إن الله لم يحرّم علينا شيئا ، وإنما حرمنا على أنفسنا ما حرّمه إسرائيل على نفسه.

ولما كان هذا إخبارا عمّا حكم الله به على اليهود في الماضي ، ولم يكن لأحد به علم ، وردّا على قولهم : لم يحرّم علينا شيء ، قال تعالى : ﴿وَإِنَّا لَصادِقُونَ﴾ قال الطبّري : أي لصادقون في إخبارنا بهذه الأخبار من تحريمنا ذلك عليهم لا كما زعموا ، من أن إسرائيل هو الذي حرّمه على نفسه ، ومن أصدق من الله حديثا ، وقال ابن كثير : أي وإنا لعادلون فيما جازيناهم به.

فإن كذّبوك يا محمد بعد هذا أي اليهود ، كما قال مجاهد والسّدي ، أو مشركو مكة ، والصواب : فإن كذّبك يا محمد مخالفوك من المشركين واليهود وأشباههم في ادّعاء النّبوة والرّسالة ، وفي تبليغ الأحكام ﴿فَقُلْ : رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ﴾ وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة واتّباع رسوله ، ﴿وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي لا يردّ عذابه عن كلّ مجرم ، وهذا ترهيب لهم من مخالفتهم الرّسول خاتم النّبيين ﷺ.

وكثيرا ما يقرن الله تعالى بين التّرغيب والتّرهيب في القرآن ، كما قال تعالى في آخر هذه السّورة ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت آية : ﴿قُلْ : لا أَجِدُ ..﴾ على تحريم أربعة أشياء ، هي : الميتة ، والدّم المسفوح ، ولحم الخنزير ، والمذبوح للأصنام تعبّدا ، وبما أن الآية مكية فمعناها وما يستفاد منها مقصور على هذه الأربعة ، أي ﴿قُلْ﴾ يا محمد ،

﴿لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَ﴾ إلا هذه الأشياء ، لا ما تحرّمونه بشهوتكم ، ولم يكن في الشريعة في ذلك الوقت محرّم غير هذه الأشياء ، كما قال القرطبي ، ثم نزلت سورة [المائدة] بالمدينة. وزيد في المحرّمات من أصناف الميتة المنخنقة والموقوذة والمتردّية والنّطيحة ونحوها ، كما زيد تحريم الخمر.

وحرّم رسول الله ﷺ بالمدينة أكل كل ذي ناب من السّباع وكلّ ذي مخلب من الطّير.

وأكثر أهل العلم أن كل محرّم حرّمه رسول الله ﷺ ، أو جاء في القرآن مضموما إلى هذه المحرّمات ، فهو زيادة حكم من الله ﷻ على لسان نبيّه عليه الصّلاة والسّلام. مثل زواج المرأة على عمّتها وعلى خالتها ، مع قوله تعالى : ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ ما وَراءَ ذلِكُمْ﴾ [النساء ٤ / ٢٤] ، وحكمه عليه الصّلاة والسّلام باليمين مع الشاهد مع قوله تعالى : ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتانِ﴾ [البقرة ٢ / ٢٨٢]. وآية : ﴿قُلْ : لا أَجِدُ ...﴾ هي جواب لمن سأل عن شيء بعينه ، فوقع الجواب مخصوصا.

وقال مالك : لا حرام بيّن إلا ما ذكر في هذه الآية ، ولهذا قال بعض المالكية : إن لحوم السباع وسائر الحيوان ما سوى الإنسان والخنزير مباح.

ودلّت الآية أيضا على حكم استثنائي وهو حال الضرورة ، فعند الاضطرار يزول تحريم المحرمات ، لدفع خطر الهلاك ، وحفاظا على حقّ الحياة.

وأما آية : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا﴾ فتدلّ على أنّ الله تعالى حرّم على اليهود عقوبة لهم أشياء أخرى سوى هذه الأربعة المذكورة في الآية السابقة ، وهي نوعان ، ولم يحرمهما على المسلمين.

النّوع الأوّل ـ كل ذي ظفر غير مشقوق الأصابع ، كالإبل والنّعام والإوزّ والبط.

والنّوع الثاني ـ شحوم البقر والغنم : وهي الشحوم الرقيقة التي تكون على الكرش والكلى. واستثنى الله تعالى من الشحوم ثلاثة أنواع لم يحرمها عليهم وهي : ما علق بالظهر ﴿ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما﴾ ، و ﴿الْحَوايا﴾ : قال الواحدي : وهي المباعر والمصارين ، والمختلط بالعظم ﴿مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ : وهو شحم الأليّة في قول جميع المفسّرين. قال ابن جريج : حرّم عليهم كلّ شحم غير مختلط بعظم أو على عظم ، وأحلّ لهم شحم الجنب والأليّة ؛ لأنه على العصعص.

وقد احتجّ الشافعي بهذه الآية في أن من حلف ألّا يأكل الشحم ، حنث بأكل شحم الظّهور ؛ لاستثناء الله عَزَّوَجَلَّ ما على ظهورهما من جملة الشّحم.

والصحيح مذهب عامة العلماء : أن اليهود لو ذبحوا أنعامهم ، فأكلوا ما أحلّ الله لهم في التّوراة ، وتركوا ما حرّم عليهم ، لم يكن عليهم بأس ؛ فإنها محلّلة لنا ؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ رفعذلك التّحريم بالإسلام ، واعتقادهم فيه لا يؤثر ؛ لأنه اعتقاد فاسد ، ويؤيده أنّ النّبي ﷺ أقرّ عبد الله بن مغفّل على الأكل من جراب شحم أصابه يوم خيبر.

وقيل في رواية عن مالك : هي محرّمة ؛ لأنهم يدينون بتحريمها ، ولا يقصدونها عند الذّكاة (الذّبح الشّرعي) فكانت محرّمة كالدّم. وهو مذهب كبراء أصحاب مالك.

نسبة المشركين الشرك والتحريم إلى الله تعالى

وإقامة الحجة عليهم

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ كَذَّبَ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هذا فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)﴾

الإعراب :

﴿هَلُمَ﴾ اسم فعل أمر بمعنى هاتوا ، يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث عند الحجازيين ، وبنو تميم تؤنث وتجمع.

البلاغة :

﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا﴾ وضع الظاهر موضع المضمر بأن يقال : ولا تتبع أهواءهم ، للدلالة على أن من كذب بآيات الله وعدل به غيره ، فهو متبع للهوى لا غير ؛ لأنه لو اتبع الدليل ، لم يكن إلا مصدّقا بالآيات ، موحدا لله تعالى.

المفردات اللغوية :

﴿ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ﴾ أي أن إشراكنا وتحريمنا بمشيئة الله ، فهو راض به. ﴿كَذلِكَ﴾ كما كذب هؤلاء ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ رسلهم. ﴿بَأْسَنا﴾ عذابنا. ﴿هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ بأن الله راض بذلك. ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنا﴾ أي لا علم عندكم. ﴿إِنْ﴾ ما. ﴿تَتَّبِعُونَ﴾ في ذلك. ﴿تَخْرُصُونَ﴾ تكذبون ، وأصل معنى الخرص: الحزر والتخمين. ﴿الْحُجَّةُ﴾ الدليل المبين الحق. ﴿الْبالِغَةُ﴾ التامة.

﴿هَلُمَ﴾ أحضروا. ﴿يَعْدِلُونَ﴾ يتخذون له عدلا مساويا ، والمراد : يشركون.

المناسبة :

لما حكى الله تعالى عن أهل الجاهلية إقدامهم على الحكم في دين الله بغير حجة ولا دليل ، حكى عنهم عذرهم في كل ما يقدمون عليه من أنواع الكفر أو الشرك ،

فيقولون : لو شاء الله منا ألا نكفر لمنعنا عن هذا الكفر ، وحيث لم يمنعنا عنه ، ثبت أنه مريد لذلك ، فإذا أراد الله ذلك منا ، امتنع منا تركه ، فكنا معذورين فيه.

وهذا حكاية عن لسان حالهم أو عما سيقولونه ؛ لأن الله محيط علمه بكل شيء سيقولونه ، فهو من إخباره بالمغيبات قبل وقوعها.

التفسير والبيان :

هذه شبهة تشبّث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا ، فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك ، والتحريم لما حرموه ، فأخبر بما سوف يقولونه.

إنهم يقولون : إن شركهم ، وشرك آبائهم ، وتحريمهم ما أحل الله من الحرث والأنعام ، هو بمشيئة الله وإرادته ، ولو لا مشيئته لم يكن شيء من ذلك ، كمذهب الجبرية بعينه.

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿**وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا : لَوْ شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آباؤُنا ، وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**﴾ [النحل ١٦ / ٣٥] وقوله عزّ وجلّ : ﴿**لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ، ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ**﴾ [الزخرف ٤٣ / ٢٠].

فردّ الله عليهم شبهتهم بقوله : ﴿**كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ ...**﴾ أي مثل ذلك التكذيب الذي صدر من مشركي العرب وأهل مكة للنبي ﷺ فيما جاء به من إثبات الوحدانية والربوبية لله تعالى ، وقصر التشريع والتحليل والتحريم عليه ، وإبطال الشرك ، كذب الذين من قبلهم رسلهم تكذيبا غير مبني على أساس من العلم والعقل.

وذلك لأنهم كذبوا ما جاءت به الرسل ، ولم ينظروا فيها ، وإنما أعرضوا

عنها ، ولأن قولهم لو كان صحيحا لما عاقبهم الله تعالى على كفرهم ؛ لأن الله عادل ، فلو كانت أعمالهم المكفّرة صادرة عنهم بإجبار أو إكراه وقهر ، لما استحقوا العقاب عليها ، ولما كرر تعالى قوله في القرآن مثلا : أخذناهم بذنوبهم ، وأهلكناهم بظلمهم وكفرهم.

وهو معنى قوله : ﴿حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا﴾ أي حتى أنزلنا عليهم العذاب بتكذيبهم ، مما يدل على أن كفرهم وتحليلهم وتحريمهم كان باختيارهم وإرادتهم ، وإن كان الله تعالى قادرا على تغيير موقفهم ، بأن يلهمهم الإيمان ، ويحول بينهم وبين الكفر ، وأن ذلك الموقف هو أيضا بإرادة الله ؛ لأنه لا يقع شيء في الكون بدون مشيئة الله وإرادته.

ثم أمر الله تعالى رسوله أن يطالبهم بالبرهان على ما زعموا فقال : ﴿قُلْ : هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ ...﴾ أي هل لديكم أمر معلوم وبرهان واضح يصح الاحتجاج به فيما قلتم ، فتخرجوه لنا أي تظهرونه وتبينونه لنا لنفهمه؟ وهذا الاستفهام تهكم وإظهار بأن مثل قولهم محال أن يكون له حجة ، وتوبيخ لهم على ما يزعمون.

وحقيقة حالهم هي ما قال تعالى : ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ...﴾ أي لا حجة ولا برهان على ما تقولون ، وما تتبعون إلا الوهم والخيال والاعتقاد الفاسد ، وما أنتم إلا تكذبون على الله فيما ادعيتموه.

ثم أثبت الله تعالى لذاته الإتيان بالدليل الساطع المبين للدين الحق فقال : ﴿قُلْ : فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ ..﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين الجاهلين بعد إفلاسهم وعجزهم عن الإتيان بدليل مقنع : لله تعالى الحجة التامة الكاملة على ما أراد من إثبات الحقائق وإبطال الباطل ، وتقرير أصول الاعتقاد ، وتشريع الأحكام الصائبة ، وإلغاء ما تذهبون إليه بالآيات الكثيرة والمعجزات التي أيد بها الرسل.

ولو شاء تعالى أن يهديكم وغيركم وجميع الناس بغير التعليم والإرشاد والنظر والاستدلال ، لفعل ، فجعلكم تؤمنون بالفطرة كالملائكة ، فلا يكون لكم دور في الاختيار ، والإرادة ، والتمييز بين الخير والشر ، والحق والباطل ، ويكون موقف مخالفيكم أيضا بمشيئة الله ، فلا يصح أن تعادوهم ، وعليكم أن توافقوهم ولا تخالفوهم ؛ لأن المشيئة تجمع بين ما أنتم عليه وبين ما هم عليه.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى﴾ [الأنعام ٦ / ٣٥] وقوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس ١٠ / ٩٩].

ثم أمر الله رسوله بمطالبة المشركين بأن يأتوا بشهود يشهدون على صحة ما يدعونه من تحريم الله هذه المحرمات ، فقال : ﴿قُلْ : هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ ...﴾ أي أحضروا شهداءكم الذين يشهدون لكم عن عيان أن الله حرم عليكم هذا الذي زعمتم تحريمه وكذبتم وافتريتم على الله فيه.

فإن شهدوا على سبيل الفرض ، فلا تصدقهم ، ولا تسلم لهم ، ولا تقبل لهم شهادة ؛ إذ لو سلم لهم ، فكأنه شهد معهم مثل شهادتهم ، وكان واحدا منهم ، لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذبا وزورا ، فهم شهود زور كاذبون. ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآيات الله الدالة على وحدانيته وربوبيته ومنها حقه في التشريع والتحليل والتحريم ، ولا تتبع هؤلاء الجاهلين المتبعين لأهوائهم الذين لا يوقنون بمجيء الآخرة ، حتى يحملهم الإيمان على سماع الدليل إذا ذكر لهم ، وهم يشركون بربهم ، ويجعلون له عديلا يشاركه في جلب الخير ودفع الضر ، والحساب والجزاء.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يلي :

١ ـ إن اعتذار الكافرين عن كفرهم بما يشبه قول الجبرية : لو شاء الله منا ألا نشرك لم نشرك اعتذار مرفوض لم يقبله الله تعالى ؛ لأنه سبحانه أعطاهم عقولا كاملة ، وأفهاما وافية ، وأقدرهم على الخير والشر ، وأزال الموانع بالكلية عنهم ، فإن شاؤوا عملوا الخيرات ، وإن شاؤوا عملوا المعاصي والمنكرات.

وقد أعانهم الله على حسن الاختيار بإنزاله الكتب ، وإرساله الرسل والأنبياء ، وإرشاده إلى التوحيد لله بالنظر في المخلوقات ، وتأييده الرسل بالمعجزات ، وتلك هي الحجة البالغة على أن الله واحد لا شريك له.

فأما علم الله تعالى وإرادته وكلامه فغيب لا يطلع عليه الإنسان إلا من ارتضى من رسول.

ويكفي في التكليف أن يكون العبد بحيث لو أراد أن يفعل ما أمر به لأمكنه ، ولا مانع يمنعه ، فهو مستطيع الإيمان ، قادر على نبذ الكفر.

ولو كان الإنسان مجبرا على الكفر والمعصية كالريشة في مهب الرياح كما يزعم الجبرية ، لما اقتضى العدل الإلهي تكليفه بشيء ، وإثابته وعقابه في الآخرة.

وقد تبين بهذا بطلان شبهات الكافرين ، ودحض حججهم أمام الحجج الإلهية القاطعة. فإن شهد بعضهم لبعض على صحة ما يقولون ، فلا تصدق شهادتهم إلا من كتاب إلهي أو على لسان نبي ، وليس معهم شيء من ذلك ، وما هم إلا شهود كاذبون مبطلون فيما يخبرون.

والمطلوب الإتيان بشهود الحق لا شهود الزور والباطل ، فإن قيل : كيف أمر الله نبيه باستحضار شهدائهم الذين يشهدون أن الله حرم ما زعموه محرما ، ثم أمره بأن لا يشهد معهم؟ أجيب : أمره باستحضارهم ، وهم شهداء بالباطل ، ليلزمهم الحجة ، ويظهر زيف شهادتهم ، فيحق الحق ، ويبطل الباطل.

المحرّمات العشر أو الوصايا العشر

﴿قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾

الإعراب :

﴿أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ما﴾ اسم موصول بمعنى الذي ، مفعول ﴿أَتْلُ﴾ ، و ﴿حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ : صلته ، والعائد محذوف ، وتقديره : حرّمه ربكم ، فحذف الهاء العائدة للتخفيف. ويكون ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ بدلا منصوبا من الهاء أو من ﴿ما﴾. و ﴿أَلَّا﴾ زائدة ، وتقديره : حرّم أن تشركوا. ويجوز أن تكون ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هو ألا تشركوا. ويجوز أن تكون «أن» بمعنى أي ، و «لا» نهي ، وتقديره : أي لا تشركوا. ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ استفهامية في موضع نصب بحرّم ، وتقديره : أي شيء حرم ربكم؟ ويجوز الوقوف على قوله : ﴿رَبُّكُمْ﴾. ثم تبتدئ وتقرأ : عليكم ألا تشركوا ، أي عليكم ترك الإشراك ، فيكون ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ في موضع نصب على الإغراء بعليكم.

﴿وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً أَنَ﴾ في موضع نصب على تقدير حذف حرف الجر ، وتقديره : ول. ن هذا صراطي. ويجوز قراءة أن مخفة من الثقلية. ويجوز قراءة إن بالكسر ، على الابتداء ، و ﴿مُسْتَقِيماً﴾ حال مؤكدة من ﴿صِراطِي﴾ ؛ لأن صراط الله لا يكون إلا مستقيما.

البلاغة :

﴿وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ فيه استعارة السبل للبدع والضلالات.

﴿لا نُكَلِّفُ نَفْساً﴾ التنكير لإفادة العموم.

﴿وَبِعَهْدِ اللهِ﴾ الإضافة للتشريف والتعظيم.

﴿ظَهَرَ﴾ و ﴿بَطَنَ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿تَعالَوْا﴾ أقبلوا. ﴿أَتْلُ﴾ أقرأ وأقص. «أن» مفسرة. ﴿إِمْلاقٍ﴾ أي فقر. ﴿الْفَواحِشَ﴾ الكبائر ، أي ما عظم جرمه وذنبه كالزنى. ﴿ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ﴾ أي علانيتها وسرها. ﴿إِلَّا بِالْحَقِ﴾ كالقود (القصاص) وحدّ الردة ، ورجم المحصن. ﴿تَعْقِلُونَ﴾ تتدبرون. ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي ما فيه صلاحه. ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ بأن يحتلم أو يكبر ، و ﴿أَشُدَّهُ﴾ : كمال رجولته ومعرفته. ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل وترك البخس. ﴿إِلَّا وُسْعَها﴾ طاقتها في ذلك ، فإن أخطأ في الكيل والوزن ، والله يعلم نيته ، فلا مؤاخذة عليه ، كما ورد في الحديث. ﴿وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ أي إذا قلتم في حكم أو غيره فاعدلوا في القول. ﴿وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى﴾ ولو كان المقول له أو عليه ذا قرابة. ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون. ﴿السُّبُلَ﴾ الطرق المخالفة له. ﴿فَتَفَرَّقَ﴾ تميل. ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ دينه.

المناسبة :

بعد أنّ بيّن الله تعالى المحرّمات من المطعومات ، ردّا على المشركين الذين حرموا على أنفسهم ما لم يحرمه الله عليهم ، أردفه ببيان أصول المحرمات المعنوية (الأدبية) والمادية قولا وفعلا.

قال ابن مسعود : من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمة ، فليقرأ هؤلاء الآيات : ﴿قُلْ : تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ إلى قوله : ﴿تَتَّقُونَ﴾. وقال ابن عباس : في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب ثم قرأ : ﴿قُلْ : تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ...﴾ الآيات. وروى الحاكم عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : «أيكم يبايعني على ثلاث؟» ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿قُلْ : تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ حتى فرغ من

الآيات ، ثم قال : «فمن وفى فأجره على الله ، ومن انتقص منهن شيئا فأدركه الله به في الدنيا ، كانت عقوبته ، ومن أخّر إلى الآخرة ، فأمره إلى الله إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه» ثم قال الحاكم : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه.

التفسير والبيان :

قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله ، وحرموا ما رزقهم الله ، وقتلوا أولادهم ، وحرموا وحللوا لأنفسهم بأهوائهم ووسوسة الشياطين لهم : هلموا وأقبلوا أقرأ وأقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم حقا وفعلا ، ووحيا وأمرا من عنده ، لا تخرصا وظنا ، فلله وحده حق التشريع والتحريم ، وأنا رسوله المبلغ عنه ما أنزل ، وهي الوصايا العشر : خمسة بصيغة النهي ، وخمسة بصيغة الأمر.

وخص التحريم بالذكر ، مع أن الوصايا أعم ؛ لأن بيان المحرمات يستلزم حلّ ما عداها. وقد بدأها بالشرك بالله ؛ لأنه أعظم المحرمات وأكبرها إثما.

وتلك الوصايا هي ما يأتي :

١ ـ نبذ الشرك بالله :

﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ : في الكلام محذوف وتقديره : وأوصاكم [١] ألا تشركوا به شيئا من الأشياء ، وإن عظم خلقا كالشمس والقمر والكواكب ، أو قدرا ومكانة كالملائكة والنبيين والصالحين ، فكل ذلك مخلوق لله وعبيد له : ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً﴾ [مريم ١٩ / ٩٣].

فيجب عليكم أن تخصوه وحده بالعبادة والتعظيم ، وتتركوا ما شرعتم من العبادة بالأهواء.

---

(١) دلّ على هذا التقدير قوله تعالى في آخر الآية : ﴿ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

٢ . الإحسان إلى الوالدين :

﴿وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً﴾ أي أحسنوا إلى الوالدين إحسانا كاملا صادرا من القلب.

وكثيرا ما يقرن الله تعالى بين حظر الشرك وطاعته وبرّ الوالدين ، لأن الله تعالى مصدر الخلق والرزق ، والأبوان واسطة ، يقومان بعبء التربية ودفع الأذى والضرر عن الولد ، قال تعالى : ﴿وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً﴾ [الإسراء ١٧ / ٢٣] وقال عَزَّوَجَلَّ : ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ. وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً﴾ [لقمان ٣١ / ١٤ ـ ١٥] لذا كان عقوق الوالدين من الكبائر ، وبرّهما والإحسان إليهما من أفضل الأعمال ، روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : «سألت رسول الله ﷺ ، أيّ العمل أفضل؟ قال : الصلاة لوقتها ، قلت : ثم أيّ؟ قال : برّ الوالدين ، قلت : ثم أي؟ قال : الجهاد في سبيل الله». وروى الحافظ ابن مردويه عن أبي الدرداء وعبادة بن الصامت ، كل منهما يقول : أوصاني خليلي رسول الله ﷺ : «أطع والديك ، وإن أمراك أن تخرج لهما من الدنيا فافعل»[١].

والإحسان إلى الوالدين : معاملتهما معاملة كريمة نابعة من العطف والمحبة ، لا من الخوف والرهبة. وكما يفعل الولد مع والديه يفعل أولاده معه ولو بعد حين ، روى الطبراني في الأوسط عن ابن عمر عن النّبي ﷺ قال : «بروا آباءكم تبركم أبناؤكم ، وعفوا تعف نساؤكم».

٣ . تحريم وأد البنات :

﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ﴾ : لما أوصى تعالى ببرّ الوالدين والأجداد ،

---

(١) قال ابن كثير : ولكن في إسناديهما ضعف.

عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد ، فذكر : ومما أوصاكم به ربكم ألا تقتلوا أولادكم خشية فقر يحل بكم ، فإن الله يرزقكم وإياهم ، أي يرزقهم تبعا لكم ، فلا تخافوا الفقر الحاضر ، ولا تخشوا الفقر المتوقع ، فإن الله تعالى تكفل برزق العباد ، ونظير الآية قوله تعالى : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً﴾ [الإسراء ١٧ / ٣١]. والفرق بين التعبيرين : أن تعبير سورة الأنعام يراد به : لا تقتلوهم من فقركم الحاصل ، فبدأ برزق الآباء ؛ لأنه الأهم بسبب وجود الفقر الحاصل ، وأما تعبير سورة الإسراء فيراد : لا تقتلوهم خوفا من الفقر في الآجل المستقبل ، فبدأ برزق الأولاد للاهتمام بهم ، أي لا تخافوا من فقركم بسبب رزقهم ، فهو على الله. وفي هذا إيماء إلى ضرورة الحفاظ على النوع الإنساني ، بتحريم إيذاء الأصول (الآباء) والفروع (الأنباء) ورعاية كل منهما ، ثم تحريم قتل النفس الإنسانية مطلقا المنصوص عليه في الوصية الخامسة.

٤ . تحريم اقتراف الفواحش :

﴿وَلا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ﴾ : أي إياكم من الاقتراب من الفواحش وهي كل ما عظم جرمه وإثمه وقبحه من الأقوال والأفعال ، كالزنى وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، سواء في الظاهر المعلن أو الباطن السري ، وكان العرب في الجاهلية لا يرون بأسا في الزنى سرا ، ويعدون الزنى علانية قبيحا ، فحرم الله النوعين ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿قُلْ : إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ، ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ ، وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ٣٣]. وورد في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن» وقال سعد بن عبادة فيما رواه الشيخان: لو رأيت مع امرأتي رجلا لضربته بالسيف غير مصفح [١] ، فبلغ ذلك

---

(١) المصفح : الممال ، جاء في الحديث : «قلب المؤمن مصفح على الحق» أي ممال عليه.

رسول الله ﷺ فقال : «أتعجبون من غيرة سعد؟ فو الله لأنا أغير من سعد ، والله أغير مني ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن».

وقيل : الظاهر : ما تعلق بأعمال الجوارح ، والباطن : ما تعلق بأعمال القلوب كالكبر والحسد. روى أبو الشيخ ابن حيان الأنصاري عن عكرمة : قال : ما ظهر منها : ظلم الناس ، وما بطن منها : الزنى والسرقة ، أي لأن الناس يأتونهما في الخفاء.

٥ . منع قتل النفس بغير الحق :

﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِ﴾ خصص النهي عن القتل تأكيدا واهتماما به ، بالرغم من أنه داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، أي حرم الله عليكم قتل النفس التي حرم الاعتداء عليها بالإسلام ، أو بالعهد بين المسلمين وغيرهم كأهل الكتاب المقيمين في دار الإسلام بعهد وأمان.

روى الشيخان عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن النّبي ﷺ قال : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمد رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم ، إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله». وروى الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة عن النّبي ﷺ قال : «من قتل معاهدا له ذمة الله وذمة رسوله ، فقد أخفر بذمة الله ، فلا يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفا». وروى البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النّبي ﷺ مرفوعا : «من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما».

وأما القتل بحق فله ثلاث حالات ورد بيانها في حديث الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يحلّ دم امرئ مسلم إلا

بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة» وفي لفظ : «كفر بعد إيمان ، وزنى بعد إحصان ، وقتل نفس بغير حق».

وما ذلك التحريم للقتل إلا لأنه جريمة كبري في حق الإنسانية ، واعتداء على صنع الخالق ، الذي أوجد وأتقن كل شيء خلقه.

ذلكم المحرم مما ذكر وصاكم به لعلكم تعقلون عن الله أوامره ونواهيه ، أي ليعدكم لأن تعقلوا الخير والمصلحة في فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه. والوصية : أن يعهد إلى إنسان بعمل خير أو ترك شر.

وتذييل الآية بهذه الخاتمة يدلّ على أن ما هم عليه من الشرك وتحريم بعض الأنعام مما لا تعقل له فائدة.

٦ . المحافظة علي مال اليتيم :

﴿وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي لا تأخذوا شيئا من مال الأيتام الذين تتولون الإشراف عليهم ، إلا بما فيه مصلحة ونفع لهم ، في حفظ المال وتنميته ، وحمايته من المخاطر ، والإنفاق منه بحسب الحاجة ، وذلك كقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً ، إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً ، وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ [النساء ٤ / ١٠].

والنهي عن القرب عن الشيء أبلغ من النهي عن الشيء نفسه : لأن الأول يتضمن النهي عن الأسباب والوسائل المؤدية إليه ، وعن الشبهات التي هي مظنّة التأويل ، كأن يأكل شيئا من ماله أثناء أداء عمل له فيه ربح. وقد نهى الله تعالى عن الأكل من مال اليتيم إلا لضرورة أو حاجة ، فقال : ﴿وَلا تَأْكُلُوها إِسْرافاً وَبِداراً أَنْ يَكْبَرُوا ، وَمَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء ٤ / ٦].

وتسلّم الأموال إلى اليتامى حين بلوغهم سن الرشد ، لذا قال تعالى : ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أي لا تقربوا مال اليتيم حتى يبلغ مبلغ الرجال في الحنكة والقوة واكتمال الملكات والمدارك العقلية ، وذلك كما قال الشعبي ومالك وجماعة من السلف : حتى يحتلم ، والاحتلام يكون عادة بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة : ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ﴾ [النساء ٤ / ٦]. والمراد من الآية : حفظ مال اليتيم وعدم تبذيره أو إضاعته حتى البلوغ.

٧ و ٨ . إيفاء الكيل والميزان بالقسط :

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي أتموا الكيل إذا كلتم للناس ، ولا تزيدوا فيه إذا اكتلتم لأنفسكم ، وأتموا الميزان إذا وزنتم لأنفسكم فيما تشترون أو لغيركم فيما تبيعون ، فلا يكون فيه زيادة ولا نقص ، وإنما تمام بالعدل ، من غير تطفيف ، كما قال تعالى : ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾[1] ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين ٨٣ / ١ ـ ٣] أي أن إيفاء الحق يكون في الحالتين : البيع والشراء. وقوله : ﴿بِالْقِسْطِ﴾ يوجب تحري العدل حال البيع والشراء بقدر المستطاع ، لذا قال :

﴿لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها﴾ أي لا يكلف الله نفسا إلا ما يسعها فعله ، بأن تأتيه بلا عسر ولا حرج أي بقدر الطاقة والجهد ، فإذا أخطأ الشخص بدون قصد فلا مؤاخذة ، روى ابن مردويه عن سعيد بن المسيب قال : قال رسول الله ﷺ في الآية : ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ ، لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها﴾ : «من أوفى على يده في الكيل والميزان ، والله يعلم صحة نيته بالوفاء فيهما ، لم يؤاخذ ، وذلك تأويل : وسعها» وهو حديث مرسل غريب.

---

(١) التطفيف : البخس في الكيل والميزان ، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس ، وإما بالنقصان إن قضاهم ، كما هو مفسر في تتمة الآية.

وعاقبة تطفيف الكيل والميزان وخيمة جدا ومنذرة بعقاب أليم ، كما حكى الله تعالى عن قوم شعيب عليه السلام : ﴿وَيا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ ، وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ ، وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ الآيات [هود ١١ / ٨٥].

٩ . العدل في القول أو الحكم :

﴿وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى﴾ أي فاعدلوا في القول في الشهادة أو الحكم ، ولو كان المقول له أو عليه ذا قرابة منكم ؛ إذ بالعدل تصلح شؤون الأمم والأفراد ، وهو أساس الملك ، وركن العمران ، وقاعدة الحكم ، كما قال تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ، شُهَداءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ ، أَوِ الْوالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء ٤ / ١٣٥] وهذا عدل بالقول ، كالعدل المطلوب سابقا في الفعل كالكيل والوزن.

١٠ . الوفاء بالعهد :

﴿وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا﴾ أي وأوفوا بعهد الله ، وذلك بإنجازه وتنفيذه ، وإطاعة الله فيما أمر ونهى ، والعمل بكتاب الله وسنة رسوله. وهو يشمل : ما عهده الله إلى الناس على ألسنة الرسل ، وما آتاهم الله من العقل والفطرة السليمة كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس ٣٦ / ٦٠] ، وما عاهده الناس عليه ، كما قال تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذا عاهَدْتُمْ﴾ [النحل ١٦ / ٩١] ، وما تعاهد عليه الناس مع بعضهم بعضا ، كما قال تعالى في صفة المؤمنين : ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا﴾ [البقرة ٢ / ١٧٧].

﴿ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي وصاكم الله بهذا رجاء أن تتعظوا وتنتهوا عما كنتم فيه قبل هذا ، وليذكر بعضكم بعضا في التعليم والتواصي الذي أمر الله به : ﴿وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر ١٠٣ / ٣].

ثم ختم الله تعالى هذه الوصايا ببيان أن هذا هو منهج الحق وطريق الاستقامة ، فقال: ﴿وَأَنَّ هـذا صِـراطِي ...﴾ أي ولأن هـذا هـو الطريـق المسـتقيم ، فـاتبعوه ولا تتبعـوا الطـرق المختلفة ذات المذاهب والأهواء والبدع والضلالات ، فيؤدي بكم إلى التفرق والاختلاف ، والانحراف عـن ديـن الله الحـق ، ومنهجـه الأمثـل. قـال ابـن عبـاس في قولـه : ﴿وَلا تَتَّبِعُـوا السُّـبُلَ﴾ : أمـر الله المؤمنين بالجماعـة ، ونهـاهم عـن الاخـتلاف والتفرقـة ، وأخـبرهم أنـه إنمـا هلك من كان قبلكم بالمراء والخصومات في دين الله.

وأوضح النّبي ﷺ الصراط المستقيم ، روى الإمام أحمد ، والنسائي وأبو الشيخ ابن حيان والحاكم عن عبد الله بن مسعود قال : خط رسول الله ﷺ خطأ بيده ، ثم قال : «هذا سبيل الله مستقيما» وخط عن يمينه وشماله ، ثم قال : «هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه» ثم قرأ : ﴿وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ، فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾.

وروى أحمد والترمذي والنسائي عن النّواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال : «ضرب الله مثلا : صراطا مستقيما ، وعن جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتّحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس ، هلّم ادخلوا الصراط المستقيم جميعا ولا تفرقوا ، وداع يدعو من فوق الصراط ، فإذا أراد إنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال : ويحك ، لا تفتحه ، فإنك إن فتحته تلجه. فالصراط : الإسلام ، والسوران : حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله ، والداعي من فوق الصراط : واعظ الله في قلب كل مسلم».

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه الآيات أمر من الله تعالى لنبيه ﷺ بأن يدعو جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرم الله ، ويجب على من بعده من العلماء أن يبلّغوا الناس ويبينوا لهم ما حرّم الله عليهم مما أحلّ ، قال الله تعالى : ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران ٣ / ١٨٧].

وقد تضمنت الوصايا العشر : خمسة منها بصيغة النهي ، وخمسة بصيغة الأمر ، ولما وردت الأوامر مع النواهي ، وتقدّمهن جميعا فعل التحريم ، واشتركن في الدخول تحت حكمه ، علم أن التحريم راجع إلى أضدادها : وهي الإقرار بوجود الله وتوحيده ، والإساءة إلى الوالدين ، وبخس الكيل والميزان ، وترك العدل في القول ، ونكث عهد الله ... إلخ.

قال كعب الأحبار : هذه الآية مفتتح التوراة : بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ...﴾ الآية.

وقال ابن عباس : هذه الآيات المحكمات التي ذكرها الله في سورة (الأنعام) أجمعت عليها شرائع الخلق ، ولم تنسخ قط في ملّة. وقد قيل : إنها العشر كلمات المنزلة على موسى.

أما الشرك بالله : فهو وكر الخرافات والأباطيل ، ومبعث الأهواء والشهوات ، وهو مصادم لمقتضيات العقل السليم والفكر الصحيح.

وأما الإحسان إلى الوالدين : فواجب تقتضيه الفطرة ؛ لأنهما كانا سبب وجود الإنسان ، وقد ربياه وأحسنا إليه صغيرا وكبيرا ، ومحبتهما جزاء ومكافأة لهما ، وعقوقهما مفسد تكوين الأولاد ، ومساعد على الغلظة والشذوذ في كل مسالك الحياة.

وقد جاء الأمر بالإحسان إلى الوالدين عقب الأمر بتوحيد الله ؛ لأن أعظم أنواع النعم على الإنسان نعمة الله تعالى ، ويتلوها نعمة الوالدين ؛ لأن المؤثر الحقيقي في وجود الإنسان هو الله سبحانه ، وفي الظاهر هو الأبوان ، ونعم الوالدين على الإنسان عظيمة وهي نعمة التربية والشفقة والحفظ عن الضياع والهلاك في وقت الصغر.

وقتل الأولاد : مسبّة وعار ، وقسوة وغلظة ، وانحدار في مستوى الإنسانية ، ولون من ألوان الهمجية ، ومصادمة لإرادة الله تعالى.

وقد استدل الظاهرية بآية : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ﴾ على منع العزل ؛ لأن وأد الأولاد يرفع الموجود والنّسل ؛ والعزل بإلقاء الماء خارج المحل منع أصل النسل ، فتشابها ، إلا أن قتل النفس أعظم وزرا وأقبح فعلا.

لكن جمهور العلماء أباحوه ، لقوله ﷺ : «لا عليكم ألا تفعلوا فإنما هو القدر» [١] أي ليس عليكم جناح في ألا تفعلوا.

واشترط مالك والشافعي كون العزل عن الحرة بإذنها ، فلا يجوز بغير إذنها ، لأن الإنزال من تمام لذتها ، ومن حقها في الولد.

وتحريم الفواحش ذاتها وتحريم وسائلها وأسبابها : ضرورة صحية وإنسانية واجتماعية ، فما من فاحشة أو حرام أو منكر إلا وهو ضار ضررا محضا بصحة الإنسان ، ومهدد لوجوده ، ومفسد للمجتمع في جميع أحواله ونظامه وتطلعاته. والنهي عن اقتراف الفواحش في الآية نهي عام عن جميع أنواع الفواحش وهي المعاصي.

وقتل النفس مؤمنة كانت أو معاهدة بغير مسوغ شرعي أو إلا بالحق الذي يوجب قتلها : جريمة كبري ، واعتداء شنيع على صنع الخالق. والعاصم من القتل : الإسلام ، والسلام أو الأمان ، والعهد. والمسوغ الشرعي أو القتل بالحق

---

(١) الحديث صحيح (راجع سبل السلام ٣ / ١٠٣٦) ط دار الجيل. بيروت.

مثل منع الزكاة وترك الصلاة ، والدفاع عن النفس ، والمحاربة (قطع الطريق) ، والقصاص ، والردة ، وزنى المحصن. وأجاز بعضهم القتل بسبب اللواط عملا بما روى أبو داود عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به».

وأكل مال اليتامى : ظلم واعتداء على حقوق الضعفاء ، واستغلال لحاجتهم وصغرهم. لكن يجوز الأخذ من مال اليتيم بالتي هي أحسن ، أي بما فيه صلاحه وتنميته ، وذلك بحفظ أصوله وتثمير فروعه ، بالاتجار فيه ونحوه من وسائل التنمية.

ويدفع المال إلى اليتيم ببلوغ سن الرشد وهو توافر الخبرة المالية ، وذهب أبو حنيفة إلى أن أقصى مدة لمنع المال عن اليتيم هي خمس وعشرون سنة. وقد فسّر بلوغ الأشد أي القوة وهي قوة البدن والمعرفة باية أخرى في سورة النساء وهي : ﴿**وَابْتَلُوا الْيَتامى حَتَّى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ ، فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً ، فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ**﴾ [٦] فجمع بين قوة البدن وهو بلوغ النكاح ، وبين قوة المعرفة وهو إيناس الرشد.

وإيفاء الكيل والميزان بالقسط أي بالاعتدال في الأخذ والعطاء عند البيع والشراء : فيه حفاظ على الحقوق المالية.

والقول بالعدل في الأحكام والشهادات ولو على النفس والأقارب : فيه إنصاف للحق ، وإظهار له ، ومن المعلوم أن الإسلام هو دين الحق والعدل.

والوفاء بعهد الله ، أي بجميع ما عهده الله إلى عباده ، ويشمل جميع ما انعقد بين إنسانين : أمر يوجبه شكر المنعم الخالق ، وتقتضيه المدنية ، وتقره الأعراف السليمة ؛ لأنه فيما يمس الوعود والعقود بين الناس يوفر الخير والعطاء للجماعة

كلها ، ويحقق معنى النظام واحترام الوقت. وأضيف العهد إلى الله من حيث أمر بحفظه والوفاء به.

والسبب في جعل خاتمة الآية الأولى بقوله : ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وخاتمة الآية الثانية بقوله : ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ : هو كما أوضح الرازي أن المحرّمات الخمسة المذكورة في الآية الأولى (وهي الشرك ، وعقوق الوالدين ، وقتل الأولاد ، وقربان الزنى ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق) أمور ظاهرة جلية القبح ، فنهاهم الله عنها ، لعلهم يعقلون قبحها ، فيتركوها. وأما التكاليف الخمسة المذكورة في الآية الثانية (وهي حفظ مال اليتيم ، وإيفاء الكيل والميزان ، والعدل في القول في الأحكام والشهادات ، والوفاء بالعهد) فهي أمور خفية غامضة ، وكانوا يفعلونها ويفتخرون بالاتصاف بها ، فأمر الله تعالى بها لعلهم يذكرون إن نسوها ، وليجتهدوا ويفكروا فيها ليقفوا على موضع الاعتدال.

وقال أبو حيان : كرر الوصية على سبيل التوكيد ، ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف ، وقد أمر الله سبحانه باتباعه ، ونهى عن اتباع غيره من الطرق ، ختم الآية الثالثة بالتقوى التي هي اتقاء النار ؛ إذ من اتبع صراطه نجا النجاة الأبدية ، وحصل على السعادة السرمدية [١].

قال ابن عطية : ومن حيث كانت المحرّمات الأول لا يقع فيها عاقل قد نظر بعقله ، جاءت العبارة : ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ والمحرّمات الأخر شهوات ، وقد يقع فيها من العقلاء من لم يتذكر ، فجاءت العبارة : ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. وركوب الجادة تتضمن فعل الفضائل ، وتلك درجة التقوى ، فجاءت العبارة : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وأما آية ﴿وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً﴾ فأرشدت إلى أن كل ما بيّنه

---

(١) البحر المحيط : ٤ / ٢٥٤

الرسول ﷺ من دين الإسلام هو المنهج القويم ، والصراط المستقيم. وأرشدت أيضا إلى وجوب الاتحاد بين المؤمنين والتلاقي بينهم على ما أمر الله به ، والتحذير من الاختلاف والفرقة ، واتباع غير سبيل الله ، وأن الله أهلك الأمم السابقة بالمراء والخصومات ، ودلت الآية أيضا على أن كل ما كان حقا فهو واحد.

السبب في إنزال التوراة والقرآن

﴿ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ عَلى طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ لَغافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْها سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ بِما كانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧)﴾

الإعراب :

﴿تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ تَماماً﴾ منصوب على المصدر أو على أنه مفعول لأجله. و ﴿أَحْسَنَ﴾ فعل ماض صلة ﴿الَّذِي﴾ ، وفيه ضمير مقدر يعود على ﴿الَّذِي﴾ وتقديره : تماما على المحسن هو. ومن قرأ أحسن بالرفع كان خبر مبتدأ محذوف وتقديره : على الذي هو أحسن. والجملة من المبتدأ والخبر صلة ﴿الَّذِي﴾.

﴿وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ﴾ جملة فعلية في موضع رفع صفة ﴿كِتابٌ﴾ ، و ﴿مُبارَكٌ﴾ وصف ثان.

﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ متعلق بأنزلناه ، وتقديره : كراهة أن تقولوا ، أو لئلا تقولوا. ﴿وَإِنْ

﴿كُنَّا﴾ : إن مخففة من الثقيلة عند البصريين واسمها محذوف ، وتقديره : وإنا كنا ، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية. وذهب الكوفيون إلى أنها بمعنى «ما» واللام بمعنى : إلا ، وتقديره: وما كنا عن دراستهم إلا غافلين.

البلاغة :

﴿يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا﴾ وضع الظاهر موضع الضمير : عنها لتبيان قباحة طغيانهم.

المفردات اللغوية :

﴿ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ﴾ التوراة ، و ﴿ثُمَّ﴾ لترتيب الأخبار. ﴿تَماماً﴾ للنعمة. ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ بالقيام به. ﴿وَتَفْصِيلاً﴾ بيانا. ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه في الدين. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي بني إسرائيل. ﴿بِلِقاءِ رَبِّهِمْ﴾ بالبعث. ﴿وَهذا﴾ القرآن. ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ يا أهل مكة بالعمل بما فيه. ﴿وَاتَّقُوا﴾ الكفر. ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ لئلا تقولوا. ﴿طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا﴾ هم اليهود والنصارى. ﴿وَإِنْ كُنَّا﴾ إن : مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي إنا كنا ، والأصل : وإنه كنا عن دراستهم غافلين ، على أن الهاء ضمير الشأن. ﴿عَنْ دِراسَتِهِمْ﴾ قراءتهم وعلمهم أي لم نعرف مثل دراستهم. ﴿لَغافِلِينَ﴾ لعدم معرفتنا لها ؛ إذ ليست بلغتنا.

﴿لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ﴾ لحدة أذهاننا ، وثقابة أفهامنا ، وغزارة حفظنا لأيام العرب ، ووقائعها. وخطبها ، وأشعارها ، وأسجاعها ، على أنا أميون. ﴿بَيِّنَةٌ﴾ البيان والبيّنة : ما به يظهر الحق. ﴿وَهُدىً وَرَحْمَةٌ﴾ لمن اتبعه. ﴿فَمَنْ﴾ أي لا أحد. ﴿وَصَدَفَ عَنْها﴾ أعرض ومنع الناس عنها. ﴿سُوءَ الْعَذابِ﴾ أي أشده.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله الوصايا العشر ، أخبر عن الغاية من إنزال التوراة على موسى عليه السلام ؛ لاشتهارها عند مشركي العرب وسماعهم أخبارها ، ثم ذكر مكانة القرآن وكونه كتاب هداية ، وأعمل بوجوب اتباعه ، ورد على عذر المشركين بعدم الانقياد له ، مما لا يصلح عذرا بعد جعل القرآن مباركا كثير الخير والفضل.

التفسير والبيان :

في الكلام شيء محذوف تقديره : لفظ «قل» أي قل يا محمد الرسول لهؤلاء

الناس : إنا آتينا موسى الكتاب ، وهو معطوف على بداية الكلام عن الوصايا العشر ، بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ أي ثم قل : إن آتينا موسى الكتاب ، ويصبح مجموع الكلام المقول للمشركين : تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ووصاكم به وهو كذا وكذا ، ثم قل لهم وأعلمهم : أننا آتينا موسى الكتاب .. إلخ أي أخبرهم بما أوحي إليك ، وبما آتينا موسى.

وقد تكرر ذكر التوراة في القرآن ؛ لأنها أشبه بالقرآن من الإنجيل والزبور ، لاشتمالها على جميع الأحكام التشريعية ، فكل منهما شريعة كاملة ، بعكس الإنجيل والزبور ، فإن الإنجيل كتاب عظات وأمثال وتاريخ ، والزبور كتاب ثناء ومناجاة وتراتيل. وكان كثير من عقلاء العرب يتمنى أن يكون لهم كتاب كالتوراة ، وأنه لو جاءهم لكانوا أهدى من اليهود وأعظم انتفاعا به ، لامتيازهم بحدة الذكاء وحصافة العقل والفهم.

ولما أخبر الله عن القرآن بقوله : ﴿وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾ عطف عليه الكلام بمدح التوراة ورسولها ، فقال : ﴿ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ﴾. وكثيرا ما يقرن سبحانه بين ذكر التوراة والقرآن كما بينت ، كقوله تعالى : ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً ، وَهذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف ٤٦ / ١٢] وقوله أول هذه السورة : ﴿قُلْ: مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَتُخْفُونَ كَثِيراً﴾.

والوصايا العشر التي ذكرت في الآيات الثلاث ، والتي لها نظير في سورة الإسراء ، كانت أول ما نزل بمكة قبل تشريع أحكام العبادات والمعاملات ، وكانت أول ما نزل على موسى من أصول دينه ، وهي أيضا أصول الأديان على ألسنة الرسل ؛ لقوله تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ، وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾

[الشورى ٤٢ / ١٣] والقدر المشترك من الدين الذي أوصى به جميع الرسل : هو التوحيد ، ومكارم الأخلاق ، والبعد عن الفواحش والمنكرات.

﴿تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أي آتينا موسى الكتاب تماما للكرامة والنعمة على الذي أحسن في اتباعه والاهتداء به ، كما قال تعالى : ﴿وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا﴾ [الأنبياء ٢١ / ٧٣].

ويجوز أن يكون المعنى : وآتينا موسى الكتاب تماما أي تاما كاملا جامعا لكل ما يحتاجه الناس من التشريع ، وعلى أحسن ما تكون عليه الكتب ، أي على الوجه والطريق الذي هو أحسن. لكن يضعف هذا المعنى ما يأتى بعده وهو : ﴿وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي وآتيناه الكتاب الذي أنزلناه إليه تماما كاملا جامعا لما يحتاج إليه في شريعته ، كقوله تعالى عن موسى : ﴿وَكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف ٧ / ١٤٥].

﴿وَهُدىً وَرَحْمَةً﴾ أي وهو كتاب هداية إلى الحق ، وسبب رحمة لمن اهتدى به واتبعه ، وقال الرازي : معنى ﴿رَحْمَةً﴾ : أنه نعمة في الدين.

﴿لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي آتيناه الكتاب بمشتملاته المذكورة ، لكي يؤمن قومه بلقاء ربهم ، أي لقاء ما وعدهم الله به من ثواب وعقاب ، وإذا آمنوا بذلك آمنوا بالله وحده لا شريك له.

ثم انتقل إلى وصف القرآن الكريم فقال : ﴿وَهذا كِتابٌ ...﴾ أي وهذا القرآن كتاب عظيم الشأن ، كثير الخير والنفع في الدين والدنيا ، ثابت لا ينسخ ، جامع لأسباب الهداية الدائمة والنجاة والفلاح ، فاتبعوا ما هداكم إليه ، واتقوا النار والكفر بما نهاكم عنه ومنعكموه ، لتظفروا برحمة الله الواسعة في الدنيا والآخرة.

وفي هذا دعوة صريحة إلى اتباع القرآن ، من طريق التدبر بآياته. والعمل به.

هذا كتاب أنزلناه لئلا تقولوا وهو خطاب لأهل مكة : إنما اقتصر إنزال الكتاب على من قبلنا من اليهود والنصارى ، أي لينقطع عذركم ، ولئلا تقولوا : إنا كنا عن معرفة الكتب السابقة غافلين ، لا ندري ما هي ؛ لأنها ليست بلغتنا ، ولأننا قوم أميون لا نعرف ما يعرفه ويدرسه غيرنا.

ولئلا تقولوا أيضا لو أنزل علينا ما أنزل عليهم ، لكنا أهدى منهم فيما أوتوه ؛ لأننا أكثر ذكاء وفهما ، وأعمق بصيرة ، وأمضى عزيمة ، كقوله تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ، لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ ، لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ [فاطر ٣٥ / ٤٢] أي أهدى من إحدى الأمم المجاورة من أهل الكتاب.

فرد الله عليهم بما يقطع كل تعلل واعتذار بقوله : ﴿فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ ..﴾ أي فقد جاءكم على لسان رسولنا النبي العربي محمد ﷺ قرآن عظيم ، فيه بيان للحلال والحرام ، وهدى لما في القلوب ، ورحمة من الله لعباده الذين يتبعونه ، ويقتفون ما فيه ، وهو يشتمل على الحق المؤيد بالحجج والبراهين في العقيدة والآداب والأحكام.

ثم أبان الله سوء عاقبة من كذب بالقرآن ، فقال : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللهِ ..﴾ أي لا أحد أظلم ممن كذب بآيات الله ، بعد ما عرف صحتها وصدقها ، أو تمكن من معرفة ذلك ، وأعرض عنها ، ومنع الناس عن التفكير فيها ، كما كان يفعل زعماء مكة ، كقوله تعالى : ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام ٦ / ٢٦].

ثم أتبع الله ذلك بالتهديد والوعيد والعقاب لكل معرض عن القرآن ، كما هو الشأن الغالب بعد بيان أسباب الهداية ، فقال : ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ ..﴾ أي سنجازي المعرضين عن آياتنا أشد العذاب بسبب حجب عقولهم ونفوسهم وغيرهم عن هداية الله ، والإعراض عنها ؛ لأنهم يتحملون وزرهم ووزر من

منعوهم عن الحق ، وحالوا بينهم وبين هداية الله ، كقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ بِما كانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل ١٦ / ٨٨] أي زدناهم عذابا غير عذابهم بسبب إفسادهم وصدهم عن سبيل الحق.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على أن القرآن مثل التوراة في أصولها الصحيحة الأولى التي فقدت وضاعت ، ثم كتب عنها بديل محرّف مشوّه ، مما لم يبق منهجا للبشرية وكتابا للإنسانية غير القرآن الكريم ، ففيه الهداية الكاملة ، والبيان الواضح المؤيد بالبراهين والأدلة العقلية ، والنقلية (السمعية) ، ولم يبق لأحد عذر بعد مجيء محمد ﷺ ، وتأييده بالمعجزة الخالدة الباقية من غير تبديل ولا تحريف ، فإن كذب به أحد ، فلا أظلم منه ، وسيلقى جزاء إعراضه وتكذيبه. ودل قوله تعالى : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْها﴾ على تعظيم كفر من كذب بآيات الله ، ومنع عنها نفسه وغيره من الإيمان بها ؛ لأن الأول ضلال ، والثاني منع عن الحق وإضلال.

إنذار أخير للكفار بسوء العذاب

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨)﴾

الإعراب :

﴿لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها ، لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ جملة : ﴿لَمْ تَكُنْ﴾ صفة النفس.

البلاغة :

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ معنى الاستفهام : النفي.

﴿قُلِ : انْتَظِرُوا﴾ أمر تهديد ووعيد.

﴿لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها ..﴾ قال أحمد الإسكندري في حاشية الكشاف : ١ / ٥٣٧ : اشتمل هذا الكلام على النوع المعروف من علم البيان والبلاغة باللف ، وأصل الكلام : يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا لم تكن مؤمنة قبل : إيمانها بعد ، ولا نفسا لم تكسب في إيمانها خيرا قبل : ما تكسبه من الخير بعد ، إلا أنه لفّ الكلامين ، فجعلهما كلاما واحدا بلاغة واختصارا وإعجازا. ومبدأ أهل السنة : لا ينفع بعد ظهور الآيات اكتساب الخير ، وإن نفع الإيمان المتقدم في السلامة من الخلود في النار.

المفردات اللغوية :

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ ينتظرون أي ما ينتظر المكذبون. ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم. ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أي أمره ، بمعنى عذابه. ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ﴾ أي علاماته الدالة على الساعة. ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ﴾ وهي طلوع الشمس من مغربها ، كما في حديث الصحيحين. ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها﴾ أي : أو نفسا لم تكن كسبت في إيمانها طاعة ، أي لا تنفعها توبتها ، كما في الحديث.

المناسبة :

هذه الآية إنذار للكفار بعد إنذار بسوء العذاب ، فلما بيّن الله تعالى أنه إنما أنزل الكتاب إزالة للعذر ، وإزاحة للعلة ، بيّن أنهم لا يؤمنون البتة ، أي لا أمل في إيمانهم.

التفسير والبيان :

يتوعد الله تعالى الكافرين والمخالفين لرسله والمكذبين بآياته والصادين عن سبيله ، فهم ما ينتظرون ولا يؤمنون إلا إذا جاءهم أحد أمور ثلاثة : وهي مجيء الملائكة ، أو مجيء الرب ، أو مجيء الآيات القاهرة من الله تعالى.

ومعنى مجيء الملائكة هو مجيئهم لقبض أرواحهم. ومعنى إتيان الله : إتيان ما وعد به من نصر أنصاره وأوعد به من تعذيب أعدائه في الدنيا ، والمراد من مجيء بعض آيات الله : حدوث بعض الحوادث القاهرة الموجبة للإيمان الاضطراري.

وكان مشركو مكة قد طلبوا نزول الملائكة وإتيان الله أو رؤيته ، كما حكى القرآن : ﴿وَقالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا : لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ ، أَوْ نَرى رَبَّنا﴾ [الفرقان ٢٥ / ٢١]. ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾ [الإسراء ١٧ / ٩٢] وطلبوا أيضا إنزال بعض آيات الله مثل ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً﴾ [الإسراء ١٧ / ٩٢].

وقوله ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ هل يدل على جواز المجيء والغيبة على الله؟ أجيب بأن هذا حكاية عن الكفار ، واعتقاد الكافر ليس بحجة ، أو أن هذا مجاز ، مثل قوله تعالى. ﴿فَأَتَى اللهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ﴾ [النحل ١٦ / ٢٦] وذلك لقيام الدلائل القاطعة على أن المجيء والغيبة على الله تعالى محال.

وفي هذه الآية إيماء إلى تماديهم في تكذيب آيات الله ، وعدم الاعتداد بها.

ثم وجّه الحق تعالى إنذارا أخيرا لهم بقوله : ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ...﴾ أي يوم تأتي الآيات الملجئة للإيمان الاضطراري لا ينفع حينئذ الإيمان مثل إيمان فرعون حينما أحدق به الغرق ، كما لا ينفعها توبة لم تكن حدثت في وقت السعة قبل الغرغرة.

وبعض هذه الآيات قد يحدث قبل خروج الروح ، أو قبيل يوم القيامة حين ظهور أمارات الساعة وأشراطها ، كما قال البخاري في تفسير هذه الآية ، فيما أخرجه هو والجماعة إلا الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال

رسول الله ﷺ : «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا رآها الناس آمن من عليها ، فذلك حين ﴿لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾». وفي لفظ : «فإذا طلعت ورآها الناس ، آمنوا أجمعون ، وذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل» ثم قرأ هذه الآية.

وأخرج أحمد والترمذي عن أبي هريرة مرفوعا : «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض».

﴿قُلِ : انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ أي قل لهم يا محمد : انتظروا ما تتوقعون حدوثه من دحر الإسلام ، وقتل النبي ، وزوال الدين ، إنا منتظرون وعد ربنا الصادق لنا بالنصر ووعيده المتحقق لأعدائنا ، مثل قوله تعالى : ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ، قُلْ : فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [يونس ١٠ / ١٠٢].

وهذا تهديد شديد للكافرين ووعيد اكيد لمن أرجأ إيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك ، كما قال تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا : آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ ، وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ، فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا﴾ [غافر ٤٠ / ٨٤ ـ ٨٥].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية على أمور ثلاثة :

الأول ـ إنه لا أمل في إيمان الكفار المعاندين ، لتماديهم في تكذيب آيات الله.

الثاني ـ لا ينفع الإيمان الاضطراري عند رؤية العذاب في الدنيا ، أو عند مجيء بعض علامات القيامة.

الثالث . وعيد الكفار وتهديدهم وإنذارهم بإنزال العذاب عليهم إذا لم يؤمنوا.

عاقبة الاختلاف في الدين

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩)﴾

المفردات اللغوية :

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ باختلافهم فيه ، فأخذوا بعضه وتركوا بعضه. وفي قراءة : فارقوا : أي تركوا دينهم الذي أمروا به ، وهم اليهود والنصارى. ﴿وَكانُوا شِيَعاً﴾ فرقا في ذلك. ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي فلا تتعرض لهم. ﴿إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ﴾ يتولاه. ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ﴾ يخبرهم في الآخرة عن أفعالهم ، فيجازيهم عليها.

المناسبة :

بعد أن أوعد الله الكفار وأنذرهم بسوء العذاب ، وبما ينتظر من الحوادث الرهيبة في آخر الزمان ، حذّر الله المؤمنين من التفرق في الدين ، كما يفعل أهل البدع والشبهات ، وحث على توحيد كلمة المسلمين.

التفسير والبيان :

روى أبو هريرة عن النبي ﷺ في هذه الآية : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ : هم أهل البدع والشبهات ، وأهل الضلالة من هذه الأمة. وهذا ما قاله مجاهد. وقال أبو أمامة في قوله : ﴿وَكانُوا شِيَعاً﴾ هم الخوارج.

وقيل عن جماعة (قتادة والضحاك والسدي) : نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى ؛ إذ فرقوا دين إبراهيم وموسى وعيسى ، فجعلوه أديانا مختلفة ومذاهب شتى.

وقيل : الآية عامّة في جميع الكفار ، قال ابن كثير : والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله ، وكان مخالفا له [١]. وهذا ما صوبه بعض المحدثين ، مثل صاحب تفسير المنار [٢] ، فقال : والصواب هو الجمع بين الرأيين ، فإن الله تعالى ، بعد أن أقام حجج الإسلام في هذه السورة ، وأبطل شبهات الشرك ، ذكر أهل الكتاب وشرعهم ؛ وأمر المستجيبين لدعوة الإسلام بالوحدة وعدم التفرق ، كما تفرق من قبلهم ، كما جاء في سورة آل عمران : ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا ، وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ ، وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ [١٠٥].

والمعنى : إن الذين فرقوا دينهم ، فآمنوا ببعض وأخذوا به ، وتركوا بعضه الآخر ، وتأولوا نصوصه على وفق أهوائهم ، وصاروا فرقا ، كل فرقة تأخذ برأي وتتعصب لمذهب ، لا تتعرض لهم يا محمد ودعهم وشأنهم ولا تقاتلهم ، وإنما عليك تبليغ الرسالة ، ومناصرة شعائر الدين الحق ، أنت بريء منهم ومن أفعالهم ، وبعيد من أقوالهم ومذاهبهم ، والله يتولى أمرهم وحسابهم ، ثم ينبئهم في الآخرة ويجازيهم على تجزئة الدين. قال الرازي : المراد من الآية الحث على أن تكون كلمة المسلمين واحدة ، وألا يتفرقوا في الدين ، ولا يبتدعوا البدع [٣].

وقد استنكر الله تعالى في موضع آخر هذه التجزئة ، فقال عن أهل الكتاب : ﴿أَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ ، وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة ٢ / ٨٥].

وحذر النّبي ﷺ من تفرق المسلمين ، روى أبو داود عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال : قام فينا رسول الله ﷺ فقال : «ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملّة (أي فرقة) وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ، ثنتان وسبعون في النار ، وواحدة في الجنة ، وهي

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ١٩٦

(٢) راجع ٨ / ٢١٤

(٣) تفسير الرازي : ١٤ / ٨

الجماعة» [١] وروى أبو داود ، والترمذي ـ واللفظ له ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، أو اثنتين وسبعين ، والنصارى مثل ذلك. وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة» [٢] فيكون المراد من قوله : ﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ اختلفوا فيه كما اختلفت اليهود والنصارى. وقيل : فرقوا دينهم ، فآمنوا ببعض ، وكفروا ببعض.

وأسباب الاختلاف والتفرق كثيرة ، من أهمها : حب السيطرة والسلطة ، والتعصب للجنس والقوم ، أو للرأي والهوى ، والإصغاء لدسائس أعداء الدين ومكائدهم ، والجهل والتخلف ، واتباع الآخرين في العادات والتقاليد ، وتخلي بعض الدول أو أكثرها عن الدين في الفكر والاعتقاد ، والسياسة والمنهج ، والنظام والقانون.

فقه الحياة أو الأحكام :

إن شرع الله واحد وكل لا يتجزأ ، فلا يصح أخذ بعضه ، وترك بعضه ، وتعطيل حكم أو ادعاء عدم صلاحيته للعصر ، فمن اعتقد ذلك فهو كافر.

والتفرق في الدين ، والابتداع واتباع الشبهات والشهوات خطر عظيم وجرم كبير وضلال مبين.

وما على الأمة إلا جمع كلمتها ، وتوحيد رأيها ، والحذر من الانزلاق في مهاوي الابتداع مما لم يأذن به الله ورسوله في العبادة والأخلاق والتشريع.

وإن هجر تشريع الله بدأ بالتخلي عن بعض أحكامه تدريجيا ، حتى أصبح منعزلا عن الحياة.

---

(١) جامع الأصول لابن الأثير : ١٠ / ٤٠٧

(٢) المرجع السابق : ١٠ / ٤٠٨

بل إنه مع الأسف امتد التجزؤ والتجميد إلى بعض نصوص القرآن ، فلا يقرأ بعضها في الإذاعات.

والآية عامة في كل من فارق الدين وكان مخالفا له ، سواء أكان من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) أم من المسلمين (أهل البدع والشبهات). روى بقيّة بن الوليد بسنده عن عمر بن الخطاب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لعائشة : «إن الذين فرقوا دينهم ، وكانوا شيعا : إنما هم أصحاب البدع ، وأصحاب الأهواء ، وأصحاب الضلالة من هذه الأمة ، يا عائشة ، إن لكل صاحب ذنب توبة غير أصحاب البدع وأصحاب الأهواء ، ليس لهم توبة ، وأنا بريء منهم ، وهم منا برآء».

جزاء الحسنة والسيئة

﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلاَّ مِثْلَها وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٦٠)﴾

الإعراب :

﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها﴾ : من قرأ بالتنوين ﴿عَشْرُ﴾ كان ﴿عَشْرُ﴾ مبتدأ ، و ﴿أَمْثالِها﴾ صفة له ، و ﴿فَلَهُ﴾ خبر مبتدأ مقدم عليه. ومن قرأ بالإضافة كان في حذف الهاء من ﴿عَشْرُ﴾ وهو مذكر ثلاثة أوجه ذكرها ابن الأنباري ١ / ٣٥٠ :

الأول ـ أن يكون التقدير فيه : عشر حسنات أمثالها ، فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه. وهذا مذهب سيبويه. وهذا أوجه الوجوه.

والثاني ـ أنه حمل ﴿أَمْثالِها﴾ على المعنى ؛ لأن الأمثال في معنى حسنات ، فكأنه قال : عشر حسنات.

والثالث ـ أن يكون اكتسى المضاف التأنيث من المضاف إليه ، كقوله تعالى : ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ [يوسف ١٢ / ١٠] في قراءة التاء ، وكقولهم : ذهبت بعض أصابعه.

البلاغة :

﴿بِالْحَسَنَةِ﴾ و ﴿بِالسَّيِّئَةِ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها﴾ أي جزاء عشر حسنات. ﴿إِلَّا مِثْلَها﴾ أي جزاء واحد مماثلا لها ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ لا ينقصون من جزائهم شيئا.

قال بعضهم : الحسنة : قول : لا إله إلا الله ، والسيئة : هي الشرك. قال الرازي : وهذا بعيد ، بل يجب أن يكون محمولا على العموم [١].

المناسبة :

بعد أن بين الله تعالى في السورة أصول الإيمان ، وألزم باتباع الوصايا العشر في الفضائل والآداب. وندد بالكفار وأهل البدع ، أوضح هنا الجزاء على العمل ، سواء أكان من الحسنات : وهي الإيمان والأعمال الصالحة ، أم من السيئات : وهي الكفر والمعاصي أو الفواحش.

التفسير والبيان :

من جاء يوم القيامة بالخصلة الحسنة والفعلة الطيبة من الطاعات ، فله جزاؤها عشر حسنات أمثالها ، وهذا من قبيل العدل والفضل المحدود ، ولكن قد تضاعف الحسنة بعد ذلك إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، قال تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ ، فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، وَاللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ ، وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة ٢ / ٢٦١]. وقال عَزَّوَجَلَّ : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً ، فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً﴾ [البقرة ٢ / ٢٤٥] ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ﴾ [التغابن ٦٤ / ١٧].

---

(١) تفسير الرازي : ١٤ / ٨

وهذا التفاوت مرده إلى الله تعالى ، وإلى اقتران العمل بما يرفعه عند الله ، كالإخلاص في النية ، واحتساب الأجر عند الله ، وإخفاء الفعل الطيب ، وإبداؤه أحيانا للاقتداء به ، وتحري منفعة الأمة. ومن ارتكب سيئة أو اقترف ذنبا ، فله عقوبة سيئة مماثلة لها.

﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ أي كل من المحسن والمسيء لا ينقص من عمله شيء ، فلا ينقص من ثواب المحسنين ، ولا يزاد على عقاب المسيئين.

وجاء الحديث النبوي موضحا معيار التفاضل في الحسنات ، وطريق الجزاء على السيئات ، روى أحمد والبخاري ومسلم والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى : «إن ربكم عز وجل رحيم ، من همّ بحسنة فلم يعملها ، كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشرا إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة. ومن همّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها ، كتبت له واحدة ، أو يمحوها الله عز وجل ، ولا يهلك على الله إلا هالك» والكتابة تكون بواسطة الملائكة ، بأمر الله لهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذا التفاوت بين جزاء الحسنة وجزاء السيئة بفضل من الله ورحمة منه ؛ لأن الثواب ـ في رأي أهل السنة ـ تفضل من الله تعالى في الحقيقة ، فمن فعل حسنة طيبة ، كان له من الجزاء عشرة أضعاف مما يجب له. وتجوز المضاعفة إلى سبعمائة ضعف وإلى أضعاف كثيرة ، حسبما تقتضي الإرادة والمشيئة والحكمة الإلهية ، وبقدر ما يقترن به العمل الصالح من قصد حسن وإخلاص لله تعالى.

ومن اقترف فعلة سيئة ، لم يكن له من الجزاء إلا ما يساويها ويوازيها. روى أبو ذر أن النّبي ﷺ قال : «إن الله تعالى قال : الحسنة عشر أو أزيد ، والسيئة واحدة أو عفو ، فالويل لمن غلب آحاده أعشاره» وقال ﷺ في الحديث المتقدم : «يقول الله :

إذا همّ عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة ، وإن لم يعملها ، فإن عملها فعشر أمثالها ، وإن همّ بسيئة فلا تكتبوها ، وإن عملها فسيئة واحدة».

وفصل العلماء في شأن تارك السيئة فقالوا :

تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام :

١ ـ تارة يتركها لله : فهذا تكتب له حسنة ، لكفّه عنها لله تعالى ، وهذا عمل ونية ، ولهذا جاء : أنه يكتب له حسنة ، كما جاء في بعض ألفاظ الصحيح : «فإنما تركها من جرائي» أي من أجلي.

٢ ـ وتارة يتركها نسيانا وذهولا عنها : فهذا لا له ولا عليه ؛ لأنه لم ينو خيرا ولا فعل شرا.

٣ ـ وتارة يتركها عجزا وكسلا عنها بعد السعي في أسبابها والتلبس بما يقرب منها ، فهذا بمنزلة فاعلها ، كما جاء في الحديث الصحيح عن النّبي ﷺ أنه قال : «إذا التقى المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل والمقتول في النار ، قالوا : يا رسول الله ، هذا القاتل ، فما بال المقتول؟ قال : إنه كان حريصا على قتل صاحبه» [١].

اتباع ملة إبراهيم

في التوحيد والعبادة والتبعة الشخصية

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ١٩٦ وما بعدها.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْها وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤)﴾

الإعراب :

﴿دِيناً﴾ منصوب بفعل مقدر دل عليه : ﴿هَدانِي﴾ ، وتقديره : هداني دينا. وقال الزمخشري : نصب على البدل من محل ﴿إِلى صِراطٍ﴾ لأن معناه : هداني صراطا ، بدليل قوله : ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً﴾ [الفتح ٤٨ / ٢٠] ، و ﴿قِيَماً﴾ صفة ﴿دِيناً﴾ أي دينا ذا استقامة ، وقرئ : قيما بالتشديد من قام كسيّد من ساد ، وهو أبلغ من القائم.

﴿مِلَّةَ إِبْراهِيمَ﴾ عطف بيان و ﴿حَنِيفاً﴾ حال من إبراهيم.

﴿مَحْيايَ﴾ بفتح الياء ، عملا بالأصل وهو أن من حق الياء أن تكون متحركة مفتوحة ، أو حركت لاجتماع ساكنين. ومن قرأ بسكون الياء فلأن حرف العلة يستثقل عليه حركات البناء.

﴿أَغَيْرَ اللهِ﴾ غير : منصوب لأنه مفعول ﴿أَبْغِي﴾ و ﴿رَبًّا﴾ تمييز منصوب ، والتقدير : أأبغي غير الله من ربّ ، فحذف من ، فانتصب على التمييز.

البلاغة :

﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ : استعار أثقال الحمل على الظهور لأثقال الذنوب والآثام.

المفردات اللغوية :

﴿دِيناً قِيَماً﴾ مصدر بمعنى القيام ، أي ذا استقامة ، أي أنه قائم مستقيم لا عوج فيه ، وقرئ ﴿قِيَماً﴾ بالتشديد ، أي مستقيما ، ودين القيّمة بالتأنيث : أي دين الملة الحنيفية ، وكل ذلك يعني انه دين يقوم به أمر الناس ونظامهم في الدنيا والآخرة ، وهو منهاج مستقيم.

﴿حَنِيفاً﴾ مائلا عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق وهو دين الإسلام.

﴿وَنُسُكِي﴾ عبادتي من حج وغيره ﴿مَحْيايَ وَمَماتِي﴾ أي ما آتيه في حياتي ، وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح ، كله لله رب العالمين.

﴿أَبْغِي رَبًّا﴾ لا أطلب غيره ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مالكه ﴿وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ ذنبا

﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ أي لا تتحمل نفس بريئة حمل نفس مذنبة آثمة أخرى ، فقوله: ﴿تَزِرُ﴾ تحمل ، والوزر : الحمل الثقيل.

المناسبة :

لما بيّن الله تعالى في هذه السورة دلائل التوحيد ، والرد على المشركين ونفاة القضاء والقدر ، ختم الكلام بأن الدين القيّم والصراط المستقيم هو ملة إبراهيم القائمة على التوحيد وعبادة الله ، ومسئولية كل شخص عن نفسه لا عن غيره ، وأن الهداية لا تحصل إلا بالله ، وأن الجزاء عند الله على الأعمال التي يقوم بها الإنسان ، فهي دليل سعادته أو شقاوته.

التفسير والبيان :

يأمر الله تعالى نبيه ﷺ سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم الله عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، وهو ملّة أبيه إبراهيم الخليل عليه السلام .

قل أيها الرسول للناس قاطبة ومنهم قومك : إن ربي أرشدني ووفقني إلى طريق مستقيم لا عوج فيه ، وهو الدين القيّم المؤدي إلى سعادة الدنيا والآخرة ، القائم بالحق ، الثابت الأصول ، وهو المراد في مناجاة الله تعالى : ﴿اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

وهو ملة إبراهيم الخليل ، فالتزموه ، لكونه كان مائلا عن جميع أنواع الشرك والضلالة إلى الدين الحق : دين التوحيد. كما قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة ٢ / ١٣٠] وقال : ﴿إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً ، قانِتاً لِلَّهِ ، حَنِيفاً ، وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. شاكِراً لِأَنْعُمِهِ ، اجْتَباهُ وَهَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَآتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ، ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً ، وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل ١٦ / ١٢٠ ـ ١٢٣].

﴿وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي وما كان إبراهيم من المشركين أبدا ، وإنما كان مؤمنا بالله ، موحدا إياه ، مخلصا له عبادته.

فأما من يعتقد أن الملائكة بنات الله ، أو عزيز ابن الله ، أو عيسى المسيح ابن الله ، فهؤلاء هم المشركون البعيدون عن ملة إبراهيم ، كما قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ، وَهُوَ مُحْسِنٌ ، وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً ، وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء ٤ / ١٢٥].

هذا هو الدين الحق دين الإخلاص والعبادة لله وحده ، وهو الذي بعث به جميع الأنبياء والرسل ، وهذا مخالف لما كان عليه مشركو العرب وزعماء قريش الذين يلقبون أنفسهم «الحنفاء» مدّعين أنهم على ملة إبراهيم ، وهو أيضا مخالف لما عليه أهل الكتاب (اليهود والنصارى) الذين يدعون أنهم أتباع ملة إبراهيم وأتباع موسى وعيسى ، وذلك بدليل رد الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرانِيًّا ، وَلكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً ، وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران ٣ / ٦٧].

لذا فإن دعوة الإسلام هي ملتقى جميع الأنبياء ، وهو الدين المقبول عند الله كما قال : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلامُ﴾ [آل عمران ٣ / ١٩] وقال : ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً ، فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ [آل عمران ٣ / ٨٥].

ثم يأمر الله نبيه أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ، ويذبحون لغير اسمه : بأنه مخالف لهم في ذلك ، فإن صلاته لله ، ونسكه على اسم الله وحده لا شريك له ، مثل قوله تعالى : ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر ١٠٨ / ٢] أي أخلص له صلاتك وذبحك ، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها ، فأمره الله بمخالفتهم ، وإخلاص القصد والنية والعزم والعمل لله تعالى.

﴿قُلْ : إِنَّ صَلاتِي ...﴾ أي إن كل أنواع صلاتي وعبادتي ودعائي ونسكي أي عبادتي . وقد كثر استعمال النسك في الذبح وأداء شعائر الحج والعمرة وغيرهما . وكل ما آتيه في حياتي ، وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح هو لله عَزَّوَجَلَّ ، أي أن كل أعمالي ومقاصدي محصورة في طاعة الله ورضوانه ، فهي آية جامعة لكل الأعمال الصالحة ، وعلى المسلم أن يكون قصده وعمله وكل ما يقدمه من عمل هو وجه الله تعالى ، سواء في أثناء حياته ، أو ما يعقبه من عمل صالح بعد مماته ، هو لله ، وإلى الله ، وفي سبيل الله ، ولطاعة الله تعالى.

وخصص الصلاة بالذكر ، مع كونها داخلة في النسك ، لكونها روح العبادة التي قد تتلوث بمفاسد الشرك.

والله واحد لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ، ولا في ربوبيته ، فله العبادة وحده ، والتشريع منه وحده ، بذلك أمرني ربي ، وأنا أول المسلمين المنقادين إلى امتثال أوامره واجتناب نواهيه.

وهذا إثبات لتوحيد الألوهية ، أعقبه بتوحيد الربوبية ، فقال : ﴿قُلْ : أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا ...﴾ أي أغير الله أطلب ربا سواه ، مع أنه هو مالك كل شيء ، خلقه ودبره ، وهو مصدر النفع ومنع الضر ، فكيف أجعل مخلوقا آخر ربّا لي؟!

وما من عمل يكسبه الإنسان إلا عليه جزاؤه دون غيره ، ولا تتحمل نفس بريئة أبدا ذنب نفس أخرى ، فكل إنسان مجزي بعمله : ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور ٥٢ / ٢١] ﴿لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة ٢ / ٢٨٦].

وبما أن كل إنسان مسئول عن عمله ، صالحا كان أو سيئا ، فإنه سيجزي عنه ، إن خيرا فخيرا ، وإن شرا فشرا. والرجوع في نهاية المصير من الذين يلقبون أنفسهم «الحنفاء» لله وحده دون غيره ، فهو الذي يخبركم باختلافكم في

الأديان ، ويجازيكم عليه بحسب علمه وإرادته ، كما قال : ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ، فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران ٣ / ٥٥].

فقه الحياة أو الأحكام :

تتقابل في أغلب نواحي الحياة واجهتان متعاكستان : التفرق والاتحاد ، ولم يسلم دين الله من تأثره بهاتين الواجهتين ، فلمّا بيّن تعالى أن الكفار تفرقوا ، بين أن الله هدى الأنبياء وخاتمهم رسول الله ﷺ إلى الدين المستقيم ، وهو دين إبراهيم عليه السلام .

والدين الحق القيم يتطلب تسخير كل الطاقات الدينية الإنسانية لله عزّ وجلّ ، فله وحده يتوجه العبد بصلاته وعبادته ومناسكه وذبائحه وجميع قرباته وأعماله في حياته وما أوصى به بعد وفاته ، لأنه سبحانه خالق الكون ومدبره ورب جميع العوالم والكائنات. وكل إنسان عاقل يفرده تعالى بالتقرب بأعماله وطاعاته إليه ، دون غيره ؛ لأنه إله يستحق العبادة لذاته ، وهو مصدر خير الإنسان ونفعه ومنع الضرر عنه.

وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ إلى قوله : ﴿قُلْ : إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ استدل به الشافعي على افتتاح الصلاة بهذا الذكر ، فإن الله أمر به نبيه ﷺ ، وأنزله في كتابه. وفي حديث علي رضي الله عنه : أن النبي ﷺ ، كان إذا افتتح الصلاة قال : ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً ، وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. ﴿إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ . إلى قوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾.

وروى مسلم أيضا هذا الحديث عن علي. وجاء فيه بعد قوله : وأنا من المسلمين : اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربي وأنا عبدك ، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي ، فاغفر لي ذنوبي جميعا ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدني

لأحسن الأخلاق ، لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيئها ، لا يصرف عني سيئها إلا أنت ، لبّيك وسعديك ، والخير كله في يديك ، والشر ليس إليك ، تباركت وتعاليت ، أستغفرك وأتوب إليك».

وأخرجه الدار قطني أيضا وقال في آخره : بلغنا عن النّضر بن شميل ، وكان من العلماء باللغة وغيرها قال : معنى قول رسول الله ﷺ : «والشر ليس إليك» : الشر ليس مما يتقرب به إليك.

ولم ير الإمام مالك إيجاب التوجه في الصلاة على الناس ، ولا قول : «سبحانك اللهم وبحمدك» والواجب عليهم التكبير ثم القراءة ، بدليل قوله ﷺ للأعرابي الذي علّمه الصلاة : «إذا قمت إلى الصلاة فكبّر ثم اقرأ» ولم يقل له : سبّح ، كما يقول أبو حنيفة ، ولا قل : وجهت وجهي ، كما يقول الشافعي. وقال لأبيّ : «كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة؟» قال : قلت : الله أكبر ، الحمد لله رب العالمين. فلم يذكر توجها ولا تسبيحا.

ويلاحظ أنه ليس أحد بأول المسلمين إلا محمدا ﷺ . فإن قيل : أوليس إبراهيم والنبيون قبله؟ أجاب القرطبي بثلاثة أجوبة :

الأول ـ أنه أول الخلق أجمع معنى ، كما في حديث أبي هريرة من قوله ﷺ : «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، ونحن أول من يدخل الجنة»وفي حديث حذيفة : «نحن الآخرون من أهل الدنيا ، الأوّلون يوم القيامة ، المقضي لهم قبل الخلائق».

الثاني ـ أنه أولهم لكونه مقدما في الخلق عليهم ، قال الله تعالى : ﴿**وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ**﴾ قال قتادة : إن النّبي ﷺ قال فيما رواه ابن سعد : «كنت أول الناس في الخلق ، وآخرهم في البعث» فلذلك وقع ذكره هنا مقدّما قبل نوح وغيره.

الثالث ـ أول المسلمين من أهل ملّته ، كما قال قتادة وابن العربي وغيرهما [١].

وأما قوله تعالى : ﴿قُلْ : أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فسبب نزوله أن الكفار قالوا للنّبي ﷺ : ارجع يا محمد إلى ديننا ، واعبد آلهتنا ، واترك ما أنت عليه ، ونحن نتكفّل لك بكل تباعة تتوقعها في دنياك وآخرتك ، فنزلت الآية. وهي استفهام يقتضي التقرير والتوبيخ.

ودل قوله تعالى : ﴿وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ على أنه لا يؤاخذ بما أتت من المعصية ، وركبت من الخطيئة سواها.

واستدل الشافعي بهذه الآية على أن بيع الفضولي لا يصح.

ورد المالكية على ذلك فقالوا : المراد من الآية تحمل الثواب والعقاب دون أحكام الدنيا ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾.

وبيع الفضولي موقوف عند المالكية والحنفية على إجازة المالك ، فإن أجازه جاز ، بدليل أن عروة البارقي قد باع للنّبي ﷺ واشترى وتصرف بغير أمره ، فأجازه النّبي ﷺ . وفي هذا الحديث دلالة على جواز الوكالة المتفق عليها بين العلماء ، وعلى أن الوكيل لو اشترى بالثمن المدفوع له كدينار أو درهم أكثر من المقدار المسمى ، كرطل لحم ، فاشترى به أربعة أرطال من تلك الصفة ، فإن الجميع يلزم الموكل إذا وافق الصفة ومن جنسها ؛ لأنه محسن ، وهو قول المالكية والصاحبين من الحنفية. وقال أبو حنيفة : الزيادة للمشتري. وحديث عروة حجة عليه.

ودل قوله تعالى : ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ على تقرير مبدأ المسؤولية الشخصية ، وهي مفخرة من مفاخر الإسلام الكبرى ، وللآية نظائر

---

(١) تفسير القرطبي : ٧ / ١٥٥

كثيرة مثل : ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور ٥٢ / ٢١] ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر ٧٤ / ٣٨] ﴿قُلْ : لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ ٣٤ / ٢٥]. وهذا المبدأ المقرر في هذه الآيات رد على ما كان عليه العرب في الجاهلية من مؤاخذة الرجل بجريرة أبيه وابنه وحليفه.

ويؤيد ذلك ما رواه أبو داود عن أبي رمثة قال : انطلقت مع أبي نحو النّبيﷺ ، فقال له : «ابنك هذا؟» قال : إي وربّ الكعبة ، قال : «حقا» قال : أشهد به ، قال : فتبسّم النّبي ﷺ ضاحكا من ثبت (استقرار) شبهي في أبي ، ومن حلف أبي علي ، ثم قال : «أما إنه لا يجني عليك ، ولا تجني عليه» وقرأ رسول اللهﷺ : ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾.

أما قوله تعالى : ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ﴾ [العنكبوت ٢٩ / ١٣] فهو مبيّن في الآية الأخرى في قوله تعالى : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ ، وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل ١٦ / ٢٥] أي أن المضل يتحمّل أيضا إثم أتباعه في الضلالة ، فمن كان إماما في الضلالة ودعا إليها وتبعه الناس عليها ، فإنه يحمل وزر من أضله من غير أن ينقص من وزر المضلّ شيء.

الاستخلاف في الأرض

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥)﴾

الإعراب :

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ دَرَجاتٍ﴾ مفعول ﴿رَفَعَ﴾ ، بتقدير حذف حرف الجر ، وتقديره : ورفع بعضكم فوق بعض إلى درجات ، فلما حذف حرف الجر اتصل الفعل به ، فنصبه.

المفردات اللغوية :

﴿خَلائِفَ الْأَرْضِ﴾ أي يخلف بعضكم بعضا فيها ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ﴾ بالمال والجاه وغير ذلك. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ليختبركم ﴿فِي ما آتاكُمْ﴾ أعطاكم ، ليظهر المطيع منكم والعاصي. ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ﴾ لمن عصاه ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ﴾ للمؤمنين ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

المناسبة :

بعد أن أخبر الله تعالى أن مصير جميع الناس إلى الله للحساب والجزاء ، ختم السورة بخاتمة رائعة هي أنهم يخلف بعضهم بعضا ، لتستمر الحياة ، ويتنافس الناس في الأعمال النافعة.

التفسير والبيان :

جعل الله الناس خلائف في الأرض ، يخلف بعضهم بعضا فيها ، بأن أهلك من قبلهم من القرون والأمم الخالية ، واستخلفهم لعمارة الأرض بعدهم ، وجعلهم أيضا خلفاء أرضه يملكونها ويتصرفون فيها : ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد ٥٧ / ٧].

ورفع بعضكم فوق بعض درجات في الغنى والفقر ، والشرف والجاه ، والعلم والجهل ، والخلق والشكل ، والعقل والرزق. وهذا التفاوت ليس ما عجزا وجهلا وإنما لأجل الابتلاء والاختبار فيما أعطاكم ، بأن يعاملكم معاملة المختبر لكم في ذلك ، فيختبر الغني مثلا في غناه ويسأله عن شكره ، والفقير في فقره ، ويسأله عن صبره.

ثم يكون الجزاء على العمل ، فقد يكون الإنسان مقصرا فيما كلف به ، أو قائما به ، فيأتي الجزاء تابعا للأعمال. ونظير الآية كثير في القرآن مثل : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ، وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ﴾ [محمد ٤٧ / ٣١].

وجاء في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها ، فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء».

وأمام الناس بعد هذا الابتلاء إما العقاب وإما الثواب : ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وفيه ترهيب وترغيب ، فإن حساب الله وعقابه سريع فيمن عصاه وخالف رسله ، وهو أيضا شديد العذاب ، لا يهمل وإن أمهل. ووصف العقاب بالسرعة ؛ لأن كل ما هو آت قريب ، والعقاب إما في الدنيا بإلحاق الضرر في النفس أو العقل أو العرض أو المال ، وإما في الآخرة بعذاب جهنم ، وقد يكون الأمران معا.

وهو تعالى غفور للتائبين رحيم بالمحسنين المؤمنين الذين اتبعوا الرسل فيما جاؤوا به من تكاليف ؛ إذ رحمته سبقت غضبه ، ووسعت كل شيء ، فجعل الحسنة بعشر أمثالها ، وقد يضاعفها أضعافا كثيرة لمن يشاء ، والسيئة بسيئة مثلها ، وقد يغفرها لمن تاب منها ، ويسترها في الدنيا فضلا وكرما وحلما.

قال ابن كثير : وكثيرا ما يقرن الله تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين : المغفرة والعذاب ، كقوله : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ﴾ [الرعد ١٣ / ٦] وقوله : ﴿نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر ١٥ / ٤٩ ـ ٥٠] إلى غير ذلك من

الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب ، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة ، والترغيب فيما لديه ، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها ، وتارة بهما لينجع في كل بحسبه [١].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية على ثلاثة أحكام :

الأول ـ الناس خلفاء الأرض ، يخلف بعضهم بعضا ، فكل جيل يخلف من قبله من الأمم الماضية والقرون السالفة.

الثاني ـ الناس في الدنيا درجات في الخلق والرزق ، والقوة ، والضعف ، والبسطة والفضل ، والعلم ، من أجل الابتلاء أي الاختبار ، فيظهر من الناس ما يكون غايته الثواب والعقاب ، ويختبر الموسر بالغنى ويطلب منه الشكر ، ويختبر المعسر بالفقر ويطلب منه الصبر.

الثالث ـ الله تعالى سريع العقاب ، شديد العذاب للكفار والعصاة ، غفور رحيم بالطائعين التائبين. وهذا ترهيب وتحذير من ارتكاب الخطيئة ، وترغيب في الطاعة والإنابة والتوبة.

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة مرفوعا أن رسول الله ﷺ قال : «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ، ما طمع بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ، ما قنط أحد من الجنة ، خلق الله مائة رحمة ، فوضع واحدة بين خلقه يتراحمون بها ، وعند الله تسعة وتسعون» وعنه أيضا قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لما خلق الله الخلق كتب في كتاب ، فهو عنده فوق العرش ، إن رحمتي تغلب غضبي».

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأعراف

مكية وهي مائتان وست آيات.

تسميتها :

سميت بسورة الأعراف لورود اسم الأعراف فيها ، وهو سور بين الجنة والنار ، قال ابن جرير الطبري : الأعراف جمع عرف ، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عرفا ، وإنما قيل لعرف الديك عرفا لارتفاعه. روى ابن جرير الطبري عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف ، فقال : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة ، وخلفت بهم حسناتهم عن النار ، فوقفوا هناك على السور حتى يقضي الله فيهم.

صفة نزولها :

هي مكية ، إلا ثمان آيات ، وهي قوله تعالى : ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ إلى قوله : ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾.

موضوعها :

نزلت هذه السورة لتفصيل قصص الأنبياء وبيان أصول العقيدة ، وهي كسورة الأنعام بل كالبيان لها ، لإثبات توحيد الله عَزَّوَجَلَّ ، وتقرير البعث والجزاء ، وإثبات الوحي والرسالة ، ولا سيما عموم بعثة النبي ﷺ.

ما اشتملت عليه السورة :

تضمنت سورة الأعراف التي هي من أطول السور المكية ما يلي من مبادئ العقيدة الإسلامية :

١ ـ القرآن كلام الله : افتتحت السورة بالتنويه بالقرآن العظيم معجزة الرسول الخالدة ، وأنه نعمة من الله ، وأنه يجب اتباع تعاليمه.

٢ ـ أبوّة آدم عليه السلام : الناس جميعا من أب واحد ، أمر الله الملائكة بالسجود له سجود تعظيم وتحية ، لا سجود عبادة وتقديس ، والشيطان عدو الإنسان.

وقد أعيد التذكير بقصة آدم مع إبليس ، وخروجه من الجنة ، وهبوطه إلى الأرض ، بسبب وسوسة الشيطان رمز الشر والباطل وصراعه مع الإنسان الذي يدعو إلى عبادة الله وإلى الخير والحق ، تأكيدا لما ذكر في سورة البقرة.

٣ ـ إثبات التوحيد : وهو الإقرار بوحدانية الله ، وعبادته وحده ، وإخلاص الدين له ، والاعتراف بحقه وحده في التشريع والتحليل والتحريم : ﴿**اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ**﴾.

٤ ـ الوحي والرسالة : الوحي ثابت يتضمن هنا إنزال القرآن على قلب النبي ﷺ ، وجوهره التكليف بالرسالة الإلهية ، وبعثة الرسل إلى الناس : ﴿**يا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي**﴾.

٥ ـ تقرير البعث والجزاء في عالم الآخرة : تضمنت السورة الكلام عن البعث والإعادة يوم القيامة : ﴿**كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**﴾ والجزاء والحساب وانقسام الناس بسببه إلى فرق ثلاث : فرقة المؤمنين الناجين أهل الجنة ، وفرقة الكافرين الهالكين أهل النار ، وأصحاب الأعراف وهو سور بين الجنة والنار.

٦ ـ أدلة وجود الله : أقام الله تعالى الأدلة الكثيرة على وجوده مثل خلق السموات والأرض في ستة أيام ، وتعاقب الليل والنهار ، وتسخير الشمس والقمر والنجوم بأمر الله ، وإخراج الثمرات من الأرض

٧ ـ التهديد بالإهلاك : أهلك الله الأمم الظالمة عبرة لغيرها ، وأنذر الناس بإنزال العذاب المماثل ، ورغب بالإيمان والعمل الصالح لإفاضته الخيرات والبركات من السماء والأرض على الأمة : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف ٧ / ٩٦] وكذا لإرث الأرض والاستخلاف على الآخرين : ﴿قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ : اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ ، يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٢٨].

٨ ـ قصص الأنبياء : أورد الله تعالى مجموعة من قصص الأنبياء : نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وموسى ، للتذكير بأحوال المكذبين أنبياءهم ، وللعظة والعبرة ، ومن أدلّها قصة موسى مع الطاغية فرعون ، وعقاب بني إسرائيل بالمسخ قردة وخنازير لما خالفوا أمر الله. وتشبيه عالم السوء بالكلب : ﴿وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها ، وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ، إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ، أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف ٧ / ١٧٦].

٩ ـ التنديد بعبادة الأصنام ، والتهكم بمن عبد ما لا يضر ولا ينفع ، ولا يبصر ولا يسمع ، من أحجار وهياكل ، وذلك كله لتقرير مبدأ التوحيد الذي ختمت به لسورة كما بدئت به.

اتباع القرآن الكريم

﴿المص (١) كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (٣)﴾

الإعراب :

﴿كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ كِتابٌ﴾ إما خبر ﴿المص﴾ على قول من جعله مبتدأ ، أي أنا الله أفصل ، وإما خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هذا كتاب ، والثاني أولى.

﴿لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ اللام متعلقة بأنزل ، وتقديره : كتاب أنزل إليك لتنذر به ، وفصل بينهما بقوله : ﴿فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾. ﴿وَذِكْرى﴾ إما مرفوع عطفا على ﴿كِتابٌ﴾ ، أو خبر مبتدأ تقديره : هذه ذكرى ؛ وإما منصوب عطفا على موضع ﴿لِتُنْذِرَ بِهِ﴾ أي إنذارا وذكرى ، أو عطفا على موضع هاء ﴿بِهِ﴾ ؛ وإما مجرور عطفا على ﴿لِتُنْذِرَ﴾ بمعنى : للإنذار والذكرى.

﴿قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ قَلِيلاً﴾ منصوب بفعل ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ ، و ﴿ما﴾ زائدة ، وتقدير النصب من وجهين : إما لأنه صفة لمصدر محذوف تقديره : تذكرون تذكرا قليلا ، أو لأنه صفة لظرف زمان محذوف ، تقديره : زمانا قليلا.

البلاغة :

﴿حَرَجٌ مِنْهُ﴾ أي ضيق من تبليغه ، ففيه حذف مضاف.

﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وصف الربوبية مع الإضافة لضمير المخاطبين فيه إشعار بمزيد اللطف بهم ، وترغيب في امتثال الأوامر.

المفردات اللغوية :

﴿المص﴾ تقرأ كما تقرأ الحروف الأبجدية ، أي ألف ، لام ، ميم ، صاد ، وقد ذكرت في أول سورة البقرة ومثلها آل عمران : أن هذه الحروف المقطعة يراد من افتتاح السور بها الإشارة إلى أن القرآن الكريم مركب من هذه الحروف العربية وأمثالها ، فهل يستطيع العرب المعروفون بالفصاحة

والبلاغة الإتيان بمثله ، وبما أنهم قد عجزوا ، فيدل ذلك على أنه كلام الله ، فحكمتها بيان إعجاز القرآن ، وتنبيه السامع إلى ما سيلقى إليه من أحكام.

والغالب أن السور التي بدئت بها وبذكر الكتاب مثل : «مريم والعنكبوت والروم وص ون» هي سور مكية لدعوة المشركين إلى الإسلام وإثبات النبوة والوحي. وأما السور المدنية التي بدئت بها كالبقرة وآل عمران (الزهراوين) فالدعوة فيها موجهة إلى أهل الكتاب.

﴿حَرَجٌ﴾ ضيق ﴿مِنْهُ﴾ من تبليغه ، مخافة أن يكذبك الناس ﴿لِتُنْذِرَ﴾ متعلق بأنزل أي للإنذار به ﴿وَذِكْرى﴾ تذكرة نافعة وموعظة حسنة مؤثرة. ﴿قَلِيلاً ما ما﴾ حرف يؤكد معنى القلة ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ أصله : تتذكرون.

التفسير والبيان :

بدأ الله تعالى هذه السورة المكية بالحروف الأبجدية المقطعة كغيرها من السور التي نزلت بمكة لإثبات النبوة والوحي.

هذا القرآن كتاب عظيم الشأن ، أنزل إليك يا محمد من عند ربك ، بقصد الهداية والخير ، ووصفه بالإنزال للدلالة على عظيم قدره وقدر من أنزل عليه. فلا يكن في صدرك ضيق من الإنذار به وتبليغه للناس ، وتذكير أهل الإيمان به ذكرى تنفعهم وتؤثر فيهم.

ومن المعلوم أن كل نبي ومصلح يلقى عادة إيذاء ومقاومة لدعوته ، وصدودا وإعراضا عن رسالته ، وما على الداعية إلا الصبر والمثابرة ومتابعة الطريق : ﴿فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف ٤٦ / ٣٥]. لذا كان المراد من هذا النهي شد العزيمة والاجتهاد في مقاومة الصعاب ، وتحمل الشدائد ، انتظارا لما عند الله على ذلك من وعد بالخير والفضل.

وبما أن هذا الكتاب ذو مهام خطيرة ، فقد خاطب الله تعالى العالم بقوله : اتبعوا أيها الناس ما أنزل إليكم من ربكم رب كل شيء ومليكه وخالقه ومدبره وراعيه ، فهو وحده صاحب الحق في التشريع وفرض العبادات والتحليل

والتحريم ؛ لأنه العليم بما هو مصلحة ، الخبير بما هو مضرة لكم ، فلا يشرع إلا الخير والسداد.

ولا تتبعوا من دون الله أولياء ، كأنفسكم أو الشياطين التي توسوس لكم بما فيه الضرر والخطر ، والضلال والفساد ، والشر والسوء ، والإيهام بأن الأصنام شركاء ذات تأثير عند الله ، مع أنها أحجار لا تضر ولا تنفع ، أي لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره ، فتكونوا قد عدلتم عن الحق إلى الضلال ، وعن حكم الله إلى حكم الشيطان والأهواء. ولكنكم تتذكرون قليلا ، وتنسون الواجب عليكم نحو ربكم ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف ١٢ / ١٠٣].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ القرآن كلام الله المنزل على نبيه محمد ﷺ ، والعقل يشهد بأن هذا لا يكون إلا بطريق الوحي من عند الله تعالى ؛ لأن الرسول ﷺ أمي لا يقرأ ولا يكتب ؛ ولأنه كلام معجز لا يصدر عن بشر ؛ ولأن الأحداث ومرور الأزمنة تثبت تفوقه وصلاحه لكل الأوقات ، وهذا لا يمكن أن يتصف به تشريع وضعي.

٢ ـ واجب النبي ﷺ وسائر الأنبياء تبليغ الوحي المنزل ، وأما النتائج والآثار وانتصار الدعوات الإلهية فمردها إلى الله تعالى. وقد سرّى الله عن نبيه فنهاه عن أن يضيق صدره لعدم الإيمان به ، فإنما عليه البلاغ ، وليس عليه سوى الإنذار به ، من شيء من إيمانهم أو كفرهم ، كقوله تعالى : ﴿فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ﴾ [الكهف ١٨ / ٦] وقوله : ﴿لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٣].

٣ ـ المقصود بالقرآن إنذار الكافرين والعصاة بسبب إعراضهم عنه ، وتذكير المؤمنين به ؛ لأنهم المنتفعون به.

٤ ـ الأمر العام لجميع الناس باتباع ملة الإسلام والقرآن ، وإحلال حلاله ، وتحريم حرامه ، وامتثال أمره ، واجتناب نهيه.

واتباع الرسول ﷺ داخل في ذلك ؛ لأن الله تعالى أمرنا باتباعه وطاعته بقوله : ﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل ١٦ / ٤٤] فدلت الآية على وجوب اتباع الكتاب والسنة.

٥ ـ تحريم اتباع أحد من الخلق في الدين ، كما فعل أهل الكتاب في طاعة رهبانهم : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [التوبة ٩ / ٣١].

٦ ـ ترك اتباع الآراء الشخصية أو الاجتهادية مع وجود النص الشرعي.

٧ ـ المنع من عبادة أحد مع الله ، واتخاذ من عدل عن دين الله وليا ، علما بأن كل من رضي مذهبا فأهل ذلك المذهب أولياؤه.

عاقبة تكذيب الرسل في الدنيا

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ (٤) فَما كانَ دَعْواهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا إِلاَّ أَنْ قالُوا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (٥)﴾

الإعراب :

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها ... كَمْ﴾ مبتدأ ، وجملة : ﴿أَهْلَكْناها﴾ صفة لقرية. و ﴿فَجاءَها بَأْسُنا﴾ خبر المبتدأ ، ومعنى : ﴿أَهْلَكْناها﴾ : قارب إهلاكنا إياها. حتى لا يكون تكرار مع قوله : ﴿فَجاءَها بَأْسُنا﴾. ويجوز أن تكون ﴿كَمْ﴾ في موضع نصب بفعل مقدر دل عليه : ﴿فَجاءَها بَأْسُنا﴾ ، لا أهلكنا لأن أهلكنا صفة ، والصفة لا تعمل في الموصوف.

و ﴿بَياتاً﴾ منصوب على المصدر في موضع الحال.

﴿أَوْ هُمْ قائِلُونَ﴾ جملة اسمية في موضع نصب على الحال من أهل القرية.

البلاغة :

﴿فَجاءَها﴾ على حذف مضاف تقديره : فجاء أهلها ، لقوله : ﴿أَوْ هُمْ قائِلُونَ﴾ ولا حاجة لتقدير المضاف الذي هو الأهل قبل ﴿قَرْيَةٍ﴾ أو قبل الضمير في ﴿أَهْلَكْناها﴾ لأن القرية تهلك كما يهلك أهلها.

﴿بَياتاً ...﴾ و ﴿قائِلُونَ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿وَكَمْ﴾ اسم يفيد التكثير ، وهي خبرية ﴿قَرْيَةٍ﴾ مكان اجتماع الناس ، أو الناس أنفسهم ﴿أَهْلَكْناها﴾ أردنا إهلاكها أو قاربنا إهلاكها. ﴿بَأْسُنا﴾ عذابنا ﴿بَياتاً﴾ ليلا ، البيات : الإغارة على العدو ليلا ، والإيقاع به على غرّة ﴿قائِلُونَ﴾ نائمون بالظهيرة ، من القيلولة : وهي استراحة نصف النهار ، وإن لم يكن معها نوم ، أي مرة جاءها ليلا ، ومرة جاءها نهارا. ﴿دَعْواهُمْ﴾ قولهم ودعاؤهم.

المناسبة :

لما أمر الله تعالى الرسول عليه الصلاة والسلام بالإنذار والتبليغ ، وأمر القوم بالقبول والاتباع ، ذكر في هذه الآية ما يترتب على المخالفة من عقاب ووعيد ، من طريق التذكير بإهلاك الأمم السابقة ، لمخالفتهم الرسل وتكذيبهم.

التفسير والبيان :

كثير من القرى وأهلها أهلكناهم بمخالفة رسلنا وتكذيبهم ، فجاءهم العذاب أو الهلاك مرة ليلا كقوم لوط ، ومرة نهارا كقوم شعيب ، أتاهم العذاب على غرّة أو حين القيلولة : وهي الاستراحة وسط النهار ، وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو ، كما قال تعالى : ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَهُمْ نائِمُونَ. أَوَأَمِنَ

أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى ، وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ٩٧ ـ ٩٨] وقال : ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ ، أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ. أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ ، فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ. أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ ، فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل ١٦ / ٤٥ ـ ٤٧].

فما كان قولهم عند مجيء العذاب ، إلا أن اعترفوا بذنوبهم ، وأنهم حقيقون بهذا ، أي لم يصدقوا بشيء عند الإهلاك إلا بالإقرار بأنهم كانوا ظالمين.

قال ابن جرير : في هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ من قوله : «ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم».

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآية إلى الآتي :

١ ـ إن عصيان أوامر الرسل وتكذيبهم موجب للخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة. وعذاب الدنيا يأتي في وقت الغفلة واللهو ، إما ليلا أو حين القيلولة نهارا.

٢ ـ كل مذنب حين توقيع العقاب الدنيوي عليه يعترف بجرمه ، ويندم على ما فرط منه.

٣ ـ المقصود بالآية الإنذار والتخويف والعبرة بما حل بالأمم السابقة ، فيحملهم الخوف على إصلاح أمورهم ، والإقلاع عن معاصيهم : ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد ١٣ / ١١].

٤ ـ الجزاء أو العقاب الإلهي في الدنيا حق وعدل ومطابق للواقع ، ولا يجيء العذاب إلا بعد العصيان وإعذار الناس من أنفسهم.

عاقبة الكفر في الآخرة والحساب الدقيق على الأعمال

﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَما كُنَّا غائِبِينَ (٧) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ (٩)﴾

الإعراب :

اللام في ﴿فَلَنَسْئَلَنَ﴾ و ﴿فَلَنَقُصَّنَ﴾ لام القسم ، المراد بها التوكيد.

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ : ﴿الْوَزْنُ﴾ مبتدأ ، و ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ خبره.

والحق : مرفوع من ثلاثة أوجه : إما لأنه صفة للوزن ، أو لأنه بدل من الضمير المرفوع في الظرف الذي هو خبر للمبتدأ ، أو لأنه خبر عن المبتدأ ، و ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ : ظرف ملغى منصوب بالوزن.

البلاغة :

﴿ثَقُلَتْ﴾ و ﴿خَفَّتْ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي الأمم عن إجابتهم الرسل ، وعملهم فيما بلغهم ﴿وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ عن الإبلاغ. ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾ لنخبرنهم عن علم بما فعلوه ﴿وَما كُنَّا غائِبِينَ﴾ عن إبلاغ الرسل ، والأمم الخالية فيما عملوا.

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ﴾ للأعمال يوم القيامة ﴿الْحَقُّ﴾ العدل ، صفة الوزن ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ﴾ بالحسنات ﴿فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون. ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ﴾ بالسيئات ﴿فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بتصييرها إلى النار ﴿يَظْلِمُونَ﴾ يجحدون آيات الله.

المناسبة :

بعد أن أنذر الله تعالى المخالفين رسلهم بعذاب الاستئصال في الدنيا ، أتبعه

بالتهديد بعذاب آخر يوم القيامة ، وأبان أنه يسأل جميع الناس عن أعمالهم ، سواء أهل العقاب وأهل الثواب. ولما بيّن في الآية الأولى أن من جملة أحوال القيامة : السؤال والحساب ، بيّن أن من جملة أحوال القيامة أيضا وزن الأعمال.

التفسير والبيان :

يسأل الله تعالى الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به ، ويسأل الرسل أيضا عن إبلاغ الرسالات.

فيسأل الله كل فرد من أفراد الأمم في الآخرة عن رسوله إليه وعن تبليغه لآياته ، ويسأل الرسل عن تبليغهم وعن مدى إجابة أقوامهم لهم ، وعما صدر منهم من إيمان أو كفر ، فهي مسئولية تضامنية عامة كما قال تعالى : ﴿**وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ ، فَيَقُولُ : ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [القصص ٢٨ / ٦٥] وقال : ﴿**يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ : ما ذا أُجِبْتُمْ؟ قالُوا : لا عِلْمَ لَنا ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ**﴾ [المائدة ٥ / ١٠٩] وقال : ﴿**يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي ، وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا؟**﴾ [الأنعام ٦ / ١٣٠] ويوضح هذه المسؤولية بين الراعي والرعية ما رواه أحمد والشيخان وأبو داود والترمذي عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع في مال سيده وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ، وهي مسئولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع في مال أبيه وهو مسئول عن رعيته ، فكلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته».

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية : ﴿**فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ، وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ**﴾ : نسأل الناس عما أجابوا المرسلين ، ونسأل المرسلين عما بلّغوا.

والمراد بالسؤال حينئذ تقريع الكفار وتوبيخهم ، فلما أقروا بأنهم كانوا ظالمين مقصرين ، سئلوا بعد ذلك عن سبب ذلك الظلم والتقصير.

والتوفيق أو الجمع بين قوله : ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ وبين قوله : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ﴾ [الرحمن ٥٥ / ٣٩] وقوله : ﴿وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص ٢٨ / ٧٨] : هو أن ليوم القيامة مواقف وأحوالا متعددة ، فقد يكون السؤال والجواب في بعضها دون بعض ، وقد يكون السؤال لأجل الاسترشاد والاستفادة ، وقد يكون لأجل التوبيخ والإهانة.

وقال الرازي : إن القوم لا يسألون عن الأعمال ؛ لأن الكتب مشتملة عليها ، ولكنهم يسألون عن الدواعي التي دعتهم إلى الأعمال ، وعن الصوارف التي صرفتهم عنها [١] ، أي الموانع التي حالت بينهم وبين التزام الأحكام الشرعية.

فلنخبرن عن علم ومعرفة وإحاطة تامة الرسل وأقوامهم بكل ما حدث منهم ، فلا يغيب عنا شيء قليل أو كثير ، وإن كان مثقال ذرة من خردل في صخرة أو في السموات أو في الأرض. قال ابن عباس في آية : ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾ : يوضع الكتاب يوم القيامة ، فيتكلم بما كان يعملون.

﴿وَما كُنَّا غائِبِينَ﴾ عنهم في وقت أو حال ، بل كنا معهم نسمع قولهم ، ونبصر فعلهم ، ونعلم ما يسرون وما يعلنون ، ونخبر العباد يوم القيامة بمنا قالوا وبما عملوا من قليل وكثير ، وجليل وحقير ؛ لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ، ولا يغفل عن شيء ، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور ، كما قال : ﴿وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها ، وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ

---

(١) تفسير الرازي : ١٤ / ٢٣

﴿الْأَرْضِ ، وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام ٦ / ٥٩] فقوله : ﴿وَما كُنَّا غائِبِينَ﴾ يعني كنا شاهدين لأعمالهم.

وهذا دليل على أن السؤال ليس للاستعلام والاستفهام عن شيء مجهول عن الله تعالى ، بل للإخبار بما حدث منهم توبيخا وتقريعا على تقصيرهم وإهمالهم.

والمخبر به هو المحاسب عنه ، وهو الذي يعقبه الجزاء. ثم بيّن تعالى قانون الحساب والجزاء فقال : ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ...﴾.

أي وزن الأعمال للرسل وأقوامهم والتمييز بين راجحها وخفيفها يوم القيامة يكون على أساس من الحق والعدل التام ، فلا يظلم تعالى أحدا ، كقوله : ﴿وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ ، فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ، وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها ، وَكَفى بِنا حاسِبِينَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٤٧] وقوله : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها ، وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء ٤ / ٤٠].

فمن ثقلت موازينه ، أي رجحت موازين أعماله بالإيمان والحسنات على السيئات ، فأولئك هم الفائزون بالجنة ، الناجون من العذاب. والموازين جمع ميزان أو موزون ، أي فمن رجحت أعماله الموزونة التي لها وزن وقدر وهي الحسنات أو ما توزن به حسناتهم.

ومن خفت موازين أعماله بسبب كفره وكثرة سيئاته ، فأولئك الذين خسروا أنفسهم ، إذ حرموها السعادة والفوز بالنعيم الأبدي ، وصيروها إلى عذاب النار.

والفريق الأول وهم المؤمنون على تفاوت درجاتهم في الأعمال هم المفلحون ، وإن عذاب بعضهم بقدر ذنوبه ، والفريق الثاني وهم الكافرون على تفاوت دركاتهم هم الخاسرون حقا.

وهذا المعنى مكرر في مواضع كثيرة في القرآن الكريم ، مثل قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ ، وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ ، فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ ، وَما أَدْراكَ ما هِيَهْ : نارٌ حامِيَةٌ﴾ [القارعة ١٠١ / ٦ ـ ١١].

والذي يوضع في الميزان يوم القيامة : هو الأعمال ، وهي وإن كانت أعراضا معنوية إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساما ، كما يروى عن ابن عباس. جاء في حديث البراء في قصة سؤال القبر : فيأتي المؤمن شاب حسن اللون ، طيّب الريح ، فيقول : من أنت؟ فيقول : أنا عملك الصالح» وفي حديث آخر أخرجه ابن ماجه والنسائي وابن خزيمة عن ابن مسعود : يتمثل المال الذي لم تؤدّ زكاته لصاحبه بصورة ثعبان شجاع أقرع له زبيبتان ، ثم يأخذ بلهزمتيه ويقول :أنا مالك ، أنا كنزك ، ونصه : «ما من أحد لا يؤدي زكاة ماله إلا مثّل له يوم القيامة شجاعا أقرع حتى يطوّق به عنقه ، ثم قرأ النّبي ﷺ : ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [آل عمران ٣ / ١٨٠] الآية.

والدليل على أن الأعمال هي التي توزن : ما أخرجه أبو داود والترمذي عن جابر مرفوعا : «توضع الموازين يوم القيامة ، فتوزن الحسنات والسيئات ، فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال حبة ، دخل الجنة ، ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال حبة ، دخل النار ، قيل : ومن استوت حسناته وسيئاته؟ قال : أولئك أصحاب الأعراف».

ونقل القرطبي عن ابن عمر أن التي توزن : صحائف أعمال العباد. وعقب عليه بقوله : وهذا هو الصحيح ، وهو الذي ورد به الخبر وهو : «أن ميزان بعض بني آدم كاد يخف بالحسنات ، فيوضع فيه رقّ مكتوب فيه : لا إله إلا الله ، فيثقل» فدل على وزن ما كتب فيه الأعمال ، لا نفس الأعمال ، وأن الله سبحانه يخفّف الميزان إذا أراد ، ويثقله إذا أراد بما يوضع في كفّتيه من الصحف التي فيها الأعمال.

وهل هناك ميزان حقيقة؟ اختلف العلماء ، فقال مجاهد والضحاك والأعمش : الوزن والميزان بمعنى العدل والقضاء ، وذكر الوزن ضرب مثل ؛ كما تقول : هذا الكتاب في وزن هذا وفي وزانه ، أي يعادله ويساويه ، وإن لم يكن هناك وزن ، أي أن المراد ظهور العدل التام في تقدير الجزاء على الأعمال.

وقال الجمهور : هناك وزن حقيقي وميزان ، لإظهار علم الله تعالى بأعمال عباده وجزائهم عليها. قال الزجّاج : أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان ، وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة ، وأن الميزان له لسان وكفّتان ، ويميل بالأعمال.

والأولى في الغيبيات أن نؤمن بها كما وردت في القرآن والسنة ، ونترك البحث عن صورتها وكيفيتها إلى الله عَزَّوَجَلَّ .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية الأولى : ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ ...﴾ على أن الكفار يحاسبون ، جاء في التنزيل : ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ﴾ [الغاشية ٨٨ / ٢٦] بل إن المسؤولية أو الحساب شيء عام لجميع العباد حتى الرسل : ﴿وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ وسؤال الرسل سؤال استشهاد بهم وإفصاح ؛ أي عن جواب القوم لهم ، وهو معنى قوله : ﴿لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٨] وسؤال القوم سؤال تقرير وتوبيخ وإفضاح ، فهذه الآية تدل على أنه تعالى يحاسب كل عباده ؛ لأنهم لا يخرجون عن أن يكونوا رسلا أو مرسلا إليهم.

وأما قوله تعالى في سورة القصص : ﴿وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [٧٨] فهو إذا استقروا في العذاب. والآخرة مواطن : موطن يسألون فيه للحساب ، وموطن لا يسألون فيه.

وقوله تعالى : ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾ يدل على أنه تعالى عالم بالعلم ، وأن قول من يقول : إنه لا علم لله قول باطل.

وقوله تعالى : ﴿وَما كُنَّا غائِبِينَ﴾ يدل على وجود المراقبة والمشاهدة الإلهية لأعمال الخلائق.

والخلاصة : هذه الآية تثبت وجود السؤال والحساب لكل العباد يوم القيامة.

وأرشدت الآية الثانية إلى وزن أعمال العباد بالميزان ، وهو الحق لخبر جابر المتقدم ، وقيل : وزن صحائف أعمال العباد ، قال القرطبي : وهذا هو الصحيح. والمراد من الميزان في قول مجاهد والضحاك والأعمش : العدل والقضاء ، والمراد به في رأي الجمهور : الميزان الحقيقي لإظهار علم الله تعالى بأعمال عباده وعدله في حسابهم وجزائهم عليها ، فمن رجحت حسناته على سيئاته فهو من الناجين ، ومن رجحت سيئاته على حسناته ، فهو من الهالكين المعذبين. قال ابن عباس : توزن الحسنات والسيئات في ميزان له لسان وكفّتان ؛ فأما المؤمن فيؤتى بعمله في أحسن صورة ، فيوضع في كفة الميزان ، فتثقل حسناته على سيئاته ؛ فذلك قوله : ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ويؤتى بعمل الكافر في أقبح صورة ، فيوضع في كفّة الميزان ، فيخف وزنه حتى يقع في النار.

كثرة نعم الله على عباده

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (١٠)﴾

الإعراب :

﴿مَعايِشَ﴾ مفعول ﴿جَعَلْنا﴾ وهي جمع معيشة ، وأصلها معيشة على وزن مفعلة ، إلا أنه نقلت كسرة الياء إلى العين ، ولا يجوز همزها ؛ لأن الياء فيها أصلية ، وأصلها في الواحد أن تكون متحركة. فإن كانت زائدة أصلها في الواحد السكون ، نحو كتيبة على فعلية ، همزت في الجمع ، فيقال : كتائب ، ونحو مدائن وصحائف وبصائر. وقد قرأ عبد الرحمن بن هرمز الأعرج «معائش» بالهمز على تشبيه الأصلية بالزائدة ، وهي قراءة ضعيفة قياسا.

المفردات اللغوية :

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ﴾ يا بني آدم ، أي جعلنا لكم فيها مكانا وقرارا ، أو ملكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها ﴿مَعايِشَ﴾ جمع معيشة ، وهي ما تكون به العيشة والحياة من المطاعم والمشارب وغيرها ﴿قَلِيلاً ما﴾ لتأكيد القلة ﴿تَشْكُرُونَ﴾ تلك النعم.

المناسبة :

بعد أن أمر الله تعالى الخلق بمتابعة الأنبياء عليهم السلام وبقبول دعوتهم ، ثم خوفهم بعذاب الدنيا : ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها﴾ وبعذاب الآخرة من وجهين : السؤال والحساب : ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ ..﴾ ووزن الأعمال : ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُ﴾ رغبهم في هذه الآية بقبول دعوة الأنبياء عليهم السلام عن طريق التذكير بكثرة نعم الله عليهم ، وكثرة النعم توجب الطاعة.

التفسير والبيان :

أقسم الله تعالى بقوله : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ﴾ ليظهر امتنانه على عبيده بكثرة إنعامه عليهم ، بأن جعل الأرض لهم مكانا وقرارا ، وسلطهم أو أقدرهم على التصرف فيها ، وأباح لهم منافعها ، وسخر لهم السحاب والمطر لإخراج أرزاقهم منها ، وجعل فيها رواسي وأنهارا.

وجعل لهم فيها معايش من وجهين : إما بخلق الله تعالى ابتداء كخلق الثمار وغيرها ، أو بطريق العمل والاكتساب واتخاذ الأسباب والاتجار فيها ، وكلاهما في الحقيقة إنما حصل بفضل الله وإقداره وتمكينه ، فيكون الكل إنعاما من الله تعالى ، وكثرة النعم لا شك أنها توجب الطاعة والانقياد.

ولكن أكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك : ﴿قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ﴾ أي أنتم قليلو الشكر على هذه النعم التي أنعمت بها عليكم ، كما قال : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوها ، إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم ١٤ / ٣٤] وقال :

﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ ٣٤ / ١٣].

وشكر النعمة : يكون بمعرفة الله المنعم معرفة تامة ، وحمده والثناء عليه بما هو أهله ، وأداء حقوق النعم وصرفها فيما خلقت من أجله ، بأداء حقوق الله تعالى ، واستعمال أعضاء الإنسان في مناحي الخير ورضوان الله وصرفها عن وجوه الشر والمعاصي ، وبالشكر بهذا المعنى تدوم النعم ويسعد الإنسان.

فقه الحياة أو الأحكام :

التذكير بنعم الله تعالى موجب للطاعة والانقياد عند أهل الإيمان ، لذا قلّ الشاكرون ، وكثر الجاحدون.

ومن أجلّ النعم تمكين الإنسان من الاستقرار في الأرض والتصرف بما فيها من خيرات ، والانتفاع بمنافعها الكثيرة ، وقد أثبتت رحلات الطيران والفضاء ، وصعود الإنسان إلى القمر وبعض الكواكب الأخرى في العصر العلمي الحديث مدى تعلق الإنسان بالأرض وحبّه لها وحنينه إليها عند بعده عنها.

ومن هذه النعم : تهيئة أسباب المعيشة في الأرض ؛ وتوفير ما يعاش به من ألوان المطاعم والمشارب وغيرها ؛ كما قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ [البقرة ٢ / ٢٩].

وهذا يدل على أنه لم تخلق هذه النعم إلا لخير الإنسان ، والحفاظ على الحياة البشرية ، فردا أو جماعة ، فأحرى بنا أن تكون هذه الحياة الجسدية أو المادية سببا أو عونا على تزكية الحياة الروحية وتطهير النفس ، وإعدادها للحياة الأخروية الأبدية.

فما أسعد أهل الإيمان والطاعة بالتزام الأوامر الإلهية ، واجتناب المعاصي والموبقات ؛ لأنه بالإيمان تطمئن النفس ؛ وبالطاعة تحفظ الأعضاء والطاقة الجسدية ، والكرامة الإنسانية.

وما أشقى أهل الكفر والفسوق والعصيان ؛ لأن الكفر يلازمه القلق والحيرة والاضطراب ، ولأن الفسق والمعصية يدمران الإنسان ماديا ومعنويا ، فيصبح حائر النفس ، ذليلا مهينا على الناس.

تكريم البشرية بالسجود لآدم

وإغواء الشيطان وطرده من الجنة

﴿وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قالَ ما مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) قالَ فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قالَ أَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (١٥) قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ (١٧) قالَ اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨)﴾

الإعراب :

﴿ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ما﴾ استفهامية مبتدأ ، ﴿مَنَعَكَ﴾ جملة فعلية خبر المبتدأ ، و ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ في موضع نصب بمنعك ، و ﴿أَلَّا﴾ صلة زائدة ، والتقدير : ما منعك أن تسجد ، كما في آية أخرى : ﴿ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَ﴾ [ص ٣٨ / ٧٥] وتزاد كثيرا في كلام العرب. وفائدة زيادتها توكيد معنى الفعل الذي تدخل عليه وتحقيقه. ﴿صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ منصوب بفعل ﴿لَأَقْعُدَنَ﴾ على تقدير حذف حرف الجر ، وتقديره : لأقعدن لهم على صراطك ، فحذف حرف الجر ، فاتصل الفعل به فنصبه.

﴿اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً﴾ مذءوما : حال من الضمير المرفوع في ﴿اخْرُجْ﴾.

البلاغة :

﴿خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ﴾ على حذف مضاف ، أي خلقنا أباكم وصورنا أباكم. ﴿ما مَنَعَكَ﴾ السؤال مع علمه تعالى بما منعه من السجود للتوبيخ ولإظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله وازدرائه بأصل آدم.

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ استعار الصراط لطريق الهداية الموصل إلى الجنة.

المفردات اللغوية :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ﴾ أوجدنا أباكم آدم بتقدير حكيم ﴿ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ﴾ أي صورناه وأنتم ذرأت في ظهره ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ سجود تحية واحترام ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ أبا الجن الذي كان بين الملائكة ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ لا زائدة لتأكيد السجود ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ حين الأمر ﴿فَاهْبِطْ مِنْها﴾ أي من الجنة ، وقيل : من السموات ، والهبوط : الانحدار والسقوط من مكان إلى ما دونه ، أو من منزلة إلى ما دونها ﴿أَنْ تَتَكَبَّرَ﴾ أن تجعل نفسك أكبر مما هي عليه ﴿مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ الذليلين من الصغار : وهو الذل والهوان.

﴿أَنْظِرْنِي﴾ أخرني وأمهلني ﴿مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ المؤخرين ، وفي آية أخرى : ﴿إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ أي يوم النفخة الأولى ﴿فَبِما أَغْوَيْتَنِي﴾ أي بإغوائك لي ، والإغواء : الإيقاع في الغواية : وهي ضد الرشاد ، والباء للقسم ، وجوابه : ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ أي لبني آدم ﴿صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي على الطريق الموصل إليك.

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ﴾ أي من كل جهة ، فأمنعهم من سلوكه ، قال ابن عباس : ولا يستطيع أن يأتي من فوقهم لئلا يحول بين العبد وبين رحمة الله تعالى. ﴿مَذْؤُماً﴾ معيبا أو ممقوتا ، من ذأم : عاب. ﴿مَدْحُوراً﴾ مبعدا مطرودا عن الرحمة ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ﴾ من الناس ، واللام : للابتداء أو موطئة للقسم وهو ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي منك بذريتك ومن الناس ، وفيه تغليب الحاضر على الغائب. وفي الجملة معنى جزاء ﴿لَمَنْ﴾ الشرطية أي من تبعك أعذبه.

المناسبة :

رغّب الله تعالى في الآيات السابقة بقبول دعوة الأنبياء عليهم السلام ، بالتخويف أولا ، ثم بالترغيب ثانيا بالتنبيه على كثرة نعم الله تعالى على الخلق ،

ثم أتبعه ببيان أنه خلق أبانا آدم وكرّمه بأمر الملائكة بالسجود له ، والإنعام على الأب إنعام على الابن ، لكن قد يتعرض الناس لوسوسة الشيطان وإغوائه ، ولا يليق بهم مع هذه النعم العظيمة التمرد والجحود.

التفسير والبيان :

ذكر الله تعالى قصة آدم عليه السلام مع قصة إبليس في سبعة مواضع في القرآن : في البقرة ، والأعراف (هذه السورة) والحجر ، وبني إسرائيل (الإسراء) والكهف ، وسورة طه ، وسورة ص.

ومضمون القصة هنا : التنبيه على تكريم آدم ، وبيان عداوة إبليس لذريته ، وحسده لهم ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه ، وليشكروا الله على نعمه العظيمة.

والمعنى : لقد خلقنا أيها الناس أباكم آدم من الماء والطين اللازب ، ثم صورناه بشرا سويا ، ونفخنا فيه من روحنا ، ثم أمرنا الملائكة بالسجود له سجود تحية.

وظاهر الآية يقتضي أن أمر الملائكة بالسجود لآدم وقع بعد خلق ذريته وتصويرهم ، وليس الأمر كذلك ، لذا تأول المفسرون الآية تأويلات أربعة ، اختار منها الرازي القول الأول وهو : خلقنا أباكم آدم وصورناه ، وبعد خلقه وتصويره أمرنا الملائكة بالسجود له ، ولم يتأخر هذا الأمر عن خلقنا وتصويرنا ، وذلك لأن آدم أصل البشر ، فالخطاب لنا من باب الكناية ، مثل قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة ٢ / ٩٣] أي ميثاق أسلافكم من بني إسرائيل في زمان موسى عليه السلام ، وقال تعالى مخاطبا لليهود في زمان محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿وَإِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة ٢ / ٤٩] ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً﴾ [البقرة ٢ / ٧٢] ، والمراد من جميع هذه الخطابات أسلافهم [١].

---

(١) تفسير الرازي : ١٤ / ٣٠

فالمراد بذلك كله آدم عليه السلام ، وهو اختيار ابن جرير الطبري أيضا [١]. قال ابن كثير : وإنما قيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر.

وروى الحاكم عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ﴾ أنه قال: «خلقوا في أصلاب الرجال ، وصوروا في أرحام النساء» وقال أي الحاكم : صحيح على شرطهما ولم يخرجاه. فيكون معنى الآية : ولقد خلقناكم في ظهر آدم عليه السلام أمثال الذّر ، ثم صورناكم أي في الأرحام.

قال القرطبي : الصحيح من الأقوال ما يعضده التنزيل ، قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون ٢٣ / ١٢] يعني آدم. وقال : ﴿وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها﴾ [النساء ٤ / ١] ثم قال : ﴿جَعَلْناهُ﴾ أي جعلنا نسله وذريته ﴿نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ﴾ [المؤمنون ٢٣ / ١٣] فآدم خلق من طين ثم صوّر وأكرم بالسجود ، وذريته صوّروا في أرحام الأمهات بعد أن خلقوا فيها وفي أصلاب الآباء [٢]. وهذا موافق لرأي الرازي والطبري ، ومبيّن تصوير بني آدم ، وهو جمع حسن بين الخلقين.

وأما السجود لآدم فمتفق عليه لقوله تعالى : ﴿ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ : اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ أي وبعد إتمام خلق آدم أمرنا الملائكة بالسجود له سجود تحية وتكريم له ولذريته لا سجود عبادة ؛ إذ لا معبود إلا الله وحده ، وذلك حتى يعرفوا نعم الله عليهم ، فيشكروها ، وليحذروا إبليس ووساوسه بعد ما فعله قديما.

فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس الذي كان من الجن لا من الملائكة أبى واستكبر ، ولم يكن مع الساجدين.

فسأله الله : ما منعك ألا تسجد؟ أي ما منعك وحال بينك وبين السجود؟

---

(١) تفسير الطبري : ٥ / ٩٤

(٢) تفسير القرطبي : ٧ / ١٦٩

ولا هنا زائدة للتأكيد بدليل اية أخرى : ﴿ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ [ص ٣٨ / ٧٥].

فأجاب معتذرا متعللا : إني أنا خير منه ، خلقتني من النار ، وخلقته من الطين ، والنار بما فيها من خاصية الارتفاع والعلو والنور أشرف من الطين الذي يتسم بالركود والخمود والذبول ، والشريف لا يعظّم من دونه ، وإن خالف أمر ربه. هذا قياس إبليس ، وهو أول قياس ، لكنه باطل ، إذ لا يستدل على الخيرية بالطبيعة المادية ، وإنما تكون الخيرية بالمعاني والخصائص المفيدة فائدة أكثر ، وقد حبا الله آدم من العلوم والمعارف والتكريم ما لا يجهله إبليس نفسه.

وهذا كله مبني على أن الأمر بالسجود أمر تكليف ، وأنه قد وقع حوار أو سؤال وجواب بين الله وإبليس ، وما علينا إلا الإيمان بما دل عليه ظاهر الكتاب ، وندع أمر الغيب والحقيقة لله عَزَّوَجَلَّ .

وكان جزاء المخالفة وعصيان الأمر الإلهي أنه تعالى أمر إبليس بالهبوط من الجنة التي خلقه الله فيها ، وكانت على مرتفع من الأرض ؛ لأن الجنة مكان المخلصين المتواضعين ، لا مكان المتمردين المتجبرين ، لذا قال تعالى : ﴿فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها﴾ أي فما ينبغي لك أن تتكبر في هذه الجنة المعدة للكرامة والإسعاد ، لا للتكبر والشقاء والعصيان.

فاخرج من هذا المكان ، إنك من الذليلين الحقيرين ، معاملة له بنقيض مقصوده ، ومكافأة لمراده بضده.

فاستدرك اللعين وسأل الإمهال إلى يوم الدين ، قال : ﴿أَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي أمهلني إلى يوم يبعث فيه آدم وذريته ، فأكون معهم حال الحياة للأخذ بالثأر من طريق الإغواء ، وأشهد انقراضهم وبعثهم.

فأجابه الله إلى مطلبه ، فقال له : ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ المؤجلين إلى وقت النفخة الأولى حيث تصعق الخلائق ، وهي نفخة الفزع لقوله تعالى :

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ، فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ﴾ [النمل ٢٧ / ٨٧] وتسمى أيضا نفخة الصعق لقوله تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ، إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى ، فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزّمر ٣٩ / ٦٨].

أي إن إبليس يموت عقب النفخة الأولى ، كما قال تعالى : ﴿فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ ، وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً﴾ [الحاقة ٦٩ / ١٣ ـ ١٤].

ولما أنظر إبليس إلى يوم البعث واستوثق بذلك ، أخذ في المعاندة والتمرد ، فقال : ﴿فَبِما أَغْوَيْتَنِي ..﴾ أي كما أغويتني أو أضللتني. لأقعدن لعبادك الذين تخلقهم من ذرية آدم على طريق الحق وسبيل النجاة والسعادة ، ولأضلنهم عنها ، لئلا يعبدوك ولا يوحدوك ، بسبب إضلالك إياي ، وذلك بأن أزيّن لهم طرقا أخرى كلها ضلال وانحراف.

ثم لا أدع جهة من الجهات الأربع (اليمين والشمال والأمام والخلف) إلا أتيتهم منها ، مترصدا لهم كما يترصد قاطع الطريق للمارّة.

ولا تجد أكثرهم شاكرين لك نعمتك ، ولا مطيعين أوامرك ، وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم ، وقد وافق في هذا الواقع ، وأصاب ما هو حاصل ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ، فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ ، وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ ٣٤ / ٢٠ ـ ٢١].

ثم أكد تعالى عليه اللعنة والطرد والإبعاد والنفي عن محل الملأ الأعلى بقوله : ﴿اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً﴾ أي اخرج من الجنة معيبا ممقوتا ، مبعدا مطرودا من رحمة الله.

وأقسم الله على أن من تبعك من بني آدم فيما تزينه له من الشرك والفسوق والمعصية ، لأملأن جهنم منك ومن أتباعك أجمعين. وذلك كما في آية أخرى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص ٣٨ / ٨٥] وآية : ﴿قالَ : اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ ، فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ جَزاءً مَوْفُوراً. وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ، وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ، وَشارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ ، وَعِدْهُمْ وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً. إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ ، وَكَفى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء ١٧ / ٦٣ ـ ٦٥].

واستثنى الله تعالى من إغوائه عباده المخلصين ، فقال تعالى : ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ ، إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ﴾ [الحجر ١٥ / ٤٢] وقال أيضا : ﴿قالَ : فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص ٣٨ / ٨٢ ـ ٨٣].

والمراد من كل هذا بيان طبيعة البشر وطبيعة الشيطان ، واختيارهما في أعمالهما.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ تكريم النوع الإنساني بسجود الملائكة لأصل الإنسان وهو آدم أبو البشر.

٢ ـ الخلق والتصوير لله وحده ، ولا يستطيع أحد من البشر فعل شيء منهما. والخلق لغة : التقدير ، وتقدير الله : عبارة عن علمه بالأشياء ومشيئته لتخصيص كل شيء بمقداره المعين. والتصوير : عبارة عن إثبات صور الأشياء في اللوح المحفوظ.

٣ ـ رفض إبليس أمر الله بالسجود لآدم ، تكبرا منه واستعلاء ؛ لأنه رأى أن النار المخلوق منها أشرف من الطين الذي خلق منه آدم ، لعلوها وصعودها

وخفتها ، ولأنها جوهر مضيء. قال ابن عباس والحسن البصري وابن سيرين : أول من قاس إبليس ، فأخطأ القياس ، فمن قاس الدين برأيه قرنه الله مع إبليس. وقال ابن سيرين : وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس أي المقاييس الفاسدة التي منها تفضيل النار على الطين ، وهو خطأ ، لما يأتي :

أما جوهر الطين ففيه الرزانة والسكون ، والوقار والأناة ، والحلم ، والحياء ، والصبر ، وهذا ما دعا آدم عليه السلام إلى التوبة والتواضع والتضرع.

والنار سبب للعذاب ، وهي عذاب الله لأعدائه ، وليس التراب سببا للعذاب. وذلك يدل على أن التراب أفضل من النار.

إن قياس إبليس هو القياس الفاسد المصادم للنص ، أما القياس الصحيح الموافق للنص فيجب العمل به شرعا ؛ لانسجامه مع النصوص. قال الطبري : الاجتهاد والاستنباط من كتاب الله ، وسنة نبيه ﷺ ، وإجماع الأمة ، هو الحق الواجب ، والفرض اللازم لأهل العلم. وبذلك جاءت الأخبار عن النبي ﷺ ، وعن جماعة الصحابة والتابعين. وقال أبو تمام المالكي : أجمعت الأمة على القياس ؛ فمن ذلك أنهم أجمعوا على قياس الذهب والورق في الزكاة.

٤ ـ إن جزاء الرفض لأمر الله من إبليس استوجب طرده من الجنة ، ذليلا معيبا ممقوتا مطرودا مبعدا من رحمته ، قال ﷺ فيما رواه أبو نعيم عن أبي هريرة : «من تواضع لله رفعه الله» وقال أيضا فيما رواه الديلمي في الفردوس : «من تكبر وضعه الله» وقال بعضهم : لما أظهر الاستكبار ألبس الصغار.

٥ ـ سأل إبليس النظرة والإمهال إلى يوم البعث والحساب ، وطلب ألا يموت ؛ لأن يوم البعث لا موت بعده ، فأنظره الله إلى النفخة الأولى حيث يموت الخلق كلهم. وكان طلب الإنظار إلى النفخة الثانية ، حيث يقوم الناس لرب العالمين ؛ فأبى الله ذلك عليه. لكن إنظار الله تعالى إبليس إلى يوم القيامة

لا يقتضي إغراءه بالقبيح ؛ لأنه تعالى كان يعلم منه أنه يموت على أقبح أنواع الكفر والفسق ، سواء أعلمه بوقت موته أو لم يعلمه بذلك ، فلم يكن ذلك الاعلام موجبا إغراءه بالقبيح.

٦ ـ للشيطان دور في إغواء بعض الناس من طريق الوسوسة لهم ، والإغواء : إيقاع الغي في القلب ، والغي : هو الاعتقاد الباطل. ودل قوله تعالى : ﴿فَبِما أَغْوَيْتَنِي﴾ على أن الله تعالى أضلّ إبليس وخلق فيه الكفر ، لذا نسب الإغواء إلى الله تعالى ، وهو الحقيقة ومذهب أهل السنة ، فلا شيء في الوجود إلا وهو مخلوق له ، صادر عن إرادته تعالى.

٧ ـ المراد من قوله تعالى : ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ : أن الشيطان يواظب على الإفساد مواظبة لا يفتر عنها. وتدل هذه الآية على أن إبليس كان عالما بالدين الحق ، والمنهج الصحيح ؛ لأن صراطك الله المستقيم هو دينه الحق.

٨ ـ محاولات إغواء الشياطين لا تقتصر على وجه واحد ، وإنما تأتي من كل أوجه الحياة ، فينبغي الحذر من الشيطان ، لذا ورد في الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها ، كما روى الحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يدعو : «اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي ، اللهم استر عوراتي ، وآمن روعاتي ، واحفظني من بين يدي ومن خلفي ، وعن يميني وعن شمالي ، ومن فوقي ، وأعوذ بك اللهم أن أغتال من تحتي» أي من الخسف.

٩ ـ دلت آية : ﴿اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ ..﴾ على أن التابع والمتبوع تملأ جهنم منهما ، وهذا يشمل الكافر والفاسق ، مما يدل قطعا على دخول الفاسق النار ، والمذكور في الآية أنه تعالى يملأ جهنم ممن تبعه ، وليس في الآية أن كل من تبعه يدخل جهنم. وتدل الآية أيضا على أن جميع أصحاب البدع والضلالات يدخلون جهنم ؛ لأنهم كلهم تابعون لإبليس.

قصة آدم في الجنة وخروجه منها

﴿وَيا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما وَقالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ (٢٠) وَقاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاَّهُما بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَناداهُما رَبُّهُما أَلَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (٢٣) قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ (٢٤) قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَفِيها تَمُوتُونَ وَمِنْها تُخْرَجُونَ (٢٥)﴾

الإعراب :

﴿ما نَهاكُما لَهُمَا﴾ نافية ﴿عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ الشَّجَرَةَ﴾ صفة لهذه ، وهي اسم جنس ، وأسماء الإشارة توصف بالأجناس.

﴿إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ لَكُما﴾ متعلق بمحذوف ، وتقديره : ناصح لكما لمن الناصحين. ولا يجوز أن يكون متعلقا بالناصحين ؛ لأن الألف واللام فيه بمنزلة الاسم الموصول ، واسم الفاعل صلة له ، والصلة لا تعمل في الموصول ، ولا فيما قبله. فإن جعلت الألف واللام للتعريف ، لا بمعنى الذين ، جاز أن يتعلق بالناصحين ، وهو قول أبي عثمان المازني. ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَمْ﴾ : تردّ الفعل المستقبل إلى معنى الماضي ، ودخلت إن الشرطية على ﴿لَمْ﴾ لترد الفعل إلى أصله وهو الاستقبال ؛ لأن ﴿إِنْ﴾ الشرطية ترد الماضي إلى معنى الاستقبال ، فلما صار لفظ الفعل المستقبل بعد ﴿لَمْ﴾ بمعنى الماضي ، ردّتها إلى الاستقبال ؛ لأنها ترد الماضي إلى الاستقبال.

البلاغة :

﴿وَيا آدَمُ﴾ فيه إيجاز بالحذف ، أي وقلنا : يا آدم.

﴿وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ عبر عن الأكل بالقرب مبالغة في النهي عن الأكل منها.

﴿وَقاسَمَهُما إِنِّي لَكُما﴾ أكد الخبر بالقسم وبأنّ واللام لدفع شبهة الكذب.

﴿فِيها تَحْيَوْنَ وَفِيها تَمُوتُونَ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿اسْكُنْ أَنْتَ﴾ تأكيد للضمير في ﴿اسْكُنْ﴾ ليعطف عليه ﴿وَزَوْجُكَ﴾ هي حواء ﴿وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ بالأكل منها ، وهي الحنطة. ﴿فَوَسْوَسَ﴾ الوسوسة : الصوت الخفي المكرر ، والمراد منها هنا : ما يجده البشر في أنفسهم من الخواطر التي تزين ما يضر ﴿وُورِيَ﴾ من المواراة أي ما غطّي وستر ﴿مِنْ سَوْآتِهِما﴾ السوءة : ما يسوء الإنسان ويؤلمه ، وسوأة الإنسان : عورته ؛ لأنه يسوؤه ظهورها ، قال العلماء : في الآية دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور. وأنه مستهجن طبعا وعرفا ﴿أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ﴾ أي الذين لا يموتون أبدا ؛ لأن الخلود لازم عن الأكل منها ، كما في آية أخرى : ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ ، وَمُلْكٍ لا يَبْلى﴾ [طه ٢٠ / ١٢٠].

﴿وَقاسَمَهُما﴾ أقسم لهما بالله بكل تأكيد على ذلك حتى خدعهما ، وقد يخدع المؤمن بالله.

قال الألوسي : وإنما عبّر بصيغة المفاعلة للمبالغة ؛ لأن من يباري أحدا في فعل يجدّ فيه. ﴿فَدَلَّاهُما﴾ حطهما عن منزلتهما في الجنة ﴿بِغُرُورٍ﴾ بخداع منه بالباطل ﴿ذاقَا الشَّجَرَةَ﴾ أي أكلا منها ﴿بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما﴾ أي ظهر لكل منهما قبله ودبره ، وسمي كل منهما سوأة ؛ لأن انكشافه يسوء صاحبه ، كما ذكر ﴿وَطَفِقا﴾ أخذا وشرعا ﴿يَخْصِفانِ عَلَيْهِما﴾ يلزقان ويرقعان من ورق الجنة ورقة فوق ورقة ليستترا به ﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ بين العداوة. والاستفهام بقوله : ﴿أَلَمْ أَنْهَكُما﴾ للتقرير.

المناسبة :

الآيات استمرار في الكلام عن النشأة الأولى للبشر ودور شياطين الجن في إغواء الناس. والقصد من القصة إرشاد الناس إلى طرق الهداية ، وتحذيرهم من وساوس الشياطين ، فإن الشيطان بسبب حسده لآدم وحواء سعى في المكر

والوسوسة والخديعة ، ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن. وقد ذكرت هذه القصة في القرآن في سبعة مواضع ، كما بينت في الآيات السابقة.

وكيف وسوس الشيطان لآدم ، الذي كان في الجنة ، وإبليس أخرج منها؟ قال الحسن البصري : كان يوسوس من الأرض إلى السماء وإلى الجنة بالقوة الفوقية التي جعلها الله تعالى فيه.

التفسير والبيان :

أباح الله تعالى لآدم عليه السلام وزوجه حواء المخلوقة منه سكنى الجنة ، وأن يأكلا من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة ، فالأمر هنا أمر إباحة لا أمر تكليف.

وتلك الجنة في رأي الجمهور هي جنة الخلد ، وقيل : جنة من جنان السماء ، أو جنة من جنان الأرض.

وخاطب الله آدم أولا بطريق الوحي ، ثم خاطبه مع زوجته ، لتساويهما في الأكل من ثمار الجنة.

وما روي في الصحيحين عن أبي هريرة من قوله صلى الله عليه وسلم : «فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج» من باب التمثيل المراد به المنع من تقويم المرأة بالشدة والغلظة في المعاملة.

وأباح الله بقوله : ﴿**فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما**﴾ لهما الأكل من مختلف ثمار الجنة ، ونهاهما عن الأكل من شجرة خاصة لم يعينها لنا في كتابه ، وقد علل النهي بأنهما إذا أكلا منها كانا من الظالمين لأنفسهما ، بفعلهما ما يعاقبان عليه. وهذا امتحان من الله في إباحة الكثير وتحريم القليل.

فحسدهما الشيطان ، وسعى في المكر والوسوسة والخديعة ، ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن ، فزيّن لهما ما يضرهما ويسوؤهما ، بأن تمثّل لهما

وكلّمهما ، لتنكشف عورتهما التي يؤثران سترها ، أي لتكون عاقبة ذلك ظهور العورة. قال الحسن البصري : كان يوسوس من الأرض إلى السماء وإلى الجنة بالقوة الفوقية التي جعلها الله تعالى له. وهذا هو الرد على أن إبليس أخرج من الجنة وكان آدم فيها.

وقال كذبا وافتراء : ما نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا لأحد أمرين : أن تكونا ملكين أو خالدين هاهنا لا تموتان وتبقيان في الجنة ساكنين ، أي لئلا تكونا ملكين [١] أو خالدين في الجنة ، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلك كقوله : ﴿**قالَ : يا آدَمُ ، هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلى**﴾ [طه ٢٠ / ١٢٠]. وقال الزمخشري : إلا كراهة أن تكونا ملكين.

والسبب في اختيار هاتين الخاصتين : أن للملائكة مزايا وخصائص كالقوة والبطش ، وطول البقاء ، وعدم التأثر بأحوال الكون ، وأن الخلود في الجنة بدون موت البتة هو أمل الإنسان. أي أن إبليس أوهمهما أن الأكل من هذه الشجرة : إما ليتصف الآكل بصفات الملائكة ، أو لتحقيق الخلود في الحياة.

وفي هذه إشارة إلى تفضيل الملائكة على آدم.

ثم حلف لهما بالله وأقسم قسما مؤكدا : ﴿**إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ**﴾ فإني من قبلكما هاهنا وأعلم بهذا المكان.

وقوله : ﴿**قاسَمَهُما**﴾ من باب المفاعلة المراد بها أحد الطرفين ، بقصد المبالغة وتغليظ القسم ، فإنه حلف لهما بالله على ذلك ، حتى خدعهما ، وقد يخدع المؤمن بالله.

---

(١) وهذا مثل قوله تعالى : يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا [النساء ٤ / ١٧٦] أي لئلا تضلوا ، وقوله : وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ [النحل ١٦ / ١٥ ولقمان ٣١ / ١٠] أي لئلا تميد بكم.

﴿فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ﴾ أي ما زال يخدعهما ويغريهما بالترغيب في الأكل من الشجرة ، وبالوعد ، وبالقسم بالأيمان المغلّظة ، حتى نسيا أن الله أخبرهما أنه عدو لهما ، وتمكن من زحزحتهما وإسقاطهما من منزلتهما عند الله بسبب طاعتهما ، بما غرهما به من اليمين وزيّن لهما ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ ، فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه ٢٠ / ١١٥]. ومعنى ﴿فَدَلَّاهُما﴾ فنزلهما إلى الأكل من الشجرة بما غرهما به من القسم بالله.

فلما ذاقا ثمرة الشجرة ، ظهرت عوراتهما ، وزال النور عنهما ، وشرعا يجعلان ورقة على ورقة من ورق أشجار الجنة العريض لستر العورة.

وناداهما ربهما معاتبا لهما وموبخا بقوله : ﴿أَلَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ أي ألم أنهكما من الاقتراب من هذه الشجرة والأكل منها ، وأقل لكما : إن الشيطان ظاهر العداوة لكما ، فإن أطعتماه أخرجكما من دار النعيم وهي الجنة إلى دار الدنيا وهي دار الشقاء والتعب في الحياة ، فاحذروا الشيطان كما قال : ﴿فَقُلْنا : يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ ، فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ ، فَتَشْقى﴾ [طه ٢٠ / ١١٧].

﴿قالا : رَبَّنا ظَلَمْنا ..﴾ أي قالا : ربنا إننا ظلمنا أنفسنا بمخالفة أمرك وطاعة الشيطان عدوك وعدونا ، وإن لم تستر ذنبنا وترض عنا وتقبل توبتنا ، لنكونن من الذين خسروا الدنيا والآخرة : ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ ، فَتابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة ٢ / ٣٧].

ثم خاطب الله آدم وحواء وإبليس بقوله : ﴿قالَ : اهْبِطُوا ..﴾ أي أنزلوا من هذه الجنة ، بعضكم عدو لبعض ، يعني أن العداوة ثابتة بين الجن والإنس لا تزول البتة ، فإبليس يعاديهما أي آدم وحواء وهما يعاديانه. فعلى الإنسان أن يحذر من وساوس الشيطان ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ ، فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر ٣٥ / ٦].

والإخراج من الجنة كان هو العقاب على تلك المعصية ، أما العقاب الأخروي فقد عفا الله عنه بالتوبة التي أذهبت أثره وقبلها الله تعالى ، كما قال : ﴿وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى ، ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ ، فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى﴾ [طه ٢٠ / ١٢١ ـ ١٢٢].

ثم أبان تعالى أجل الإنسان في الدنيا فقال : ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ..﴾ أي لكم قرار وأعمار مضروبة إلى آجال معلومة ، قد جرى بها القلم ، وأحصاها القدر ، وسطرت في الكتاب الأول ، فيها تحيون مدة العمر المقدر لكل منكم ، وفيها تموتون حين انتهاء الأجل ، ومنها تخرجون إلى البعث والجزاء بعد الموت حينما يريد الله : ﴿مِنْها خَلَقْناكُمْ ، وَفِيها نُعِيدُكُمْ ، وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى﴾ [طه ٢٠ / ٥٥].

فقه الحياة أو الأحكام :

بعد إخراج إبليس من موضعه في السماء ، قال الله لآدم : اسكن أنت وحواء الجنة ، وهو أمر تعبد ، أو أمر إباحة وإطلاق ، من حيث إنه لا مشقة فيه ، فليس هو أمرا تكليفيا ، ولا يتعلق به تكليف.

وهذا دليل على أن سكنى آدم في الجنة كانت في مبدأ حياتهما ، ثم أمرا بالنزول إلى الأرض ، بسبب كيد الشيطان وحسده ووسوسته ، وكان أخطر سلاح استخدمه هو تغريرهما بالحلف المؤكد بالله ، فانخدعا ، وقد يخدع المؤمن بالله.

وقد فهم من آية : ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ﴾ تفضيل الملائكة على البشر ، كما في آيات كثيرة منها : ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام ٦ / ٥٠] ومنها : ﴿وَلَا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء ٤ / ١٧٢] وقال الكلبي : فضلوا ـ أي المؤمنون ـ على الخلائق كلهم ، غير طائفة من الملائكة : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملك الموت ؛ لأنهم من جملة رسل الله.

واختار ابن عباس والزجاج وكثير من العلماء تفضيل المؤمنين على الملائكة. وأما هذه الآية أو الواقعة : ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ﴾ فكانت قبل النبوة.

ودلت آية : ﴿لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما﴾ على أن كشف العورة من المنكرات ، وأنه لم يزل مستهجنا في الطباع ، مستقبحا في العقول ، وأن الله أوجب ستر العورة ، ولذلك ابتدر آدم وحواء إلى سترها ، فمن دعا إلى كشف العورات سواء عند الرجال أو النساء فقد هتك ستر الحياء ، وأعاد الإنسان إلى البدائية الهمجية ، وجعل المرأة سلعة للمتعة والتسلية ولم يرع صون العرض الذي أمر به الدين واقتضته الفطرة السليمة ، وكان صنيعه مثل الشيطان : ﴿يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما﴾.

وكان ترغيب إبليس لآدم في مجموع الأمرين : الاتصاف بصفات الملائكة ، والخلود من غير موت البتة.

وكانت عقوبة آدم وحواء على المخالفة هي الهبوط إلى الأرض ، أما عقاب الآخرة فقد أسقطه الله تعالى بالعفو عنهما وبقبول توبتهما. وقد اختار الرازي أن هذا الذنب إنما صدر عن آدم قبل النبوة.

وأما آية : ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ..﴾ فدلت على أمرين :

١ ـ وجود العداوة الدائمة بين الإنسان والشيطان ، ولما كانت العمدة في العداوة آدم وإبليس ، قال تعالى في سورة طه : ﴿اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً﴾ [١٢٣].

٢ ـ توقيت بقاء الإنسان في الدنيا ، بحسب الأجل من الميلاد إلى الوفاة ، وفي الأرض يعيش الإنسان وذلك نعمة عظمي ، لأنها موضع قرار واستقرار ، واستمتاع بزخارف الحياة ، وتنعم بمختلف نعم الحياة ، ثم يأتي الموت ، ثم يأتي البعث والإخراج من القبور ، ثم يكون الحساب والجزاء في عالم الآخرة.

ومغزى هذه القصة كما أشرت في المناسبة : هو إرشادنا إلى ما فطرنا عليه ، وإلى ما يجب علينا من شكر الله وطاعته ، وتنفيذ أوامره ، واجتناب معاصيه ، والحذر من وساوس الشيطان.

فإذا عرفنا غرائزنا وميولنا ، وعرفنا خطر عدونا وهو الشيطان ، وربّينا أنفسنا على تذكر عهد الله وميثاقه بأن نعبده وحده دون سواه ، ونزكي النفس بالأخلاق والآداب الحسنة ونعمل على تهذيبها ، كنا سعداء الدنيا والآخرة ، وأدينا رسالتنا في هذه الحياة.

توفير حوائج الدنيا لبني آدم وتحذيرهم من فتنة الشيطان

﴿يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (٢٧)﴾

الإعراب :

﴿**وَلِباسُ التَّقْوى**﴾ قرئ بالنصب عطفا على قوله : ﴿**وَرِيشاً**﴾ أي أنزلنا ريشا ولباس التقوى ، وقرئ بالرفع لخمسة أوجه : الرفع على أنه مبتدأ ثان ، و ﴿**خَيْرٌ**﴾ خبره ، والمبتدأ الثاني وخبره خبر عن المبتدأ الأول وهو ﴿**ذلِكَ**﴾. أو يكون ﴿**ذلِكَ**﴾ فصلا ، و ﴿**خَيْرٌ**﴾ خبر المبتدأ ، أو يكون ﴿**ذلِكَ**﴾ وصفا للباس التقوى ، أو يكون بدلا ، أو عطف بيان ، كأنه قال : ولباس التقوى المشار إليه خير. ورأى الزمخشري أنه مبتدأ ، وخبره إما جملة ﴿**ذلِكَ خَيْرٌ**﴾ وإما المفرد وهو ﴿**خَيْرٌ**﴾ ، و ﴿**ذلِكَ**﴾ صفة للمبتدأ ، كأنه قيل : ولباس التقوى المشار إليه خير.

﴿**يَنْزِعُ عَنْهُما ..**﴾ جملة فعلية في موضع نصب حال من الضمير في ﴿**أَخْرَجَ**﴾.

﴿مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ حَيْثُ﴾ مبنية على الضم ، لوجهين : إما لأنها مقطوعة عن الإضافة إلى المفرد ؛ لأنها لا تضاف إلا إلى الجمل ، فنزلت منزلة بعض الكلمة ، وبعض الكلمة مبني. وإما لأنها أشبهت الحرف ، والحرف مبني ، فكذلك ما أشبهه.

البلاغة :

﴿قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً﴾ مجاز مرسل ، أي أنزلنا مطرا ينبت القطن والكتان ، ويقيم البهائم ذات الأصواف والأوبار والأشعار.

﴿وَلِباسُ التَّقْوى﴾ تشبيه بليغ ، من إضافة المشبه به إلى المشبه ، كما أضيف إلى الجوع في قوله : ﴿فَأَذاقَهَا اللهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾.

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيه التفات عن الخطاب إلى الغيبة.

المفردات اللغوية :

﴿قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً﴾ أي خلقناه لكم ، واللباس : كل ما يلبس في السلم والحرب ﴿يُوارِي سَوْآتِكُمْ﴾ يستر عوراتكم ﴿وَرِيشاً﴾ الريش هنا والرياش : ما يتجمل به من الثياب فهو لباس الحاجة والزينة ، وأكثر أهل اللغة : أن الريش : ما ستر من لباس أو معيشة. ﴿وَلِباسُ التَّقْوى﴾ أي لباس الورع والخشية من الله تعالى ، بالعمل الصالح والسمت الحسن. ﴿ذلِكَ مِنْ آياتِ اللهِ﴾ دلائل قدرته ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي يتذكرون فيؤمنوا.

﴿لا يَفْتِنَنَّكُمُ﴾ لا يضلنكم ، وأصل الفتنة : الابتلاء والاختبار ، والمعنى : لا تتبعوا الشيطان فتفتنوا ﴿وَقَبِيلُهُ﴾ جنوده وجماعته ، والقبيل كالقبيلة. ﴿مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾ للطافة أجسادهم أو عدم ألوانهم ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ﴾ أعوانا وقرناء.

المناسبة :

بعد أن أمر الله تعالى آدم وحواء بالهبوط إلى الأرض ، وجعل الأرض مستقرا لهما ، أبان أنه تعالى أنزل كل ما يحتاجون إليه في شؤون الدين والدنيا ، ومن جملتها اللباس الذي يحتاج إليه في الدين والدنيا. وذلك يقتضي شكر الله على نعمه العظيمة وعبادته بحق.

التفسير والبيان :

يمتن الله تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش ، فاللباس ستر العورات ، والريش : ما يتجمل به ، والأول من الضرورات ، والثاني من التكملات والتحسينات.

يا بني آدم ، اذكروا نعمة الله عليكم وعلى أبيكم آدم من قبل ، بما وفرته لكم من حوائج الدين والدنيا كاللباس والرياش ، لستر العورات ، والاستمتاع بالزينة والجمال ، واتقاء الحر والبر. ومعنى إنزاله من السماء : خلقه وإنتاج مادته من القطن والصوف والوبر والحرير وريش الطير وغيرها مما اقتضته الحاجة ، ثم تعلم صنعته وخياطته بإلهام من الله. وهذا الامتنان بنعمة اللباس والزينة دليل على الإباحة ، وهو مطابق لفطرة الإنسان بحب الزينة والتظاهر أمام الناس.

ويسن الحمد والشكر عند ارتداء الثوب الجديد ، لما رواه أحمد والترمذي وابن ماجه عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : «من استجد ثوبا ، فلبسه ، فقال حين يبلغ ترقوته : الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي ، وأتجمل به في حياتي ، ثم عمد إلى الثوب الخلق فتصدق به ، كان في ذمة الله ، وفي جوار الله ، وفي كنف الله ، حيا وميتا». وروى الإمام أحمد أيضا عن علي قال : معت رسول الله ﷺ يقول عند الكسوة : «الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس ، وأواري به عورتي».

ثم فضل الله تعالى على اللباس المادي أو الحسي لباس التقوى المعنوي فقال : ﴿**وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ**﴾ وهو كما قال ابن عباس : الإيمان والعمل الصالح ، وقيل : هو السمت الحسن ، فهذا لا شك خير لصاحبه إذا أخذ به ، وأقرب له إلى الله تعالى ، مما خلق من اللباس والرياش الذي يتجمل به.

﴿**ذلِكَ مِنْ آياتِ اللهِ**﴾ معناه : ذلك المذكور وهو إنزال اللباس عليهم من

آيات الله الدالة على قدرته وفضله ورحمته على عباده. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي أن هذه النعم تؤهلهم لتذكر فضل الله عليهم وشكره ، ومعرفة عظيم النعمة فيه ، والبعد عن فتنة الشيطان ، وإبداء العورات.

ثم حذر الله تعالى بني آدم من إبليس وجنوده ، مبينا لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم عليه السلام ، في سعيه في إخراجه من الجنة التي هي دار النعيم إلى دار التعب والعناء ، والتسبب في هتك عورته ، بعد ما كانت مستورة عنه ، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة ، وهذا كقوله تعالى : ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي ، وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ، بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف ١٨ / ٥٠].

كرر الله النداء لبني آدم على وفق الأسلوب العربي في مقام التذكير والوعظ ، فقال : ﴿لا يَفْتِنَنَّكُمُ﴾ أي لا تغفلوا عن أنفسكم ، ولا يصرفنكم الشيطان عن الدّين ، كما فتن أبويكم بالإخراج من الجنة ، فلا تصغوا لوسوسة الشيطان ، ولا تهملوا تحصين أنفسكم بالتقوى ، وصلوها دائما بذكر الله ، فيترتب على فتنة الشيطان ألا تدخلوا الجنة كما فتن أبويكم ووسوس لهما ، وزين لهما معصية ربهما ، فأكلا من الشجرة التي نهاهما عنها ، فأخرجهما من الجنة دار النعيم ، وتسبب في هبوطهما إلى الأرض.

أخرجهما من الجنة ، وتسبب أيضا في نزع ما اتخذاه لباسا لهما من ورق الجنة ، لأجل أن يريهما سوءاتهما ، واللام في ﴿لِيُرِيَهُمَا﴾ هي لام العاقبة أو الصيرورة ، مثل اللام في ﴿لِيُبْدِيَ لَهُما﴾.

احذروا إبليس فإنه هو وجنوده من الجن يرونكم وأنتم لا تروهم ، والضرر الناجم من العدو الذي لا يرى أخطر من العدو الظاهر المرئي.

والوقاية منه تكون بالاستعاذة بالله منه ، وبتقوية الروح بالإيمان بالله والصلة به ، وبمجاهدة النفس وعدم إصغائها للوساوس ، ثم محاولة طردها من

النفس وتصفية آثارها منها ، من طريق التزام قواعد الشرع وآدابه وأخلاقه.

ثم أكد التحذير من الشيطان ، فأبان أنه تعالى جعل الشياطين أنصارا وأعوانا للكفار الذين لا يؤمنون بالله تعالى إيمانا حقا تزكوا به نفوسهم وتصلح أعمالهم ، وذلك بسبب استعدادهم لقبول وسوسة الشيطان ، كاستعداد ضعفاء الأجسام لتقبل الأمراض بسرعة.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت آية : ﴿**يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ**﴾ على وجوب ستر العورة ؛ لأنه قال : ﴿**يُوارِي سَوْآتِكُمْ**﴾ أي أنه تعالى جعل لذرية آدم لباسا يسترون به عوراتهم ، وفيه دلالة على الأمر بالتستر. ولا خلاف بين العلماء في وجوب ستر العورة عن أعين الناس.

واختلفوا في العورة ما هي؟ فقال الظاهرية والطبري : هي من الرجل الفرج نفسه : القبل والدّبر ، دون غيرهما ؛ لقوله تعالى : ﴿**لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ**﴾ ، ﴿**بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما**﴾. ﴿**لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما**﴾ وفي البخاري عن أنس : «فأجرى . ركض . رسول الله ﷺ في زقاق خيبر . وفيه . ثم حسر الإزار عن فخذه ، حتى إني أنظر إلى بياض فخذ نبي الله ﷺ».

وقال مالك : السرة ليست بعورة ، وأكره للرجل أن يكشف فخذه بحضرة زوجته. وحجة مالك قوله ﷺ لجرهد : «غطّ فخذك ، فإن الفخذ عورة» خرّجه البخاري تعليقا ، وقال : حديث أنس أسند ، وحديث جرهد [١] أحوط ، حتى يخرج من اختلافهم ، يعني أن الفخذ على الصحيح عند المالكية ليس بعورة ، لأنها ظهرت من النّبي ﷺ يوم خيبر ، ولكن يكره كشفها ، لحديث جرهد.

---

(١) هو جرهد بن خويلد ، وهو صحابي.

وقال أبو حنيفة : الركبة عورة.

وقال الشافعي : ليست السرة ولا الركبتان من العورة على الصحيح ، لكن يجب سترهما عند الشافعية من قبيل : ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وأما المرأة الحرة : فعورة كلها إلا الوجه والكفين ، عند أكثر أهل العلم ، بدليل قول جمهور الفقهاء : من أراد أن يتزوّج امرأة فلينظر إلى وجهها وكفّيها ولأن ذلك واجب كشفه في الإحرام.

ودلت آية ﴿أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً﴾ .. ﴿وَرِيشاً﴾ على مزيد نعمة الله تعالى بتوفير ما يحتاجه الإنسان في الدنيا ، وليعينه على أمر الدين والآخرة.

لكن لباس التقوى : وهو الإيمان والعمل الصالح والسّمت الحسن في الوجه هو خير وأبقى ، وأخلد وأنقى ، وبه النجاة عند الله ، وهو طريق القربى إلى الله عَزَّوَجَلَّ ، لأن المعنى : ولباس التقوى المشار إليه ، الذي علمتموه ، خير لكم من لبس الثياب التي تواري سوءاتكم ، ومن الرياش التي أنزلنا إليكم ؛ فالبسوه.

وقوله تعالى : ﴿يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ﴾ يدل على تحذير الناس من قبول وسوسة الشيطان ؛ لأن المقصود من ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام حصول العبرة لمن يسمعها ، فكأنه تعالى لما ذكر قصة آدم ، وبيّن فيها شدة عداوة الشيطان لآدم وأولاده ، أتبعها بأن حذر أولاد آدم من قبول وسوسة الشيطان ؛ بدليل تأثيره على آدم وحواء وإيقاعهما في الزلة الموجبة لإخراجهما من الجنة ، فإذا أثر على آدم فكيف يكون حال آحاد الناس؟

واللباس الذي نزعه الشيطان عن آدم وحواء : هو ثياب الجنة.

وقوله تعالى : ﴿مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾ يدل على أن الإنس لا يرون الجن ، ويؤكده الخبر الذي أخرجه أحمد : «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى

الدم» وقوله تعالى : ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس ١١٤ / ٥] وقوله ﷺ فيما رواه الترمذي والنسائي وابن حبان عن ابن مسعود : «إن للملك لمة وللشيطان لمة . أي بالقلب . فأما لمة الملك : فإيعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، وأما لمة الشيطان : فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق».

وفيما عدا هذا جاء في رؤية الجن أخبار صحيحة في البخاري ومسلم.

وعقيدتنا أنه لا قدرة للشيطان على البشر بوجه من الوجوه ، بدليل قوله تعالى : ﴿ما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ ، إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم ١٤ / ٢٢].

واحتج أهل السنة بقوله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ على أن الله هو الذي سلّط الشيطان الرجيم على الكافرين حتى أضلهم وأغواهم ، زيادة في عقوبتهم ، وتسوية بينهم في الذهاب عن الحق ، فأصبح الشيطان وليا لمن لا يؤمن.

تشريع المشركين تقليد الآباء وتشريع الله الوحي إلى رسوله

﴿وَإِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَاللهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقاً هَدى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠)﴾

الإعراب :

﴿كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ : الكاف في ﴿كَما﴾ في موضع نصب ؛ لأنها صفة مصدر محذوف ، تقديره : تعودون عودا مثل ما بدأكم.

﴿فَرِيقاً هَدى ، وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ﴾ : ﴿فَرِيقاً﴾ الأول منصوب بهدى. و ﴿فَرِيقاً﴾ الثاني منصوب بتقدير فعل دلّ عليه ما بعده ، وتقديره : وأضل فريقا حق عليهم الضلالة. ويجوز أن يكون منصوبا على الحال من ضمير ﴿تَعُودُونَ﴾ وتقديره : كما بدأكم تعودون في هذه الحالة.

المفردات اللغوية :

﴿فاحِشَةً﴾ الفاحشة : هي الفعلة المتناهية في القبح ، وهي كل معصية كبيرة ، كالشرك وطوافهم بالبيت عراة ، قائلين : لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها ، فنهوا عنها ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ أنه قاله ، وهو استفهام إنكاري.

﴿بِالْقِسْطِ﴾ العدل والاعتدال والتوسط في جميع الأمور. ﴿وَأَقِيمُوا﴾ معطوف على معنى : بالقسط ، أي قال : أقسطوا وأقيموا. وإقامة الشيء : إعطاؤه حقه وتوفيته شروطه ، كإقامة الصلاة ، وإقامة الوزن بالقسط. ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ الوجه معروف وهو أشرف أعضاء الإنسان ، والمراد هنا : إما العضو المعروف من الإنسان مثل قوله تعالى : ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾ [البقرة ٢ / ١٤٤] وإما كناية عن توجه القلب وصحة القصد ، مثل قوله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾ [الروم ٣٠ / ٣٠].

﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي أخلصوا له سجودكم. ﴿وَادْعُوهُ﴾ اعبدوه. ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من الشرك. ﴿كَما بَدَأَكُمْ﴾ خلقكم ولم تكونوا شيئا. ﴿تَعُودُونَ﴾ أي يعيدكم أحياء يوم القيامة.

المناسبة :

لما ذكر الله تعالى أنه جعل الشياطين قرناء للكافرين مسلطين عليهم ، ذكر هنا أثرا من آثار تسلط الشياطين على الذين لا يؤمنون ، وهو طاعتهم لهم.

التفسير والبيان :

وإذا فعل المشركون فعلة فاحشة قبيحة ينكرها الشرع والعقل والطبع السليم

كالشرك والطواف بالبيت عراة رجالا ونساء ، والأولى الحكم بتعميم معنى الفاحشة : وهي كل معصية كبيرة ، فيدخل فيه جميع الكبائر ، قالوا : نحن في هذا مقلدون للآباء ، متبعون للأسلاف ، ويعتقدون أنها طاعات ، وأن الله أمرهم بها ، وهي في أنفسها فواحش ، فكانوا يحتجون على إقدامهم على تلك الفواحش وهم لا يدركون فحشها بأمرين : أحدهما : أنا ﴿وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا﴾ والثاني : أن ﴿اللهُ أَمَرَنا بِها﴾.

أما الحجة الأولى . فلم يجب الله عنها ؛ لأنها إشارة إلى محض التقليد ، وهو عقلا طريقة فاسدة ، وفسادها ظاهر جلي لكل أحد ، فلم يحتج إلى الجواب عنه.

وأما الحجة الثانية وهي قولهم : ﴿وَاللهُ أَمَرَنا بِها﴾ فقد أجاب عنه تعالى بقوله : ﴿قُلْ : إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ﴾ أي إن هذه الأفعال منكرة قبيحة على لسان الأنبياء والمرسلين ، والله بكماله منزه عن أن يأمر بها ، فكيف يمكن القول بأن الله تعالى أمر بها؟! والواقع إنما يأمر بها الشيطان ، كما قال تعالى : ﴿الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ﴾ [البقرة ٢ / ٢٦٨].

ثم أنكر الله تعالى عليهم قولهم باستفهام إنكاري فقال : ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ ...﴾ أي أتسندون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته؟! فتشريع الله لا يثبت إلا بوحي منه إلى رسوله ، وأنتم تعملون بوحي الشيطان ، وتفترون على الله الكذب ، فهذا إنكار لإضافتهم القبيح إلى الله ، وشهادة على أن مبني قولهم الجهل المفرط.

وبعد أن أنكر تعالى صدور الأمر عنه بالفحشاء ، أعلن أنه إنما يأمر بالقسط والعدل: ﴿قُلْ : أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أي قل يا محمد لهم : إنما يأمر ربي بالعدل والاستقامة والتوسط في الأمور دون إفراط ولا تفريط.

وأمر ربي بإيفاء عبادته حقها ، وأن تقصدوا عبادته مستقيمين إليها غير عادلين إلى غيرها ، في كل وقت سجود ، أو في كل مكان سجود ، وهو الصلاة ، واعبدوه (ادعوه) مخلصين له الدين ، أي الطاعة ، مبتغين بها وجه الله خالصا.

أي إن هذه الآية تأمر بشيئين : ١ ـ الاستقامة في العبادة في أوقاتها ومحالّها ، كما جاء بها الأنبياء والمرسلون المؤيدون بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله ، وما جاؤوا به من الشرائع. ٢ ـ الإخلاص لله في عبادته ، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين: أن يكون صوابا موافقا للشريعة ، وأن يكون خالصا من الشرك [١].

ثم احتج تعالى عليهم في إنكارهم الإعادة والبعث : بابتداء الخلق ، فقال : ﴿**كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**﴾ أي كما أنشأكم ابتداء يعيدكم ، فيجازيكم على أعمالكم ، فأخلصوا له العبادة.

وأنتم حال البعث والحساب بين فريقين : فريق هداه الله ووفقه للعبادة والإيمان والإخلاص ، وهم الذين أسلموا ، وفريق حقت عليه كلمة العذاب والصرف عن طريق الثواب ، وحق عليه الضلالة لاتباعه إغواء الشيطان وإعراضه. عن طاعة الله ، وعلم الله أن أفراد هذا الفريق يضلون ولا يهتدون. فسبب ثبوت الضلالة على هذا الفريق : هو أنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، فقبلوا ما دعوهم إليه ، ولم يتأملوا في التمييز بين الحق والباطل.

إن الفريق الذين حق عليهم الضلالة اتخذوا الشياطين أولياء أي تولوهم بالطاعة فيما أمروهم به. وهذا دليل على أن علم الله بضلالهم لا أثر له في ضلالهم ، وأنهم ـ كما قال الزمخشري المعتزلي ـ هم الضالون باختيارهم وتوليهم الشياطين ، دون الله سبحانه.

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٠٨

وأما على رأي أهل السنة القائلين بأن الهدى والضلال من الله تعالى ، فالمعنى أن الهدى والضلال إنما يحصل بخلق الله تعالى ابتداء ، ولكن الداعية التي دعتهم إلى ذلك الفعل هي أنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله.

والفريق الثاني يتصف بصفة أخرى هي أنهم يظنون أنهم مهتدون أي على بصيرة وهداية ، وهم في الحقيقة ضالون مخطئون : ﴿قُلْ : هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً . الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ [الكهف ١٨ / ١٠٣ . ١٠٤].

ويؤكد معنى الآية في الفريق الثاني ما رواه مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى : «إني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين ، فاجتالتهم ، عن دينهم».

وفسّر بعضهم : ﴿كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ بأنه كما خلقناكم ؛ فريق مهتدون وفريق ضلال ، كذلك تعودون وتخرجون من بطون أمهاتكم. قال ابن عباس : إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمنا وكافرا ، كما قال : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ ، فَمِنْكُمْ كافِرٌ ، وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن ٦٤ / ٢] ثم يعيدهم كما بدأ خلقهم مؤمنا وكافرا. وهذا موافق لحديث ابن مسعود في صحيح البخاري : «فو الذي لا إله غيره ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها».

وبناء على هذا التأويل يكون هناك تعارض بينه وبين قوله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها﴾ [الروم ٣٠ / ٣٠] ومثله ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «كل

مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه» وما جاء في صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار المتقدم.

والتوفيق بين آية : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ ...﴾ وآية : ﴿فِطْرَتَ اللهِ ...﴾ وما يؤيد كليهما من الأحاديث : هو أن الله تعالى فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده والعلم بأنه لا إله غيره ، كما أخذ عليهم الميثاق بذلك ، وجعله في غرائزهم وفطرهم.

وبعد هذا الخلق على هذا النحو الفطري السليم ، قدّر تعالى ، وعلم في علمه الأزلي القديم السابق أنه سيكون من الخلق المؤمن والكافر ، والشقي والسعيد ، وسيطرأ تغير على الحالة الأصلية التي فطروا عليهم ، وهو معنى قوله : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ ، فَمِنْكُمْ كَافِرٌ ، وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ أي سيؤول أمره في ثاني الحال إلى الكفر بعد الإيمان ، وقدر الله نافذ في بريته ، فإنه هو ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدى﴾ [الأعلى ٨٧ / ٣] و ﴿الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ، ثُمَّ هَدى﴾ [طه ٢٠ / ٥٠] (١).

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآيات على ما يأتي :

١ ـ تقليد الآباء والأسلاف مرفوض عقلا وطبعا ؛ لأن الله ميّز الإنسان بالعقل الذي يستطيع به التمييز بين الحق والباطل ، فإن كان الآباء على حق وخير ، جاز اتباعهم وتقليدهم ، وإن كانوا على ضلالة وشر ، وجب البعد عن منهجهم وطريقهم ، وإلا كانوا على جهل وخطأ.

٢ ـ لا يأمر الله إلا بالعدل والاستقامة ، وهو منزّه عن الأمر بالفحشاء والمنكر والمعاصي.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٠٩

٣ ـ الواجب على المؤمن في عبادة ربه أمران : أن يكون فعله موافقا للصواب الذي قررته الشريعة ، وأن يكون خاليا من الشرك ، أي بأن يخلص العبادة لله والطاعة ، وينأى عن وجوه الخطأ والانحراف.

٤ ـ إعادة الخلق بالبعث مثل ابتداء الخلق الأول ، بل هو أهون : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم ٣٠ / ٢٧].

٥ ـ قال الرازي : إنه تعالى أمر في هذه الآية : ﴿قُلْ : أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ...﴾ بثلاثة أشياء :

أولها : أنه أمر بالقسط : وهو قول : لا إله إلا الله ، وهو يشتمل على معرفة الله تعالى بذاته وأفعاله وأحكامه ، ثم على معرفة أنه واحد لا شريك له.

وثانيها : أنه أمر بالصلاة ، وهو قوله : ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

وثالثها : أنه أمر بعبادته مخلصين له الدين [١].

٦ ـ الناس جميعا عند خلقهم مخلوقون مفطورون على فطرة التوحيد ومعرفة الله تعالى ، ثم يتغير حال بعضهم بمؤثرات البيئة والتعليم والتوجيه في البيت والمدرسة والمجتمع.

٧ ـ يزيد الله تعالى المؤمنين هداية وتوفيقا إلى الخير ، بعد هداية أصل التوحيد ومعرفة الله ، وثبوت الضلالة على الكافر بسبب إصغائه لوساوس الشيطان : ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ قال ابن جرير الطبري : وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذب أحدا على معصية ركبها ، أو ضلالة اعتقدها ، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها ،

---

(١) تفسير الرازي : ١٤ / ٥٧

فيركبها عنادا منه لربه فيها ؛ لأنه لو كان كذلك ، لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضلّ ، وهو يحسب أنه مهتد ، وفريق الهدى فرق ، وقد فرق الله تعالى بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية [١] ، أي أن العذاب لا يكون فقط على حالة العناد والعلم بالصواب ، بل قد يكون على حالة الجهل والانحراف والخطأ في تبين الصواب.

إباحة الزينة والطيبات من المآكل والمشارب

﴿يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢)﴾

الإعراب :

﴿فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ : يجوز أن يكون ظرفا للخبر الذي هو ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ويجوز أن يكون خبرا.

﴿خالِصَةً﴾ حال من الضمير الذي في ﴿لِلَّذِينَ﴾ الذي هو الخبر ، وهو العامل في الحال ، والعامل في الحال على الحقيقة هو الفعل المحذوف ، والتقدير : قل هي استقرت للذين آمنوا في حال خلوصها يوم القيامة.

ومن قرأ بالرفع ﴿خالِصَةً﴾ فهي خبر ثاني للمبتدأ وهو ﴿هِيَ﴾ والخبر الأول : ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾.

البلاغة :

﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ المراد بالمسجد هنا الطواف والصلاة ، فهو مجاز مرسل علاقته المحلية ؛ لأنه لما كان المسجد مكان الصلاة أطلق الطواف والصلاة عليه ، من قبيل إطلاق المحل وإرادة الحال.

---

(١) تفسير الطبري ٨ / ١٥٩ ، ط البابي الحلبي.

المفردات اللغوية :

﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ ما يزينكم ويستر عورتكم ، والمراد هنا الثياب الحسنة. ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ عند الصلاة والطواف ، أطلق مكان السجود وأريد به الصلاة والطواف.

﴿قُلْ﴾ إنكارا عليهم. ﴿زِينَةَ اللهِ﴾ اللباس. ﴿الطَّيِّبَاتِ﴾ المستلذات. ﴿هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي مستحقة لهم ، وإن شاركهم فيها غيرهم. ﴿خَالِصَةً﴾ خاصة. ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ نبينها مثل ذلك التفصيل. ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يتدبرون ، فإنهم المنتفعون بها.

سبب النزول :

روى مسلم عن ابن عباس قال : كانت المرأة تطوف بالبيت في الجاهلية ، وهي عريانة ، وعلى فرجها خرقة ، وهي تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحلّه

فنزلت : ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ونزلت : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ﴾ الآيتين.

وفي صحيح مسلم عن عروة قال : كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحمس [١] ، . والحمس : قريش وما ولدت . كانوا يطوفون بالبيت عراة إلا أن تعطيهم الحمس ثيابا ، فيعطي الرجال الرجال ، والنساء النساء ، وكانت الحمس لا يخرجون من المزدلفة ، وكان الناس كلهم يقفون بعرفات.

وفي غير مسلم : ويقولون نحن أهل الحرم ، فلا ينبغي لأحد من العرب أن يطوف إلا في ثيابنا ، ولا يأكل إذا دخل أرضنا إلا من طعامنا. فمن لم يكن له من العرب صديق بمكة يعيره ثوبا ، ولا يسار يستأجره به ، كان بين أحد أمرين : إما أن يطوف بالبيت عريانا ، وإما أن يطوف في ثيابه ؛ فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه عنه ، فلم يمسّه أحد. وكان ذلك الثوب يسمى اللّقى.

---

(١) الحمس : سموا بهذا الاسم ؛ لأنهم تحمسوا في دينهم ، أي تشددوا ، والحماسة : الشجاعة.

فكانوا على تلك الجهالة والبدعة والضلالة حتى بعث الله نبيه محمداﷺ ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ الآية. وأذّن مؤذّن رسول الله ﷺ : ألا لا يطوف بالبيت عريان.

قال الكلبي : كان أهل الجاهلية لا يأكلون من الطعام إلا قوتا ، ولا يأكلون دسما في أيام حجهم ، يعظمون بذلك حجهم ، فقال المسلمون : يا رسول الله ، نحن أحق بذلك ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَكُلُوا﴾ أي اللحم والدسم ﴿وَاشْرَبُوا﴾.

المناسبة :

بعد أمر الله تعالى عباده بالقسط : العدل والاستقامة في كل الأمور ، طلب إلينا أخذ الزينة في كل مجتمع للعبادة ، صلاة أو طوافا ، وأباح لنا الأكل والشرب من غير إسراف.

قال ابن عباس : إن أهل الجاهلية من قبائل العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ، الرجال بالنهار ، والنساء بالليل ، وكانوا إذا وصلوا إلى مسجد منى ، طرحوا ثيابهم وأتوا المسجد عراة. وقالوا : لا نطوف في ثياب أصبنا فيها الذنوب.

التفسير والبيان :

يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل عبادة من صلاة أو طواف ، والبسوا ثيابكم حينئذ ، والمراد بالزينة : الثياب الحسنة ، وأقلها ما به تستر العورة. فستر العورة واجب في الصلاة والطواف ، وما بعد العورة يسن ستره ولا يجب. وعورة الرجل كما عرفنا في الآيات السابقة : ما بين السرة والركبة ، وعورة المرأة جميع بدنها ما عدا الوجه والكفين.

واللباس مظهر حضاري رفيع ، والأمر بارتداء الثياب وستر العورة من محاسن الإسلام ، والإسلام هو الذي نقل القبائل العربية وغيرها من الأفارقة من البدائية والتخلف والتوحش إلى المدينة والحضارة.

ويؤيد مدلول الآية في إيجاب الستر ما أخرجه الطبراني والبيهقي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «إذا صلى أحدكم فليلبس ثوبيه ، فإن الله عَزَّوَجَلَّ أحق من تزيّن له ، فإن لم يكن له ثوبان ، فليتّزر إذا صلى ، ولا يشتمل أحدكم في صلاته اشتمال اليهود».

وأخرج الشافعي وأحمد والبخاري عن أبي هريرة أن النّبي ﷺ قال : «لا يصلين أحدكم في الثوب الواحد ، ليس على عاتقه منه شيء».

ثم أباح الله الأكل والشرب من غير إسراف فقال : ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ..**﴾ أي كلوا واشربوا من الطيبات المستلذات ، ولا تسرفوا فيها ، بل عليكم بالاعتدال من غير تقتير ولا إسراف ، ولا بخل ولا زيادة إنفاق ، ولا تجاوز الحلال إلى الحرام في المأكل والمشرب ، إن الله لا يحب المسرفين ، في الطعام والشراب ، أي يعاقبهم على الإسراف الذي يؤدي إلى الضرر.

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : «كلوا ، واشربوا ، والبسوا ، وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف ، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده».

وروى النسائي وابن ماجه عن عبد الله بن عمرو أيضا بلفظ : «كلوا وتصدقوا والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة».

وروى الإمام أحمد والنسائي والترمذي عن المقدام بن معديكرب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ، حسب

ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان فاعلا لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه».

قال بعض السلف : جمع الله الطبّ كله في نصف آية : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ، وَلا تُسْرِفُوا﴾. يذكر أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق فقال لعلي بن الحسين : ليس في كتابكم من علم الطب شيء ، والعلم علمان : علم الأديان وعلم الأبدان ، فقال له علي : قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابنا. فقال له : ما هي؟ قال : قوله عزّ وجلّ : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا﴾ فقال النصراني : ولا يؤثر عن رسولكم شيء من الطب. فقال علي : جمع رسول الله ﷺ الطب في ألفاظ يسيرة. قال : ما هي؟ قال : «ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه» الحديث ، فقال النصراني : ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبا [1].

وقال البخاري : قال ابن عباس : «كل ما شئت ، والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان : سرف ومخيلة» أي كبر وإعجاب بالنفس.

والإسراف : تجاوز الحد في كل شيء. والله تعالى يحب إحلال ما أحل ، وتحريم ما حرم ، وذلك العدل الذي أمر به ، فلا يصح تجاوز الحد الطبيعي كالجوع والعطش والشّبع والرّي ، ولا المادي بأن تكون النفقة بنسبة معينة من الدّخل لا تستأصله كله ، ولا الشرعي فلا يجوز تناول ما حرم الله من الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح لغير الله ، والخمر ، إلا للضرورة ، ولا يحل الأكل والشرب في أواني الذهب والفضة ، ولا لبس الحرير الطبيعي أو تشبه الرجال بالنساء أو بالعكس.

وبناء عليه يكون فعل كل من البخلاء والمترفين المسرفين حراما لا يسوغ

---

(١) تفسير القرطبي : ٧ / ١٩٢ ، محاسن التأويل للقاسمي : ٧ / ٢٦٦٤

شرعا ، أخرج ابن ماجه في سننه عن أنس بن مالك عن النّبي ﷺ قال : «من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت».

وأكد تعالى سنته وشريعته القائمة على الاعتدال ، فرد على من حرم شيئا من المآكل أو المشارب أو الملابس من تلقاء نفسه من غير شرع من الله ، فقال : ﴿قُلْ : مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ ...﴾؟

أنكر الله تعالى على أولئك الذين حرموا المباحات ، وأمر نبيه أن يقول مستفهما استفهام إنكار من هؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم : من حرم الزينة والطيبات من الرزق التي خلق الله موادها لعباده ، وعلّمهم بما ألهمهم وأودع في فطرهم كيفية صنعها والانتفاع بها ، فهي مستحقّة مخلوقة لمن آمن بالله وعبده في الحياة الدنيا ، وغيرهم تبع لهم ، فإن أشركهم فيها الكفار فعلا في الدنيا ، فهي للمؤمنين خاصة يوم القيامة ، لا يشركهم فيها أحد من الكفار ؛ فإن الجنة محرمة على الكافرين.

ومثل هذا التفصيل التام لحكم الزينة والطيبات ، نفصل الآيات الدالة على كمال الشرع والدين وصدق النبي وإتمام الشريعة لقوم يعلمون علوم الاجتماع والنفس والطب ومصالح البشر ، فيتدبرون ويتعظون ، لا لقوم يجهلون هذه العلوم والمعارف اللازمة لتقدم الإنسان والحضارة والمدينة والعمران ، فمعنى قوله : ﴿كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ﴾ أي كالذي فصلت لكم الحلال والحرام أفصّل لكم ما تحتاجون إليه.

وكل هذا دليل على أن الإسلام دين الكمال الروحي والعقيدة السليمة ، والسمو الخلقي ، وقوة الجسد والنفس للتغلب على مصاعب الحياة ، وتأدية رسالة الإنسان الذي جعله الله خليفة عنه في الأرض ، وسخر له كل ما في السموات والأرض فقال : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ [البقرة ٢ / ٢٩] وقال : ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ [لقمان ٣١ / ٢٠].

فقه الحياة أو الأحكام :

لم يترك الإسلام أو القرآن شيئا من شؤون الحياة المادية والمعنوية إلا أبانها وأوضح أحكامها ومقاصدها ، فلم يقتصر على وضع أنظمة التشريع للعلاقات الاجتماعية فحسب ، وإنما وضع أنظمة الحياة كلها ، مما يدل على أن القرآن شريعة الحياة.

ومن هذه الأنظمة وجوب ارتداء الملابس والثياب الحسنة وستر العورة ؛ لأنه مظهر حضاري رفيع ، ومنها إباحة المآكل والمشارب وطيبات الرزق من غير تقتير ولا إسراف ، ولا بخل ولا ترف. وهذا دليل على منهج الإسلام في التوسط بالأمور ؛ لأنه دين الوسطية.

ومن ألزم حالات الستر : أثناء الصلاة وعند تجمع الناس للطواف بالبيت الحرام وغيره.

وقد دلت آية ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ على وجوب ستر العورة. وذهب جمهور العلماء إلى أنه فرض من فروض الصلاة. بل هو ـ كما قال الأبهري ـ فرض في الجملة ، وعلى الإنسان ستر عورته عن أعين الناس في الصلاة وغيرها ، وهو الرأي الصحيح : لقوله ﷺ ـ فيما أخرجه مسلم ـ للمسور بن مخرمة : «ارجع إلى ثوبك ، فخذه ، ولا تمشوا عراة».

ودلّ قوله تعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا﴾ على إباحة الأكل والشرب ، ما لم يكن سرفا أو مخيلة ، أي كبر. قال الجصاص : ظاهر الآية يوجب الأكل والشرب من غير إسراف ، وقد أريد به الإباحة في بعض الأحوال ، والإيجاب في بعضها ، أما الإباحة ففي الحال التي لا يخاف الضرر بتركهما ، وأما الإيجاب ففي الحال التي يخاف لحوق الضرر بترك الأكل والشرب أو الضعف عن أداء الواجبات. وظاهر الآية يقتضي جواز أكل سائر المأكولات وشرب سائر

الأشربة مما لا يحظره دليل ، بعد أن لا يكون مسرفا فيما يأتيه من ذلك ، لأنه أطلق الأكل والشرب على شريطة ألا يكون مسرفا فيهما [١].

فأما ما تدعو الحاجة إليه : وهو ما سد الجوعة ، وسكّن الظمأ ، فمندوب إليه عقلا وشرعا ؛ لما فيه من حفظ النفس والجسد ؛ ولذلك ورد الشرع بالنهي عن الوصال ؛ لأنه يضعف الجسد ، ويميت النفس ، ويضعف عن العبادة ، وهو أمر يمنع منه الشرع ، ويدفعه العقل.

وأما تناول الزائد عن الحاجة فقيل : حرام ، وقيل : مكروه. قال ابن العربي : وهو الأصح ؛ فإنّ قدر الشبع يختلف باختلاف البلدان والأزمان والأسنان والطّعمان [٢].

وقد رغب النّبي ﷺ في تقليل الطعام ، فقال فيما رواه الترمذي عن المقدام بن معديكرب : «ما ملأ آدمي ووعاء شرا من بطن ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه».

وروى مسلم عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «الكافر يأكل في سبعة أمعاء ، والمؤمن يأكل في معى واحد» المعى : المعدة. والمعنى أن يأكل أكل من له سبعة أمعاء ، والمؤمن بخفة أكله يأكل أكل من ليس له إلا معى واحد ، فيشارك الكافر بجزء من أجزاء أكله ، ويزيد الكافر عليه بسبعة أمثاله ؛ لأن فقد الإيمان يجعله مقبلا على انتهاب اللذات والمتع المادية.

والإسراف بكثرة الأكل والشرب ممنوع شرعا ؛ لأن التخمة بالأكل تربك أعضاء الهضم ، وتذهب الفطنة ، وكثرة الشرب تثقل المعدة ، وتثبط الإنسان عن

---

(١) أحكام القرآن : ٣ / ٣٣

(٢) أحكام القرآن : ٢ / ٧٧١

القيام بواجبه الديني والدنيوي ، فإن أدى الإسراف إلى المنع من القيام بالواجب حرم ، وكان في عداد المسرفين الذين يعاقبهم الله تعالى.

ومن الإسراف : تحريم ما لم يحرمه الله على الناس. وقد أنكر الله على من حرّم من تلقاء نفسه من الزينة وهي الملبس الحسن ، ما لم يحرّمه الله على أحد. ودلت آية : ﴿قُلْ : مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ﴾ على مشروعية لباس الرفيع من الثياب ، والتجمّل بها في الجمع والأعياد ، وعند لقاء الناس ومزاورة الإخوان. قال أبو العالية : كان المسلمون إذا تزاوروا تجمّلوا. وفي صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب أنه رأى حلّة سيراء [١] تباع عند باب المسجد ، فقال : يا رسول الله ، لو اشتريتها ليوم الجمعة وللوفود إذا قدموا عليك؟ فقال رسول الله ﷺ : «إنما يلبس هذا من لا خلاق له في الآخرة» فما أنكر عليه ذكر التجمّل ، وإنما أنكر عليه كونها سيراء.

وروى الترمذي عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده».

وليس لبس الخشن من الثياب سببا في زيادة التقوى ، بالتذرع بقوله تعالى : ﴿وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ﴾ فإن كبار الصالحين كانوا يتجملون بالثياب الجياد للجمعة والعيد ولقاء الإخوان ، ولم يكن تخير الأجود قبيحا عندهم ، وقد اشترى تميم الداري حلّة بألف درهم ، كان يصلي فيها ، وكان مالك بن دينار يلبس الثياب العدنية الجياد. وروى مسلم عن ابن مسعود في النظافة وتحسين الهيئة : «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرّة من كبر ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة ، قال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر : بطر الحق ، وغمط الناس».

---

(١) سيراء : نوع من البرود فيه خطوط صفر ، أو يخالطه حرير.

وطيبات الرزق حلال ، وهي اسم عام لكل ما طاب كسبا وطعما. وهي مستحقة في الأصل للمؤمنين المصدقين بوجود الله ، الموحّدين له ، وغيرهم تبع لهم يستمعون بها في الدنيا مع المؤمنين. أما في الآخرة فهي خاصة بالذين آمنوا ، وليس للمشركين فيها شيء ، كما كان لهم في الدنيا من الاشتراك فيها.

والخلاصة : الإسلام دين الواقع والحياة ، فهو يجمع بين المادة والروح ، ويستهدف الكمال المعنوي بالإيمان والأخلاق ، والكمال المادي بقوة الأجساد التي تكون عونا على أداء العبادات والجهاد في سبيل الله ، فالاستغناء عن الطعام والشراب فيه إضعاف البدن ، ويؤدي إلى التقصير في الواجبات.

وليست المظاهر من لبس الثياب الجميلة مخلّة بالتقوى والتدين ، كما أن التقشف والزهد المبالغ فيه لحرمان النفس من متع الحياة المباحة ليس مرغوبا فيه شرعا.

وإنما المهم إصلاح النفس بالأخلاق ، وعمارة القلب بالإيمان ، وتزكية النفس بالعمل الصالح والجهاد.

ولا يعقل أن يكون دين الله سببا لإضعاف أحد ، أو لتأخر الأمة ، وإنما الضعف أو التخلف ناجم من كسل الناس وتراخيهم وجهلهم ، وتفكك جماعتهم ، وتنافرهم وتباغضهم.

فالإنسان مستخلف عن الله في الأرض ، وهو أمين على ما فيها من خيرات وكنوز ومنافع ، ومسئول عن القيام بواجبه في تقدم الحياة وإصلاح العمران ، والسبق في الحياة بمختلف أنماطها الزراعية والصناعية والاقتصادية والعلمية والثقافية والاجتماعية.

أصول المحرّمات على النّاس

﴿قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٣٣)﴾

الإعراب :

﴿ما ظَهَرَ مِنْها﴾ : ﴿إِنَّما﴾ : في موضع نصب على البدل من ﴿الْفَواحِشَ﴾. ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا﴾ في موضع نصب بالعطف على ﴿الْفَواحِشَ﴾ ، وكذلك قوله : ﴿وَأَنْ تَقُولُوا﴾.

البلاغة :

﴿ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ﴾ يوجد طباق بين ﴿ظَهَرَ﴾ و ﴿بَطَنَ﴾.

﴿ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً﴾ فيه تهكم ؛ لأنه لا يجوز أن ينزل برهانا بأن يشرك به غيره.

المفردات اللغوية :

﴿الْفَواحِشَ﴾ الأفعال الزائدة في القبح ، التي تنفر منها الفطر السليمة والعقول الراجحة ، وهي الكبائر مثل الزنى والقذف والسّب القبيح والبخل ونحوها. ﴿ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ﴾ أي الجهرية والسرية. ﴿وَالْإِثْمَ﴾ المعصية مطلقا ، وهي تشمل الكبائر كما ذكر والصغائر مثل النظر بشهوة لغير الزوجة. ﴿وَالْبَغْيَ﴾ الظلم وتجاوز الحدود في الفساد والحقوق. ﴿سُلْطاناً﴾ حجّة. ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ من تحريم ما لم يحرم وغيره.

المناسبة :

وجه الرّبط بين هذه الآية وما قبلها واضح ، فلما أنكر تعالى على المشركين وغيرهم تحريم ما ليس بحرام كالزينة وطيبات الرّزق ، ذكر هنا أنواع المحرّمات وأصولها وهي خمسة ، جميعها مما يكسبه الإنسان لا من الخلقة والموهبة الفطرية.

قال الكلبي : لما لبس المسلمون الثياب وطافوا بالبيت عيّرهم المشركون ، فنزلت هذه الآية.

التفسير والبيان :

قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين حرّموا ما أحلّ الله من الطّيبات ، واللّباس : إنما حرّم الله خمسة أشياء هي أصول المحرّمات ، وهي ما يأتي :

١ ـ الفواحش الظاهرة والباطنة ـ الجهرية والسرية : وهي الأعمال المفرطة في القبح ، ما ظهر منها وما بطن ، أو هي عبارة عن الكبائر ، لأنه قد تفاحش قبحها ، أي تزايد ، مثل الزنى والسرقة والخروج على الجماعة.

٢ ـ والإثم أي ما يوجب الإثم والذّنب : وهو المعاصي الصغائر ، فكان معنى الآية : أنه حرّم الكبائر والصغائر ، مثل النظر بشهوة لغير الزوجة. وقيل : الإثم : المعصية أو الذّنب مطلقا ، وهو عطف عام على خاص.

٣ ـ والبغي : أي الظّلم وتجاوز الحدّ في الفساد والحقوق ، بالاعتداء على حقوق الناس الآخرين أفرادا وجماعات. وقيد البغي بكونه بغير الحق ، لأن التّجاوز إذا كان لمصلحة عامة أو مع التراضي ، فلا شيء فيه.

٤ ـ والشّرك بالله : وهو أقبح الفواحش ، وهو أن يجعل مع الله إله آخر من صنم أو وثن أو شخص ، لم تقم عليه حجّة من عقل ولا برهان من وحي ، وسميت الحجّة سلطانا ، لأنها ترجح قول الخصم على غيره ، ويكون لها تأثير على عقل السامع وفكره ، وهي مثل قوله تعالى : ﴿**وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ ، فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ**﴾ [المؤمنون ٢٣ / ١١٧].

وفي هذا دلالة على أن البرهان أساس الاستدلال على صحة العقيدة ، وأن الإيمان لا يقبل بغير وحي من الله ، يدعمه الدّليل والبرهان.

٥ ـ التّقول على الله بغير علم ولا حجّة : كالافتراء والكذب على الله ، بادّعاء أنّ له ولدا ، أو شريكا من الأوثان : ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ﴾ [الحج ٢٢ / ٣٠] ، وتحليل الحرام وتحريم الحلال بلا سند ولا حجّة ، وهو القول بالرّأي المحض دون دليل من الشرع ، وهو سبب تحريف الأديان ، والابتداع في الدين الحق ، واتباع الهوى والشيطان ، كما فعل أهل الكتاب : ﴿وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ : هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ﴾ [النحل ١٦ / ١١٦] ، وهو منهج أدعياء التجديد ، وتخطي الشريعة باسم الاجتهاد ، كما روى الشيخان : «لتتبعنّ سنن من قبلكم ، شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضبّ لتبعتموهم ، قلنا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى؟ قال : فمن؟».

وطريق الاجتهاد معروف في الشريعة : وهو النظر في القرآن والسّنة والإجماع نظرا صحيحا على أصول شرعية ، ثم القياس عليها ، أو الأخذ بالرأي الشامل للاستحسان والاستصلاح ونحوهما ، وهو الرأي المتفق مع روح الشريعة وأصولها ومبادئها العامة.

وقد أثير تساؤل حول هذه الآية ، مضمونه أن كلمة ﴿إِنَّما﴾ تفيد الحصر ، فقوله : ﴿إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ﴾ كذا وكذا يفيد الحصر ، والمحرّمات غير محصورة في هذه الأشياء.

وأجيب : بأن الجنايات محصورة في خمسة أنواع : أحدها ـ الجنايات على الأنساب ، وهي إنما تحصل بالزنى ، وهي المراد بقوله : ﴿إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ﴾. وثانيها ـ الجنايات على العقول ، وهي شرب الخمر ، وإليها الإشارة بقوله : ﴿الْإِثْمَ﴾. وثالثها ـ الجنايات على الأعراض. ورابعها ـ الجنايات على النفوس وعلى الأموال ، وإليهما الإشارة بقوله : ﴿وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِ﴾. وخامسها ـ الجنايات على الأديان ، وهي من وجهين : أحدها ـ الطّعن

في توحيد الله تعالى ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ﴾. وثانيها ـ القول في دين الله من غير معرفة ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ فلما كانت أصول الجنايات هي هذه الأشياء ، وكانت البواقي كالفروع والتوابع ، جعل ذكر هذه المحرمات جاريا مجرى ذكر الكلّ ، فأدخل فيها كلمة : ﴿إِنَّما﴾ المفيدة للحصر [1].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت هذه الآية كما اتّضح من تفسيرها على تحريم أصول الأعمال المحرّمة ، وهي تشمل الانحراف عن العقيدة (الشرك بالله) ومصادمة الشريعة : (القول في دين الله بغير علم ولا معرفة ، والجنايات على العقول (تحريم الإثم وهو يقع على جميع المعاصي وعلى الخمر أيضا لغة) بدليل قول الشاعر :

شربت الإثم حتى ضلّ عقلي كذاك الإثم يذهب بالعقول

والإثم كما قال الحسن البصري : الخمر ، وقال الجوهري في الصحاح : وقد يسمى الخمر إثما. والجنايات على الأنساب (الزنى) والجنايات على النفوس والأموال (القتل والسرقة) والأعراض (القذف) وهو الظلم الاجتماعي والفردي المشار إليه بقوله تعالى : ﴿وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

ويظهر من ذلك أن أصول المحرّمات تتناول العقيدة والشريعة والأخلاق أو السلوك والآداب ، سواء ما تعلّق بالخطايا المقتصرة على النفس ، وهو الإثم ، والمتعدية ضررها إلى الناس وهو البغي.

---

(١) تفسير الرازي : ١٤ / ٦٧

أجل كلّ أمّة وفرد

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤)﴾

المفردات اللغوية :

﴿أَجَلٌ﴾ وقت محدد ، أو مدّة معلومة في علم الله. ﴿ساعَةً﴾ أقل وقت يقضى فيه عمل ما.

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى الحلال والحرام وأحوال التّكليف ، فأوضح مباحات الزّينة وطيّبات الرّزق من غير إسراف ، وأعقبه بذكر أصول المحرّمات لما فيها من الضّرر والفساد ، ذكر هنا أنّ لكل فرد أو جماعة أجلا معيّنا لا يتقدّم ولا يتأخّر ، فإذا جاء الأجل مات كل واحد حتما ، وفي أثناء الحياة يعرف مدى اتّباع منهج الله في الحلال والحرام ، والغرض منه التّخويف ، ليتشدد المرء في القيام بالتّكاليف كما يلزم.

التفسير والبيان :

لكلّ أمّة ، أي قرن وجيل ، ولكلّ فرد وشيء في الوجود أيضا أجل معلوم وهو الوقت المحدد لانقضاء المهلة ، وهو يشمل الوقت المحدد للحياة الدّنيا ، ومدّة العزّة والسّعادة ، أو الذّل والشقاوة بين الأمم.

﴿فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي ميقاتهم المقدّر لهم ﴿لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً﴾ أي أقلّ مدة من الزمن ﴿وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ عنها ، أي لا يتأخّرون عن ذلك الأجل المعيّن ولا يتقدّمون ، لا بساعة ولا بما هو أقل من ساعة ، إلا أنه تعالى ذكر الساعة ، لأن هذا اللفظ أقل أسماء الأوقات.

وفي تعيين المراد بالأجل قولان :

الأول ـ لابن عباس والحسن البصري ومقاتل : وهو أن الله تعالى أمهل كل أمة كذبت رسولها إلى وقت معين ، فإذا جاء وقت عذاب الاستئصال ، نزل ذلك العذاب لا محالة.

والثاني ـ أن المراد بهذا الأجل : العمر ، فإذا انقطع ذلك الأجل وكمل امتنع وقوع التقديم والتأخير فيه.

قال الرازي : والقول الأول أولى ، لأنه تعالى قال : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ ولم يقل ولكلّ أحد أجل. وعلى القول الثاني : إنما قال : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ ولم يقل : لكلّ أحد ، لأن الأمّة هي الجماعة في كلّ زمان ، وهي مكوّنة من الأفراد ، وهي متقاربة في الأجل ، لأن ذكر الأمّة فيما يجري مجرى الوعيد أفحم وأبلغ.

وعلى القول الثاني : يلزم أن يكون لكل أحد أجل ، لا يقع فيه التّقديم والتّأخير ، فيكون المقتول ميتا بأجله.

فقه الحياة أو الأحكام :

إن آجال الأمم والجماعات والأفراد مؤقتة محددة بوقت معين ، فإذا جاء أجل الموت ، لم يتأخّر ولم يتقدّم لحظة. وأجل الموت : هو وقت الموت ، وأجل الإنسان : هو الوقت الذي يعلم الله أنه يموت الحي فيه لا محالة ، وهو وقت لا يجوز تأخير موته عنه ، لا من حيث إنه ليس مقدورا تأخيره ، فليس المراد منه أنه تعالى لا يقدر على تبقيته أزيد من ذلك ولا أنقص ، ولا يقدر على أن يميته في ذلك الوقت ، لأن هذا يقتضي خروجه تعالى عن كونه قادرا مختارا.

وفي هذا دليل على أن المقتول إنما يقتل بأجله.

أما الأجل المعنوي فللأمم دورات في التاريخ ، فقد تكون عزيزة سعيدة ، وقد تصبح ذليلة شقية.

وفي المقياس الشرعي : عزّة الأمّة وسعادتها بامتثال الشّرع ، والالتزام بالدّين ، والتّمسك بالأخلاق والفضائل ، وذلك لأجل معين.

وشقاء الأمة بإعراضها عن الدّين ، وابتعادها عن الفضائل والأخلاق ، وانتشار الرّذائل والمنكرات والمفاسد والمظالم في أوساطها ، وذلك يعجل دمارها ، ولها فيه أجل معيّن.

وقد تفضّل الله على الأمم بعد بعثة النّبي ﷺ فرفع عنها عذاب الاستئصال والإبادة الجماعية ، لقوله تعالى : ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ١٠٧].

وهذا ينطبق على الأمة الإسلامية وغيرها ، والآية تهديد ووعيد بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله ، لكلّ من يخالف أمر الله ، ويسير في الضلالة على غير هدى ، كأهل مكة ونحوهم من الأمم الباغية.

ما خوطبت به كلّ أمّة على لسان رسولها وإنذار المكذّبين بآيات الله

﴿يا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي فَمَنِ اتَّقى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٣٦)﴾

المفردات اللغوية :

﴿إِمَّا﴾ أدغمت نون : إن الشرطية في ما الزائدة ، أي إن يأتكم. وضمّت «ما» إلى «إن» الشرطية تأكيدا لمعنى الشرط ، ولذلك لزمت فعلها النون الثقيلة. ﴿يَقُصُّونَ﴾ القصص : اتّباع الحديث بعضه بعضا. ﴿آيَاتِي﴾ أي فرائضي وأحكامي. ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ﴾ شرط وما بعده جوابه ، وهو جواب الشرط الأول : ﴿إِمَّا﴾. وقوله : ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي وأصلح منكم ما بيني وبينه. وقيل : جواب : ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ : ما دلّ عليه الكلام ، أي فأطيعوهم ، فمن اتّقى وأصلح.

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى أن لكلّ أحد أجلا معيّنا لا يتقدّم ولا يتأخّر ، بيّن أحوال بني آدم بعد الموت ، إن كانوا مطيعين فلا خوف عليهم ولا حزن ، وإن كانوا متمردين وقعوا في أشدّ العذاب.

التفسير والبيان :

أنذر الله تعالى بني آدم أنه سيبعث إليهم رسلا يقصون عليهم آياته ويخبرونهم بأحكامه وفرائضه ، فقال : يا بني آدم إن أتاكم رسول منكم ومن جنسكم يخبركم بما أوجبته عليكم ، وما وضعته لكم من أنظمة في العبادات والمعاملات والأخلاق ، وما أمرتكم به من صالح الأعمال ، وما نهيتكم عنه من الشّرك وقبائح الأفعال ، فأنتم في أحد حالين ، أحدهما يبشّر والآخر يحذّر :

فمن اتّقى الله وأصلح ما بيني وبينه ، فترك المحرّمات وفعل الطّاعات ، فلا خوف عليه من عذاب الآخرة ، ولا يطرأ عليه حزن حين الجزاء على ما فاته ، أو فلا خوف عليه من أحوال المستقبل ، ولا حزن عليه من أحوال الماضي.

وإنما قال : ﴿مِنْكُمْ﴾ لأن كون الرّسول من جنس المرسل إليهم أقطع لعذرهم ، وأبين للحجّة عليهم ، إذ معرفتهم بأحواله ترشدهم إلى أن المعجزات التي يؤيده الله بها بقدرة الله لا بقدرته ، وأن الجنس يألف جنسه.

والمقصود بقوله ﴿بِآياتِنا﴾ أي القرآن ، ودلائل التوحيد والألوهية ، والأحكام والشرائع ، فهي لفظ عام يدخل فيه كل ما ذكر ، لأن جميع هذه الأشياء آيات الله تعالى ، والرّسل إذا جاؤوا فلا بدّ وأن يذكروا جميع هذه الأقسام.

ومن كذّبت قلوبهم بآيات الله واستكبروا عن قبولها والعمل بها ، ورفضوها كبرا وعنادا للرّسل ، كما حدث من زعماء قريش حين تكبّروا على محمد ﷺ ، فأولئك أصحاب النّار ، ماكثون فيها مكثا دائما مخلّدا.

فقه الحياة أو الأحكام :

ينقسم الناس بعد دعوة الرّسل فريقين : فريق المؤمنين الطائعين المصدّقين دعوة الرّسل ، وفريق الجاحدين المتمّردين المكذّبين الدّعوة.

أمّا الفريق الأوّل فيهنأ ويسعد بما يلقى من الجزاء الحسن يوم القيامة. ودلّ قوله تعالى: ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على أنّ المؤمنين يوم القيامة لا يخافون ولا يحزنون ، ولا يلحقهم رعب ولا فزع من أهوال يوم القيامة ، ولكنهم آمنون مطمئنون.

وأما الفريق الثاني فيجازى جزاء السّوء بالخلود في نار جهنّم. وقد استدلّ أهل السّنة بقوله تعالى : ﴿أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ على أن الفاسق من المسلمين أهل الصلاة لا يبقى في النار مخلّدا ، لأنه تعالى بيّن أنّ المكذّبين بآيات الله ، والمستكبرين عن قبولها ، هم الذين يبقون مخلّدين في النّار. وكلمة ﴿هُمْ﴾ تفيد الحصر ، فاقتضى ذلك أن من لا يكون موصوفا بذلك التّكذيب والاستكبار لا يبقى مخلّدا في النّار.

عاقبة الكذب ومشهد دخول الكفار إلى النّار

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ أُولئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قالُوا أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (٣٧) قالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩)﴾

الإعراب :

﴿حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا﴾ : ﴿حَتَّى﴾ ابتدائية يبتدأ بعدها الكلام ، وهو هاهنا الجملة الشرطية. ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ حال من الرّسل ، ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ في موضع الحال ، أي كائنين في جملة أمم.

﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً﴾ : ﴿ادَّارَكُوا﴾ : أصله تداركوا على وزن تفاعلوا ، ثم أبدلت التاء دالا ، وأدغمت الدّال في الدّال ، فسكّنت الدّال الأولى ، والابتداء بالسّاكن محال ، فأدخلت ألف الوصل ، لئلا يبتدأ بالساكن.

﴿جَمِيعاً﴾ : منصوب على الحال من الضمير في ﴿ادَّارَكُوا﴾.

المفردات اللغوية :

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ ...﴾ فمن أشنع ظلما ممن تقوّل على الله ما لم يقله أو كذّب ما قاله ، أي لا أحد

أظلم ممن افترى على الله الكذب ، بنسبة الشريك والولد إليه. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ﴾ القرآن. ﴿يَنالُهُمْ﴾ يصيبهم. ﴿نَصِيبُهُمْ﴾ حظّهم. ﴿مِنَ الْكِتابِ﴾ مما كتب لهم في اللوح المحفوظ من الرّزق والأجل وغير ذلك. ﴿حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا﴾ أي ملائكة الموت ، و ﴿حَتَّى﴾ ليست غاية ، بل هي ابتداء خبر عنهم ، ابتدئ بها الكلام. ﴿قالُوا﴾ لهم تبكيتا. ﴿تَدْعُونَ﴾ تعبدون. ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ غابوا عنّا ، فلم نرهم. ﴿وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ﴾ عند الموت.

﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ في جملة أمم سابقة. ﴿فِي النَّارِ﴾ متعلّق بادخلوا. ﴿كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ النّار. ﴿لَعَنَتْ أُخْتَها﴾ التي قبلها لضلالها بها. ﴿ادَّارَكُوا﴾ تلاحقوا واجتمعوا في النّار. ﴿أُخْراهُمْ﴾ منزلة وهم الأتباع. ﴿لِأُولاهُمْ﴾ منزلة أي لزعمائهم وقادتهم وهم المتبوعون ، ومعنى ﴿لِأُولاهُمْ﴾ : لأجل أولاهم ، لأن خطابهم مع الله ، لا معهم. ﴿عَذاباً ضِعْفاً﴾ مضاعفا على مثله مرّة أو مرّات. ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ لكلّ منكم ومنهم عذاب مضاعف ، لأن كلّا من القادة والأتباع كانوا ضالّين مضلّين. ﴿وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ﴾ ما لكلّ فريق.

﴿فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ﴾ عطفوا هذا الكلام على قول الله تعالى للسّفلة : ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أي فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا ، لأنكم تكفرون بسببنا ، فنحن وأنتم متساوون في استحقاق الضّعف.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى عاقبة المكذّبين بآيات الله ، المستكبرين عن قبولها ، ذكر هنا أن من أشنعهم ظلما وأعظمهم بغيا من يتقوّل على الله ما لم يقله ، أو يكذّب ما قاله ، والأوّل : مثل من يثبت الشّريك لله من أصنام أو كواكب أو بنات وبنين ، أو ينسب الأحكام الباطلة إلى الله تعالى ، والثاني كمن ينكر أن القرآن نزل من عند الله تعالى على رسوله ، أو أنكر نبوة محمد ﷺ.

التفسير والبيان :

لا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب ، بأن أوجب ما لم يوجبه ، أو حرّم ما لم يحرّمه ، أو نسب إلى دينه حكما لم ينزله ، أو نسب إلى الله ولدا أو شريكا.

أو كذّب بآيات الله المنزلة بأن أنكر القرآن مثل كفار العرب ، أو لم يؤمن بالنّبي محمد ﷺ ، أو استهزأ بالآيات أو تركها مفضلا عليها غيرها.

أولئك جميعا ينالهم ما كتب عليهم في كتاب المقادير الذي سجل فيه نظام العالم كلّه ، وقدّر لهم من الأرزاق والأعمار ، وكتب لمن كذب على الله أن وجهه مسود ، أي لهم ما وعدوا به من خير أو شرّ ، بالرّغم من ظلمهم وافترائهم على الله.

حتى إذا جاءتهم الرّسل وهم ملائكة الموت يتوفّونهم ويقبضون أرواحهم ، قالوا لهم أي سألهم الرّسل تأنيبا وتوبيخا : أين الشّركاء الذين كنتم تدعونهم وتعبدونهم في الدّنيا من دون الله؟! ادعوهم يخلصونكم مما أنتم فيه! أجابوهم : غابوا عنّا وذهبوا ، فلا ندري مكانهم ، ولا نرجو منهم النّفع والخير ، ولا دفع الضّرّ.

وأقرّوا واعترفوا على أنفسهم بأنهم كانوا بدعائهم وعبادتهم إيّاهم كافرين.

ومفاد هذا زجر الكفار عمّا هم عليه من الكفر ، ودفعهم إلى النّظر والتّأمل في عواقب أمورهم القائمة على الكفر والضّلال.

ونظير المعنى في هذه الآية قوله تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ. مَتاعٌ فِي الدُّنْيا ، ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ، ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ**﴾ [يونس ١٠ / ٦٩ ـ ٧٠] ، وقوله : ﴿**وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ ، إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ، فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ. نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ**﴾ [لقمان ٣١ / ٢٣ ـ ٢٤].

ثمّ أخبر الله تعالى عمّا تقوله الملائكة لهؤلاء المشركين به ، المفترين عليه ، المكذّبين بآياته : ادخلوا النّار مع أمم أمثالكم وعلى صفاتكم ، قد سبقتكم في الكفر ، سواء من الجنّ والإنس ، فالقائل : إما مالك خازن النّار ، أو هو الله عزّ وجلّ ، أي قال الله : ادخلوا.

كلّما دخلت جماعة منهم النّار ، ورأت العذاب والخزي والنّكال ، لعنت أختها في الملّة والدّين التي ضلّت بالاقتداء بها ، إذ هي قد ضلّت باتّباعها وتقليدها في الكفر ، كما قال تعالى : ﴿**ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ، وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ**

بَعْضاً﴾ [العنكبوت ٢٩ / ٢٥] ، وهكذا يلعن أصناف الكفار بعضهم بعضا ، ويتبرأ بعضهم من بعض ، كما قال تعالى : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ، وَرَأَوُا الْعَذابَ ، وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ ، وَقالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا : لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا ، كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ ، وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة ٢ / ١٦٦ ـ ١٦٧].

حتى إذا تداركوا وتلاحقوا في النّار ، واجتمعوا فيها كلّهم ، قالت أخراهم دخولا أو منزلة ، وهم الأتباع والسّفلة ، لأولاهم منزلة أو دخولا ، وهم المتبوعون والقادة والرؤساء ، لأنهم أشدّ جرما من أتباعهم ، فدخلوا قبلهم ، قالت قولا يتضمن شكوى الأتباع إلى الله يوم القيامة ، لأنهم هم الذين أضلّوهم عن سواء السّبيل. قال الزّمخشري : معنى ﴿لِأُولاهُمْ﴾ : لأجل أولاهم ، لأن خطابهم مع الله ، لا معهم. أي قالوا في شأنهم وحقّهم ولأجل إضلالهم.

وتلك الشكوى أنهم يقولون مخاطبين الله : ربّنا هؤلاء السّادة أضلّونا عن الحقّ ، فأعطهم عذابا مضاعفا من النّار ، أي ضاعف عليهم العقوبة ، كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ : يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا. وَقالُوا : رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا. رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ ، وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٦٦ ـ ٦٨].

فأجابهم الله : لكلّ منكم ومنهم عذاب مضاعف ، وقد فعلنا ذلك ، وجازينا كلّا بحسبه إما بالإضلال أو بالتقليد والضلال ، لأن كلّا من القادة والأتباع كانوا ضالّين مضلّين ، ولكنّكم لا تعلمون عذابهم. والضّعف : المثل الزّائد على مثله مرّة أو مرّات. وهو مثل قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ بِما كانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل ١٦ / ٨٨] ، وقوله : ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ﴾ [العنكبوت ٢٩ / ١٣] ، وقوله : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل ١٦ / ٢٥].

﴿وَقالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ ...﴾ أي قال المتبوعون للأتباع : إذا كنا قد أضللناكم ، فليس لكم فضل علينا ، فقد ضللتم كما ضللنا ، فنحن وأنتم سواء في استحقاق الضعف ، أي قد كفرتم وفعلتم كما فعلنا ، فليس تستحقون تخفيفا من العذاب.

فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ، أي تلقوا عذاب الله بما تسببتم به من الكفر والضلال. وهذا من قول القادة ، أو من قول الله لهم جميعا. وهو مثل قوله تعالى : ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ. قالُوا : إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ. قالُوا : بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ. وَما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ ، بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ. فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا : إِنَّا لَذائِقُونَ. فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ. فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الصّافات ٣٧ / ٢٧ . ٣٣]. والمقصود من قوله : ﴿فَذُوقُوا الْعَذابَ﴾ التّخويف والزّجر ، لأنه تعالى لما أخبر عن الرؤساء والأتباع أن بعضهم يتبرأ من بعض ، ويلعن بعضهم بعضا ، كان ذلك سببا لوقوع الخوف الشديد في القلب.

فقه الحياة أو الأحكام :

أيّ ظلم أشنع من الافتراء على الله تعالى بالتّحليل والتّحريم من غير حكم الله ، والتّكذيب بآيات الله قولا أو استهزاء أو استكبارا عن اتّباعها؟!

وبالرغم من هذا فإنّ هؤلاء المكذّبين ينالهم ما كتب لهم من رزق وعمر وعمل ، وما وعدوا به من خير وشرّ.

ومعنى : ما كتب لهم في اختيار الطّبري ، وهو المروي عن ابن زيد وابن عباس وابن جبير : ما قدر لهم من خير وشرّ ورزق وعمل وأجل.

والمقرر أن السّادة والأتباع في الكفر سواء ، يدخلون النّار ، ويضاعف لهم العذاب ، إما بالإضلال وهو فعل السّادة ، أو بالتّقليد وإهمال العقل ، وهو فعل

الأتباع. والتّعذيب ليس تشفّيا وانتقاما ، وإنما هو بسبب اقتراف السّيئات واعتقاد الكفر.

جزاء الكافرين

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ وَكَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١)﴾

الإعراب :

﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ﴾ : ﴿غَواشٍ﴾ : مبتدأ مرفوع ، وخبره : ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ﴾. وأصل ﴿غَواشٍ﴾ : ألا ينصرف ، لأنه جمع بعد ألفه حرفان على وزن فواعل ، وهو جمع غاشية ، إلا أن التّنوين دخلها عوضا عن حذف الياء.

البلاغة :

﴿لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ﴾ كناية عن عدم قبول العمل يوم القيامة. ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ﴾ فيه تشبيه ضمني ، أي لا يدخلون الجنة إلا إذا دخل الجمل في ثقب الإبرة ، وهو تمثيل للاستحالة.

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ﴾ استعارة لما يحيط بهم من كلّ جانب مثل قوله : ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ ، وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر ٣٩ / ١٦].

المفردات اللغوية :

﴿بِآياتِنا﴾ أدلّتنا على أصول الدّين وأحكام الشّرع ، كأدلّة إثبات وجود الله ووحدانيته ، وإثبات النّبوة ، والبعث والحساب والجزاء في الآخرة. ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها﴾ تكبّروا عنها فلم يؤمنوا بها. ﴿لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ﴾ لا يصعد لهم عمل صالح ولا دعاء ، أو لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء إذا عرج بأرواحهم إليها بعد الموت ، فيهبط بها إلى سجّين (جهنم) بخلاف المؤمن ، فتفتح له ، ويصعد بروحه إلى السماء السابعة ، كما ورد في الحديث.

﴿يَلِجَ﴾ يدخل. ﴿الْجَمَلُ﴾ البعير الذي نبت نابه. ﴿سَمِّ الْخِياطِ﴾ ثقب الإبرة ، وهو غير ممكن ، فكذا دخولهم الجنة مستحيل. ﴿وَكَذلِكَ﴾ الجزاء. ﴿نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ بالكفر ،

والمراد بالإجرام : كلّ إفساد ، كإفساد الفطرة بالكفر. ﴿مِهادٌ﴾ فراش. ﴿غَواشٍ﴾ أغطية من النّار ، جمع أغشية ، وتنوينه عوض من الياء المحذوفة.

المناسبة :

المقصود من هذه الآيات إتمام وعيد الكفار ؛ لأنه تعالى أخبر في الآية المتقدمة عن خلود المكذّبين بالقرآن في النّار ، المستكبرين عن الإيمان بالله والنّبي والمعاد ، ثم أخبر عن استحالة دخولهم الجنة ، وعدم قبول أعمالهم الصالحة.

التفسير والبيان :

إن الذين كذبوا بآياتنا الدّالة على وحدانيتنا وصدق نبيّنا وصحّة النّبوات وإثبات المعاد ، لا يصعد لهم عمل صالح ؛ لخبث أعمالهم ، وإنّما يتقبّل الله من المتّقين ، ويقبل العمل الصالح ، ويرفع إليه الكلم الطيّب : لقوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر : ٣٥ / ١٠] ، وقوله : ﴿كَلَّا ، إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين ٨٣ / ١٨] ، فلا تفتح لأعمالهم وأرواحهم أبواب السّماء ، وهذا فيه جمع بين القولين في تفسير هذه الآية.

ولا يدخلون الجنّة أبدا بحال ، فهم مطرودون من رحمة الله ، فدخولهم الجنة مستحيل ، لقوله : ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ﴾ وهذا أسلوب شائع بين العرب للدّلالة على الاستحالة ، فهم يقولون : لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب ، وحتى يبيضّ القار (الزّفت) وحتى يدخل الجمل في سمّ الخياط. وروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير أنّ المراد : حتى يدخل الجمّل أي الحبل الغليظ في خرق الإبرة ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن الله أحسن تشبيها من أن يشبه بالجمل ، يعني أن الحبل مناسب للخيط الذي يسلك في سمّ الإبرة ، والبعير لا يناسبه. قال الزّمخشري : إلا أن قراءة العامة ﴿الْجَمَلُ﴾ أوقع ، لأنّ سمّ الإبرة مثل في ضيق المسلك ، يقال : أضيق من خرت الإبرة ، والجمل مثل في عظم الجرم.

﴿وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي كلّ من أجرم في حقّ الله ، وفي حقّ نفسه ، وفي حقّ إخوانه المسلمين ، ليدلّ على أنّ الاجرام هو السّبب المؤدّي إلى العقاب ، وأن كلّ من أجرم عوقب. ثم كرر ذلك في آخر الآية التالية فقال : ﴿وَكَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ لأن كلّ مجرم ظالم لنفسه.

ولهؤلاء المجرمين من نار جهنّم فراش يفترشونه من تحتهم ، وأغطية من فوقهم ، والمراد أن النّار محيطة بهم ، مطبقة عليهم من كلّ جانب ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ﴾ [الهمزة ١٠٤ / ٨] ، وقال : ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ﴾ [التوبة ٩ / ٤٩] ، وقال : ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ﴾ [الزمر ٣٩ / ١٦].

﴿وَكَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ومثل هذا الجزاء نجزي الظالمين لأنفسهم ولغيرهم من الناس. وهذا دليل على أن المجرمين والظالمين هم الكافرون : لقوله تعالى : ﴿وَالْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة ٢ / ٢٥٤] ، وبدليل أن الذين تقدّم ذكرهم هم المكذبون بآيات الله.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآيتان على ما يلي :

١ ـ أعمال الكافرين المكذبين بآيات الله ، المستكبرين عنها غير مقبولة ، فلا تفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم أبواب السماء.

٢ ـ إنّ الجنّة في السّماء ؛ لأنّ المعنى : لا يؤذن لهم في الصّعود إلى السّماء ، ولا تطرق لهم ليدخلوا الجنّة.

٣ ـ يستحيل على الكفار دخول الجنة ، فلا يدخلونها البتة ، ويحرمون منها أبدا وفي كلّ الأحوال.

٤ ـ عذاب النّار يحيط بالكافرين من كلّ جانب ، فلا يجدون فيها منفذا للخروج منها ، أو التّخفيف من العذاب ، فلهم منها غطاء ووطاء ، وفراش ولحاف.

٥ ـ المجرمون : هم الكافرون ؛ لأن الذين تقدّمت صفتهم هم المكذبون بآيات الله ، المستكبرون عنها. والظالمون أيضا : هم الكافرون ؛ لأنهم الذين أشركوا بالله واتّخذوا من دونه إلها.

جزاء المؤمنين المتقين

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللهُ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾

الإعراب :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ... الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مبتدأ ، وخبره : ﴿أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ﴾. و ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها﴾ اعتراض وقع بين المبتدأ وخبره. ويجوز أن يكون التقدير فيه : لا نكلف نفسا منهم ، فحذف «منهم» كقوله تعالى : ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ ، إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى ٤٢ / ٤٣] أي إن ذلك الصبر منه ، أي من الصابر. وقال الرازي : إنما حسن وقوع هذا الكلام المعترض بين المبتدأ والخبر ، لأنه من جنس الكلام ؛ لأنه لما ذكر عملهم الصالح ، ذكر أن ذلك العمل في وسعهم.

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ تَجْرِي﴾ جملة فعلية حال من الضمير ﴿صُدُورِهِمْ﴾ في ﴿صُدُورِهِمْ﴾.

﴿لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللهُ﴾ : أن وصلتها : في موضع رفع بالابتداء ، والخبر محذوف ، أي : لولا

هداية الله موجودة ، لهلكنا أو شقينا. ولا يجوز إظهار خبر المبتدأ بعد : ﴿لَوْ لا﴾ لطول الكلام بها ، كما لا يجوز إظهاره بعد القسم في قوله تعالى : ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر ١٥ / ٧٢] أي لعمرك قسمي ، فلا يجوز إظهار الخبر لطول الكلام بجواب القسم.

﴿أَنْ تِلْكُمُ﴾ أن مخففة من الثقيلة تقديره : ونودوا بأنه تلكم الجنة ، والضمير ضمير الشأن ، أو مفسرة ، أي معنى تفسير النداء ، والمعنى : ونودوا ، أي تلكم الجنة ، وهو الأجود عند الرازي.

المفردات اللغوية :

﴿وُسْعَها﴾ طاقتها من العمل في الأحوال العادية ، لا في وقت الشدة والضيق. ﴿وَنَزَعْنا﴾ قلعنا. ﴿غِلٍ﴾ حقد أو حسد وعداوة كان بينهم في الدنيا. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ﴾ تحت قصورهم. ﴿وَقالُوا﴾ عند الاستقرار في منازلهم. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا﴾ أي وفقنا لموجب هذا الفوز العظيم ، وهو الإيمان والعمل الصالح. ﴿وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ اللام لتوكيد النفي ، يعنون : وما كان يستقيم أن نكون مهتدين ، لو لا هداية الله وتوفيقه.

﴿لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِ﴾ فكان لنا لطفا وتنبيها على الاهتداء ، فاهتدينا ، يقولون ذلك سرورا واغتباطا بما نالوا ، وتلذذا بالتكلم به ، لا تقربا وتعبدا.

﴿أُورِثْتُمُوها﴾ صارت إليكم كما يصير الميراث إلى أهله.

المناسبة :

جرت سنة القرآن الجمع بين الوعيد والوعد ، فبعد أن ذكر سبحانه وعيد الكافرين والعصاة ، أتبعه بوعد المؤمنين الطائعين.

التفسير والبيان :

لما ذكر الله تعالى حال الأشقياء وجزاءهم ، عطف عليه بيان حال السعداء وجزاءهم ، ليتميز المؤمن عن الكافر ، والمحق عن المبطل ، فقال : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا ..﴾ أي والذين صدقوا بالله ورسله ، وعملوا الصالحات ، بامتثال الأوامر واجتناب النواهي ، هم أهل الجنة دون سواهم ، وهم المخلدون فيها أبدا.

وجاء قوله تعالى : ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها﴾ جملة اعتراضية ، للتنبيه

على أن الجنة مع عظم محلها يوصل إليها بالعمل السهل من غير تحمل الصعب ، وأن العمل الصالح الموصل إلى الجنة سهل غير صعب ، فهو ليس شاقا ولا خارجا عن طاقة البشر ، بل يسهل على كل إنسان فعله ، متى توافر الإيمان ، وتأيد بهدي القرآن.

ومعنى الوسع : ما يقدر الإنسان عليه في حال السعة والسهولة ، لا في حال الضيق والشدة.

ومن نعم الله تعالى على أهل الجنة صفاء نفوسهم وسلامة صدورهم ، لا يكدرهم كدر ، ولا يؤلمهم ألم ، ولا يحزنهم فزع ، ولا يحدث بينهم شر ؛ لأن الله نزع ما في صدورهم من حسد وحقد وعداوة وغل ونحوها من أمراض النفوس في الدنيا.

جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا خلص المؤمنون من النار ، حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى اذهبوا ونقوا ، أذن لهم في دخول الجنة ، فو الذي نفسي بيده ، إن أحدهم بمنزلة في الجنة أدل منه بمسكنة الذي كان في الدنيا».

وروى ابن أبي حاتم عن الحسن البصري قال : بلغني أن النّبي ﷺ قال : «يحبس أهل الجنة بعد ما يجوزون الصراط ، حتى يؤخذ لبعض من بعض ظلاماتهم في الدنيا ، فيدخلون الجنة ، وليس في قلوب بعضهم على بعض غلّ».

وروى ابن جرير الطبري عن قتادة قال : قال علي رضي الله عنه : إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿**وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً**﴾ [الحجر ١٥ / ٤٧].

وروى عبد الرزاق عن الحسن قال : قال علي : فينا والله أهل بدر نزلت : ﴿وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍ﴾.

وقال المؤمنون شاكرين نعمة الله وفضله : الحمد لله الذي هدانا في الدنيا للإيمان الصحيح والعمل الصالح ، الذي كان جزاؤه هذا النعيم ، وما كان من شأننا ومستوى تفكيرنا أن نهتدي إليه بأنفسنا ، لو لا هداية الله وتوفيقه إيانا لاتباع رسله.

وقالوا أيضا حين رأوا مطابقة كل شيء لما أخبر به الرسل : لقد جاءت رسل الله بالحق ، وهذا مصداق وعد الله على لسان رسله.

وناداتهم الملائكة : سلام عليكم طبتم ، فادخلوها خالدين ، هذه الجنة التي أورثكم الله إياها جزاء أعمالكم الصالحة.

أخرج سعيد بن منصور والبيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «وما منكم من أحد إلا وله منزلان : منزل في الجنة ، ومنزل في النار ، فإذا مات فدخل النار ، ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قوله : ﴿أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ﴾.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيتان على ما يأتي :

١ ـ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

٢ ـ التكليف على قدر الطاقة والوسع ، سواء في التكاليف الشرعية من عبادات وفرائض ، أو في التكاليف المالية كنفقات الزوجات ونحوها.

٣ ـ من نعم الله عزّ وجلّ على أهل الجنة : نزع الغلّ الذي كان في الدنيا من صدورهم. والنزع : الاستخراج ، والغلّ : الحقد الكامن في الصدر.

٤ ـ استحقاق إرث الجنة من جهة العدل بالعمل الصالح ، ففي قوله تعالى : ﴿أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ دليل على أن الإنسان يدخل الجنة بعمله. لكن دخولها يكون برحمة الله وفضله ، كما قال تعالى : ﴿ذلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ﴾ [النساء ٤ / ٧٠] وقال : ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ﴾ [النساء ٤ / ١٧٥].

وجاء في صحيح مسلم : «لن يدخل أحدا منكم عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

يتبين من هذا أن إرث منازل الجنة بالعمل ، ودخولها بالرحمة والفضل الإلهي وهذا رأي القرطبي الذي قال : وبالجملة فالجنة ومنازلها لا تنال إلا برحمته ، فإذا دخلوها بأعمالهم ، فقد ورثوها برحمته ، ودخلوها برحمته ، إذا أعمالهم رحمة منه لهم وتفضل عليهم [١]. وهذا قريب من رأي ابن كثير ، فإنه قال : بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة ، وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم [٢].

ويمكن التوفيق بنحو آخر أولى وهو أن عمل الإنسان مهما كثر لا يستحق به الجنة لذاته ، لو لا رحمة الله وفضله ، فإنه جعل الجزاء العظيم على العمل القليل ، فصار دخول الجنة برحمة الله وفضله.

والخلاصة : العمل الصالح في رأي أهل السنة لا بد منه لدخول الجنة في ميزان العدل وإيجاد تكافؤ الفرص بين جميع الناس ، لكن لا بد أن ينضم إليه رحمة الله وفضله ، فإنه جعل الجنة جزاء العمل فضلا منه ورحمة ، وكافأ على القليل بالكثير فضلا منه ورحمة ، لا أن ذلك مستحق عليه وواجب للعبادة وجوب الديون التي لا اختيار في أدائها ، كما فهم المعتزلة ؛ لأنه يستحيل عقلا إيجاب شيء على الله تعالى.

---

(١) تفسير القرطبي : ٧ / ٢٠٨ ـ ٢٠٩

(٢) تفسير ابن كثير : ٢ / ٢١٥

محاورة بين أهل الجنة وبين أهل النار والأعراف

﴿وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ (٤٥) وَبَيْنَهُما حِجابٌ وَعَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلاً بِسِيماهُمْ وَنادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوها وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧)﴾

الإعراب :

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ أَنْ﴾ بالتخفيف ، مخففة من الثقيلة ، وتقديره : أنّه لعنة الله ، فخفف وحذف اسمها وإحدى النونين وهي الأخيرة لأنها الطرف. ويجوز أن تكون ﴿أَنْ﴾ المخففة بمعنى «أي» مفسرة ، ولا موضع لها من الإعراب.

وتقرأ أنّ بالتشديد أيضا مع الفتح ، وتنصب اللعنة بها. ومن قرأ : إنّ بكسر الهمزة مع التشديد ، فإنه قدر القول كأنه قال : إن لعنة الله. و ﴿بَيْنَهُمْ﴾ منصوب على الظرف ، والعامل ﴿مُؤَذِّنٌ﴾ عند البصريين لأنه أقرب إليه من أذن ، وهو أذن عند الكوفيين ، لأنه الأول والعناية به أكثر.

﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ جملة فعلية في موضع رفع ؛ لأنها صفة لرجال.

﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ بِسِيماهُمْ﴾ مبتدأ ، و ﴿يَطْمَعُونَ﴾ جملة فعلية في موضع خبر المبتدأ ، والمبتدأ وخبره في موضع نصب على الحال من الضمير المرفوع في ﴿يَدْخُلُوها﴾. ومعناه : أنهم يئسوا من الدخول ، فلم يكن لهم طمع فيه ، ولكنهم دخلوا وهم على يأس من ذلك.

المفردات اللغوية :

﴿وَنادى﴾ للتقرير والتبكيت. ﴿ما وَعَدَنا رَبُّنا﴾ من الثواب ، والوعد يشمل الخير

والشر. ﴿ما وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ من العذاب وتسميته هنا وعدا تهكم أو من قبيل المشاكلة. ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نادى مناد ، والأذان : رفع الصوت بالإعلام بالشيء. ﴿لَعْنَةُ اللهِ﴾ اللعنة : الطرد من رحمة الله مع الإهانة والخزي. ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ يطلبون السبيل. ﴿عِوَجاً﴾ معوجا أو ذا عوج أي غير مستقيم ، والعوج : للمرئيات ، والعوج : لغير المرئي كالقول والرأي. ﴿حِجابٌ﴾ حاجز أو سور بين الجنة والنار. ﴿وَعَلَى الْأَعْرافِ﴾ جمع عرف وهو أعلى الشيء وكل مرتفع من الأرض وغيرها ، والمراد هنا : سور الجنة. ﴿رِجالٌ﴾ استوت حسناتهم وسيئاتهم. ﴿بِسِيماهُمْ﴾ بعلامتهم ، وهي بياض وجوه المؤمنين ، وسواد وجوه الكافرين ، لرؤيتهم لهم ، إذ موضعهم عال. ﴿لَمْ يَدْخُلُوها﴾ أي أن أصحاب الأعراف لم يدخلوها الجنة. ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ في دخولها. ﴿صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ﴾ حوّلت أبصار أهل الأعراف. ﴿تِلْقاءَ﴾ جهة.

المناسبة :

لما بيّن الله تعالى وعيد الكفار وثواب أهل الطاعة والإيمان ، أتبعه بذكر المناظرات التي تدور بين الفريقين ، بعد استقرار كل فريق في موضعه من النار أو الجنة.

وهذه المناظرة تشعر بأن أهل الجنة يشرفون من علو على أهل النار ، وأن بعضهم يخاطب بعضا ليزداد أهل الجنة معرفة بمقدار النعمة ، ويزداد أهل النار حسرة على ما فرطوا في الدنيا.

ومع أن الجنة في أعلى السموات والنار في أسفل الأرضين ، فيمكن حصول هذا النداء مع هذا البعد الشديد ، لأن لعالم الآخرة أحوالا تختلف عن عالم الدنيا ، فيستطيع الإنسان أن يسمع ويرى من بعيد ، ولأن البعد والقرب ليس من موانع الإدراك ، كما قال الرازي.

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى بما يخاطب به أهل النار تقريعا وتوبيخا ، وأن هذا النداء : ﴿وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ﴾ إنما يحصل بعد استقرار الفريقين في

الجنة والنار ، بدليل ما ذكر في الآية المتقدمة من قوله تعالى : ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها﴾.

وقوله تعالى : ﴿وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ﴾ يفيد العموم ، فهل النداء يقع من كل أهل الجنة لكل أهل النار ، أو من البعض للبعض؟ الجواب أن الجمع إذا قوبل بالجمع يوزع الفرد على الفرد ، وكل فريق من أهل الجنة ينادي من كان يعرفه من الكفار في الدنيا.

والمعنى : إن أصحاب الجنة بعد استقرارهم فيها ينادون أهل النار بعد استقرارهم فيها أيضا ، قائلين : قد وجدنا ما وعدنا ربنا على ألسنة الرسل من النعيم والتكريم حقا ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم من الخزي والنكال حقّا؟

والسؤال يتضمن تقرير أهل الجنة بصدق ما بلّغهم الرسل من وعد ربهم ، وتقريع وتوبيخ أهل النار على ما حدث منهم من جناية على أنفسهم بتكذيب الرسل. ﴿قالُوا : نَعَمْ﴾ قال سيبويه : «نعم : عدة أو تصديق» والمعنى أنهم أجابوا بالإيجاب ، فإنا وجدنا ما وعدنا به ربنا على الكفر ، وها نحن نتلظى في عذاب النار. وهذا يدل على أن الكفار يعترفون يوم القيامة ، بأن وعد الله ووعيده حق وصدق.

وهذا التقريع من الله يعقبه تقريع من الملائكة يقولون لهم : ﴿هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ. أَفَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ. اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا ، سَواءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور ٥٢ / ١٤ ـ ١٦].

وقد قرّع رسول الله ﷺ في الدنيا قتلى القليب (البئر) من الكفار يوم بدر فنادى : «يا أبا جهل بن هشام ، ويا عتبة بن ربيعة ، ويا شيبة بن ربيعة ـ وسمى رؤوسهم ـ هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ، فإني وجدت ما وعدني ربي حقا» وقال عمر : يا رسول الله ، تخاطب قوما قد جيفوا ، فقال : «والذي نفسي

بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا».

وكانت نتيجة الحوار أو المناظرة أن أذن مؤذن ، أي أعلم معلم ونادى مناد : أن لعنة الله على الظالمين ، أي لعنة الله (الطرد من رحمته) مستقرة عليهم ؛ لأنهم ظلموا أنفسهم بعدم الإيمان. والمؤذن : إما مالك خازن النار ، وإما ملك غيره.

ثم وصف الظالمين بقوله : ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ ...﴾ أي الذين يمنعون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء ، ويطلبون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة ، حتى لا يتبعها أحد.

﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ أي وهم بلقاء الله في الدار الآخرة كافرون ، أي جاحدون مكذبون بذلك ، لا يصدقونه ولا يؤمنون به ، فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل ؛ لأنهم لا يخافون حسابا عليه ولا عقابا ، فهم شر الناس أقوالا وأعمالا.

وبين الفريقين : أهل الجنة وأهل النار حجاب أي حاجز مانع من وصول أهل النار ، وهو السور الذي قال الله تعالى فيه : ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ ، لَهُ بابٌ ، بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ، وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد ٥٧ / ١٣].

وأعالي السور هي الأعراف التي قال الله تعالى فيها : ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ ..﴾ أي على أعالي ذلك السور رجال يرون أهل الجنة وأهل النار ، ويعرفون كلا منهم بعلامتهم من بياض وجوه المؤمنين وسواد وجوه الكافرين ، كما وصفهم الله بها في قوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ، ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ، تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ، أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس ٨٠ / ٣٨ ـ ٤٢].

وأهل الأعراف : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، وهم موحدون قصرت

بهم سيئاتهم عن الجنة ، وتجاوزت بهم حسناتهم النار ، وقفوا هناك حتى يقضى الله فيهم. روى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : سئل رسول الله ﷺ عمن استوت حسناته وسيئاته فقال : «أولئك أصحاب الأعراف ، لم يدخلوها وهم يطمعون».

وأخرج أبو الشيخ ابن حيان الأنصاري والبيهقي وغيرهما عن حذيفة قال : «هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار ، وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة ، جعلوا هناك حتى يقضى بين الناس ، فبينما هم كذلك ، إذ طلع عليهم ربك فقال لهم : اذهبوا فادخلوا الجنة ، فإني قد غفرت لكم».

﴿وَنادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ ...﴾ أي ونادى أصحاب الأعراف أهل الجنة قائلين لهم : سلام عليكم ، وهو تحية خالصة بعد دخول الجنة ؛ لقوله تعالى : ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا تَأْثِيماً ، إِلَّا قِيلاً : سَلاماً سَلاماً﴾ [الواقعة ٥٦ / ٢٥ ـ ٢٦].

نادوهم مسلّمين عليهم ، حال كونهم لم يدخلوا الجنة ، ولكنهم يطمعون في دخولها ، لما بدا لهم من يسر الحساب ، ولعلهم بسعة رحمة الله وفضله. تلا الحسن البصري هذه الآية: ﴿لَمْ يَدْخُلُوها وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ فقال : والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم. والناس في ذلك الموقف يكونون بين الرجاء والخوف ، روى أبو نعيم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : لو نادى مناد : يا أهل الموقف ، ادخلوا النار إلا رجلا واحدا ، لرجوت أن أكون ذلك الرجل ، ولو نادى : ادخلوا الجنة إلا رجلا واحدا ، لخشيت أن أكون ذلك الرجل.

وإذا حولت أبصار أهل الأعراف نحو أهل النار من غير قصد ، فرأوا وجوههم مسودة ، وأعينهم مزرقة ، قالوا متضرعين إلى الله تعالى : ربنا لا تجعلنا مع هؤلاء القوم الظالمين أنفسهم.

والآية تدل على أنهم ينظرون إلى أصحاب الجنة بالقصد والرغبة ، ويسلّمون عليهم ، ويكرهون رؤية أهل النار ، فإذا صرفت أي حولت أعينهم من غير قصد ولا رغبة إلى جهة أهل النار ، استغاثوا وتضرعوا ألا يكونوا معهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ تستهدف المناظرة أو الحوار أو المناداة بين أهل الجنة وأهل النار تقريع الكفار وتعييرهم ، ثم تحسم المناظرة بصوت مناد ينادي من الملائكة بأعلى صوته : ﴿**لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾.

٢ ـ الآية تدل على أن الكفار يعترفون يوم القيامة بأن وعد الله ووعيده حق وصدق ، ولا يمكن ذلك إذا كانوا عارفين يوم القيامة بذات الله وصفاته.

٣ ـ أوقع المؤذن لعنة الله على من كان متصفا بصفات أربع :

أ ـ هي كونهم ظالمين أي مشركين أو كفارا بدليل وقوع المناظرة بين أهل الجنة وبين الكفار.

ب ـ وكونهم يصدون عن سبيل الله ، أي يمنعون الناس من قبول الدين الحق ، إما بالزجر وإما بالحيل.

ج ـ كونهم يبغونها عوجا أي يلقون الشكوك والشبهات في دلائل الدين الحق.

د ـ وهم بالآخرة كافرون ، وهذا تصريح بأن تلك اللعنة ما وقعت إلا على الكافرين.

٤ ـ إن أصحاب الأعراف أي السور القائم بين الجنة والنار ، يترددون بين

حالين : ينادون أصحاب الجنة ويسلّمون عليهم ويتأملون دخول الجنة فضلا من الله ورحمة ، وهم لم يدخلوها بعد ، ولكنهم يعلمون أنهم يدخلون. ويرون أهل النار فجأة من غير قصد ولا رغبة ، فيسألون الله تذللا وتضرعا ألا يجعلهم معهم ، وقد علموا أنه لا يجعلهم معهم.

وأصحاب الأعراف : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، في رأي جماعة من الصحابة والتابعين ، قال ابن عطية : وفي مسند خيثمة بن سليمان حديث عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «توضع الموازين يوم القيامة ، فتوزن الحسنات والسيئات ، فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال صؤابة [١] ، دخل الجنة ؛ ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال صؤابة دخل النار. قيل : يا رسول الله ، فمن استوت حسناته وسيئاته؟ قال : أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون».

المناظرة بين أصحاب الأعراف وأصحاب النار

﴿وَنادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ قالُوا ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩)﴾

الإعراب :

﴿أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ﴾ الهمزة في ﴿أَهؤُلاءِ﴾ : همزة الاستفهام ، و ﴿هؤُلاءِ﴾ : مبتدأ ، و ﴿الَّذِينَ﴾ : خبر مبتدأ محذوف تقديره : أهؤلاء هم الذين أقسمتم عليهم ،

---

(١) الصؤابة : بيض القملة.

فحذف عليهم. و ﴿لا يَنالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ﴾ : جواب ﴿أَقْسَمْتُمْ﴾ ، والقسم وجوابه في صلة ﴿الَّذِينَ﴾.

﴿لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ ..﴾ جملة النفي حال ، أي مقولا لهم ذلك.

المفردات اللغوية :

﴿رِجالاً﴾ من أصحاب النار. ﴿ما أَغْنى عَنْكُمْ﴾ من النار. ﴿جَمْعُكُمْ﴾ المال أو كثرتكم واجتماعكم. ﴿وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي واستكباركم عن الإيمان. ﴿أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ ...﴾ أي ويقول أصحاب الأعراف لأهل النار مشيرين لهم إلى ضعفاء المسلمين.

المناسبة :

لما بيّن الله تعالى أثر التفاتة أصحاب الأعراف على أصحاب النار بقوله : ﴿وَإِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ ...﴾ أتبعه أيضا بأن أصحاب الأعراف ينادون رجالا من أهل النار. واستغنى عن ذكر أهل النار لأجل أن الكلام لا يليق إلا بهم ، وهو قولهم : ﴿ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ وذلك لا يليق إلا بمن يبكت ويوبخ ، ولا يليق أيضا إلا بأكابرهم.

التفسير والبيان :

هذا نداء آخر من بعض أصحاب الأعراف لبعض المستكبرين الذين يعتمدون على قوتهم وغناهم ، ويحتقرون ضعفاء المؤمنين لفقرهم وضعفهم ، مضمونه الإخبار عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم ، يعرفونهم في النار بسيماهم وعلامتهم المميزة لهم.

ينادي بعض أهل الأعراف رجالا من المشركين يعرفونهم بعلاماتهم وهي سواد الوجوه وما عليها من الغبرة وزرقة العيون ، وتشوية الخلقة ، فيقولون لهم : ما أغنى عنكم جمع المال ، أو اجتماعكم وكثرتكم ، ولا استكباركم عن الإيمان برسالة محمد ، أي لم تنفعكم كثرتكم ، ولا جموعكم ولا تكبركم عن الإيمان من عذاب

الله ، بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال ، وكذلك لم ينفعكم تكبركم على الفقراء والمستضعفين المؤمنين.

وتبددت أفكاركم التي تزعم أن من أغناه الله في الدنيا ، وجعله قويا هو الذي له نعيم الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿**وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها : إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ ، وَقالُوا : نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلاداً ، وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**﴾ [سبأ ٣٤ / ٣٤ ـ ٣٥].

ثم سألوهم سؤال توبيخ وتأنيب عن حال المستضعفين الذين كانوا يضطهدونهم في الدنيا بسبب إيمانهم بمحمد ﷺ كصهيب الرومي وخبيب بن عدي وبلال الحبشي وآل ياسر، وأشاروا إليهم :

أهؤلاء هم الذين حلفتم في الدنيا ألا ينالهم الله برحمة لفقرهم وضعفهم وقلة أتباعهم ، وهم يرتعون في نعيم الجنة ويتمتعون بخيراتها ، والكفار يتحرقون في سعير جهنم؟!

ثم قال الله تعالى أو قالت الملائكة لأصحاب الأعراف الموقوفين على السور : ادخلوا الجنة ، لا خوف عليكم في المستقبل ، ولا يطرأ عليكم حزن في حاضركم.

وفائدة المحاورة والقول : تبيان أن الجزاء على قدر العمل ، والترغيب في التسابق في أعمال الخير ، وأن المعول عليه ليس هو المال والغنى والقوة ، وإنما المنظور إليه هو العمل الصالح ، وأن الطائعين يتميزون بالنضرة ، وأن العصاة يعرفون بالغبرة والزّرقة وتشوه الخلقة.

فقه الحياة أو الأحكام :

إن معايير التفاضل وموازين التقدم والتفوق في الآخرة تختلف عما هي عليه في الدنيا ، فليس المال والقوة والتجمع أساس العزة والسعادة والنجاة في الآخرة ،

وإنما الأساس هو الإيمان والعمل الصالح ، ففريق الزعماء المشركين الأشداء المتكبرين والأغنياء هم في النار ، وفريق المؤمنين الأتقياء الضعاف المتواضعين لله هم في أعالي الجنان.

وفضل الله ورحمته يشملان المقصرين أهل الأعراف الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم ، وهو رد على أهل النار الذين يحلفون أن أصحاب الأعراف يدخلون معهم النار ، فتقول الملائكة لأهل الأعراف : ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

ما يقوله أهل النار لأهل الجنة

أو استغاثة أهل النار بأهل الجنة لإمدادهم بالطعام والشراب

﴿وَنادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا وَما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (٥١)﴾

الإعراب :

﴿حَرَّمَهُما﴾ فعل ماض ، لم يقل : حرّمه ، وإن كان التقدير : أفيضوا علينا أحد هذين ، لأن أو هاهنا للإباحة ، وهي لتجويز الجمع كقولهم : جالس الحسن أو ابن سيرين. فيجوز أن يجمع بينهما ، فأشبهت الواو التي للجمع ، فحملت عليها. أي أنه ثنّى الفعل لأنه أقام ﴿أَوْ﴾ مقام الواو ، وإن كانت ﴿أَوْ﴾ لتجويز الجمع ، والواو لإيجاب الجمع.

﴿كَما نَسُوا﴾ .. ﴿وَما كانُوا كَما﴾ في الحالين في تأويل المصدر ، والأولى هي في موضع جر بالكاف ، وتقديره : فاليوم ننساهم كنسيانهم لقاء يومهم هذا. والثانية في موضع جر بالعطف على ﴿كَما﴾ الأولى.

المفردات اللغوية :

﴿أَفِيضُوا عَلَيْنا﴾ أفاض الماء : صبه ، ثم استعمله في الشيء الكثير. ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ من الطعام. ﴿حَرَّمَهُما﴾ منعهما. ﴿نَنْساهُمْ﴾ نتركهم في النار. ﴿كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا﴾ بتركهم العمل له. ﴿وَما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ﴾ أي وكما جحدوا أي أنكروا.

المناسبة :

الآيتان استمرار في محاورة الناس يوم القيامة ، فبعد أن بيّن الله تعالى الحوار بين أهل الجنة وأهل النار ، والحوار بين أصحاب الأعراف وأصحاب النار ، وما قاله الفريق الأول للثاني ، أتبعه بذكر ما يقوله أهل النار لأهل الجنة.

التفسير والبيان :

هذا مشهد من مشاهد سوء أهل النار يوم القيامة ، فالله يخبر عن ذلة أهل النار وسؤالهم الطعام والشراب من أهل الجنة ، وأنهم لا يجابون إلى ذلك.

ومعنى الآية : إن أهل النار يطلبون من أهل الجنة أن يفيضوا عليهم من النعم الكثيرة التي يتمتعون بها من شراب وطعام. وقوله : ﴿أَفِيضُوا﴾ معناه صبوا علينا من الماء أو النعم الشيء الكثير ، ومعنى قوله : ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ أي من غيره ، فيشمل الطعام والأشربة غير الماء. وقد استغاثوا بهم مع علمهم بأنهم لا يجابون أبدا ، بسبب الحيرة في أمرهم ، ولشدة حاجتهم إلى الماء ، كما يفعل كل مضطر ، كالغريق وغيره. وقوله : ﴿أَفِيضُوا﴾ فيه دليل على أن الجنة فوق النار.

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة ، طمع أهل النار بفرج بعد اليأس ، فقالوا : يا ربنا ، إن لنا قرابات من أهل الجنة ، فأذن لنا حتى نراهم ونكلمهم ، فأمر الله الجنة فتزحزحت ، ثم نظر أهل جهنم إلى قراباتهم في الجنة وما هم فيه من النعيم فعرفوهم ، ونظر أهل الجنة إلى قراباتهم من أهل جهنم فلم يعرفوهم ، وقد اسودّت وجوههم وصاروا خلقا آخر ، فنادى

أصحاب النار أصحاب الجنة بأسمائهم وقالوا : ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ﴾. وإنما طلبوا الماء خاصة لشدة ما في بواطنهم من الاحتراق واللهيب ، بسبب شدة حر جهنم.

وهذا القول يدل على أنهم طلبوا الماء مع جواز الحصول. وقال آخرون : بل مع اليأس ؛ لأنهم قد عرفوا دوام عقابهم.

وقال سعيد بن جبير في هذه الآية : ينادي الرجل أباه أو أخاه ، فيقول له : قد احترقت ، فأفض علي من الماء ، فيقال لهم : أجيبوهم ، فيقولون : ﴿إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ﴾.

ومعنى قوله تعالى : ﴿قالُوا : إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ﴾ : قال أهل الجنة : إن الله منع الكفار شراب الجنة وطعامها.

ثم وصف الله تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا ، باتخاذهم الدين لعبا ولهوا ، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفتها ، عما أمروا به من العمل للآخرة ، فقال : ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ ...﴾.

أي إن هؤلاء الكفار تلاعبوا بدينهم وما كانوا به مجدين ، أو اتخذوا اللهو واللعب دينا لأنفسهم ، وجعلوا ديدنهم أعمالا لا تزكي الأنفس ولا تفيد ، بل هي لهو يشغل الإنسان عن الجد ، أو لعب لا يقصد منه فائدة صحيحة ، فهي كأعمال الأطفال.

واغتروا في الحياة الدنيا بشهواتها وزخارفها وزينتها ولذاتها من الحرام والحلال. قال الرازي : ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا﴾ مجاز ؛ لأن الحياة الدنيا لا تغر في الحقيقة ، بل المراد أنه حصل الغرور عند هذه الحياة الدنيا ؛ لأن الإنسان يطمع في طول العمر ، وحسن العيش ، وكثرة المال ، وقوة الجاه ، فلشدة رغبته

في هذه الأشياء يصير محجوبا عن طلب الدين ، غرقا في طلب الدنيا [١].

وكان جزاء التلاعب واللهو والغرور ما قاله تعالى : ﴿فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ ...﴾ أي يعاملهم معاملة من نسيهم من الخير ؛ لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه ، كما قال تعالى : ﴿فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى﴾ [طه ٢٠ / ٥٢] وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة كقوله : ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة ٩ / ٦٧] وقوله : ﴿كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها ، وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى﴾ [طه ٢٠ / ١٢٦].

فمعنى قوله ﴿فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ﴾ : نعاملهم معاملة الشيء المنسي ، فلا يذكرون بخير ، وإنما يتركون في النار. ومعنى ﴿كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا﴾ : كما فعلوا بلقائه فعل الناسين ، فلم يخطر لهم ببال ولم يهتموا به ، وكما أنكروا آيات الله ، ورفضوا ما جاءت به الرسل.

والحاصل : أن الله تعالى يتركهم في عذاب النار ، كما تركوا العمل في الدنيا للقاء الله يوم القيامة ، وكما جحدوا بآيات الله.

وقد سمى الله جزاء نسيانهم بالنسيان من قبيل المشاكلة ، كما في قوله تعالى : ﴿وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها﴾ [الشورى ٤٢ / ٤٠] والمراد من هذا النسيان : أنه لا يجيب دعاءهم ولا يرحمهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية الأولى على أن شراب أهل الجنة وطعامهم ممنوع حرام على الكافرين. وهو تحريم قهر وعقاب.

ودلت الآية الثانية على إهمال الكافرين في عذاب جهنم ومعاملتهم معاملة المنسيين ، لنسيانهم واجباتهم نحو ربهم في الحياة الدنيا ، وعلل تعالى ذلك

---

(١) تفسير الرازي : ١٤ / ٩٣

بتعليلات مجملها أنهم كانوا كافرين ، وتفصيلها ووصف أحوالهم : أنهم اتخذوا دينهم لهوا أولا ، ثم لعبا ثانيا ، ثم غرتهم الحياة الدنيا ثالثا ، ثم صار عاقبة هذه الأحوال أنهم جحدوا بآيات الله ، وذلك يدل على أن حب الدنيا مبدأ كل آفة ، كما قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه البيهقي عن الحسن مرسلا ، وهو ضعيف : «حب الدنيا رأس كل خطيئة».

وأما من الناحية الفقهية بالمعنى الخاص فقد دلت الآية الأولى على أن سقي الماء من أفضل الأعمال. وقد سئل ابن عباس : أي الصدقة أفضل؟ فقال : الماء ، ألم تروا إلى أهل النار حين استغاثوا بأهل الجنة : ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ ، أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾. وروى أبو داود أن سعدا أتى النبي ﷺ فقال : «أي الصدقة أعجب إليك؟ قال : الماء» فدل على أن سقي الماء من أعظم القربات عند الله تعالى. وقد قال بعض التابعين : من كثرت ذنوبه فعليه بسقي الماء. وقد غفر الله ذنوب الذي سقى الكلب فيما رواه البخاري عن أبي هريرة ، فكيف بمن سقى رجلا مؤمنا موحدا وأحياه؟!

وفي حديث عائشة عن النبي ﷺ . فيما رواه ابن ماجه في السنن . عن النبي ﷺ : «من سقى مسلما شربة من ماء حيث يوجد الماء ، فكأنما أعتق رقبة ، ومن سقى مسلما شربة من ماء حيث لا يوجد الماء فكأنما أحياها».

واستدل بهذه الآية من قال : إن صاحب الحوض والقربة أحق بمائه ، وأن له منعه ممن أراده ؛ لأن معنى قول أهل الجنة : ﴿إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ﴾ لا حق لكم فيها. وروى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «والذي نفسي بيده لأذودنّ رجالا عن حوضي كما تذاد الغريبة من الإبل عن الحوض» قال المهلّب : لا خلاف أن صاحب الحوض أحق بمائه ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : «لأذودنّ رجالا عن حوضي».

فضل القرآن على البشر وحال المكذبين يوم القيامة بإظهار

الندم وطلب الشفاعة

﴿وَلَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣)﴾

الإعراب :

﴿هُدىً وَرَحْمَةً﴾ منصوبان على الحال من هاء ﴿فَصَّلْناهُ﴾ وتقديره : فصلناه هاديا ذا رحمة.

﴿يَوْمَ يَأْتِي يَوْمَ﴾ : منصوب على الظرف ، والعامل فيه ﴿يَقُولُ﴾.

﴿فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَيَشْفَعُوا﴾ : منصوب بتقدير أن بعد فاء الجواب ؛ لأنه جواب الاستفهام. ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ : مرفوع معطوف على الاستفهام قبله ، على تقدير : أو هل نردّ ؛ لأن معنى : هل لنا من شفعاء : هل يشفع لنا أحد أو هل نردّ؟ فعطفه على المعنى.

﴿فَنَعْمَلَ﴾ منصوب على جواب التمني بالفاء ، بتقدير (أن) حملا على مصدر ما قبله ، فالفاء في المعنى تعطف مصدرا على مصدر.

المفردات اللغوية :

﴿وَلَقَدْ جِئْناهُمْ﴾ أي أهل مكة ، وغيرهم مثلهم. ﴿بِكِتابٍ﴾ هو القرآن الكريم. ﴿فَصَّلْناهُ﴾ بيّناه أتم بيان بالأخبار والوعد والوعيد. ﴿عَلى عِلْمٍ﴾ أي عالمين بما فصل فيه.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ ما ينتظرون. ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ ما يؤول إليه أمره ، أي عاقبة ما فيه وما يؤول إليه من تبين صدقه وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد. ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ هو يوم القيامة. ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ﴾ تركوا الإيمان به. ﴿بِالْحَقِ﴾ أي بالأمر

الثابت. ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ أو هل نرد إلى الدنيا. ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ نوحد الله ونترك الشرك ، فيقال لهم : لا.

﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ غبنوها ؛ إذ صاروا إلى الهلاك. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي غاب عنهم وذهب. ﴿ما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من ادعاء الشرك.

المناسبة :

بعد أن أوضح الله تعالى أحوال أهل الجنة ، وأهل النار ، وأهل الأعراف ، وما يدور بين هذه الفرق الثلاث من حوار يحمل المكلف على الحذر والاحتراس والتأمل في العواقب ، أردف ذلك ببيان شرف هذا الكتاب الكريم وعظيم فضله ونفعه وحجيته على البشر كلهم ، وأنه أبطل معاذيرهم ، ثم ذكر حال المكذبين وما يحدث منهم يوم القيامة من ندم وحسرة ، وتمني العودة إلى الدنيا لإصلاح أعمالهم ، أو إنقاذهم بشفاعة الشفعاء.

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى بهذه الآية عن إبطال معاذير المشركين بإرسال الرسل إليهم بالكتاب الذي هو مفصّل مبيّن ، كقوله تعالى : ﴿كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ، ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود ١١ / ١].

لقد جئنا هؤلاء المشركين من أهل مكة وأمثالهم بكتاب كامل البيان وهو القرآن ، فصلنا آياته بالحكم والمواعظ والقصص والأحكام والوعد والوعيد ، على علم تام منا بما فصلناه به ، كقوله : ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء ٤ / ١٦٦] تصحيحا لعقيدتهم ، وتزكية لنفوسهم ، وسببا لسعادتهم ، وهدى ورحمة لمن يؤمن به ، ويعمل بأحكامه.

أوضح أصول الدين ، وندد بالشرك والوثنية ، ووضع الأنظمة الصالحة للبشر ، وحض على البناء والتقدم والحضارة من طريق تمجيد النظر والتأمل

والتفكير ، والحث عليها ، وذم التقليد دون بحث ولا تمحيص في آيات كثيرة ، منها ما يحث على النظر والتأمل مثل : ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد ١٣ / ٤] ومثل : ﴿قُلْ : هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ [البقرة ٢ / ١١١] ومنها ما يذم التقليد مثل : ﴿إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ ، وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٢٣].

هل ينتظر أي ما ينتظر هؤلاء الكفار إلا تأويله ، أي ما وعدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار ، قال الربيع : لا يزال يجيء من تأويله أمر ، حتى يتم يوم الحساب ، حين يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فيتم تأويله يومئذ.

ويوم يأتي تأويله يوم القيامة ، كما قال ابن عباس ، وتظهر حقائق ما أخبر به وصدق ما جاء به ، فيقول الذين تركوا العمل به وتناسوه في الدار الدنيا ، أي جعلوه كالشيء المنسي وأعرضوا عنه : قد جاءت رسل ربنا بالحق ، أي صدقوا في كل ما قالوا ، وصح أنهم جاؤوا بالحق ، وظهر أنه متحقق ثابت ، ولكنا نحن الذين أعرضنا عنه ، فجوزينا هذا الجزاء.

وأصبحوا يتمنون الخلاص بكل ما يمكن من أحد أمرين : إما شفاعة الشافعين ، وإما الرجوع إلى الدنيا لإصلاح العمل وتجديد السلوك والمنهج الذي يرضي الله تعالى.

والسبب في تمني الشفعاء : تذكرهم أساس الشرك وهو أن النجاة عند الله إنما تكون بوساطة الشفعاء ؛ فعند ما أفلسوا وعرفوا أن النجاة بالإيمان والعمل الصالح ، تمنوا الرجوع إلى الدنيا ، ليعملوا بما أمر به الرسل غير علمهم السابق ، كقوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقالُوا : يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا ، وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ، وَلَوْ

﴿رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ ، وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ [الأنعام ٦ / ٢٧ ـ ٢٨].

وهذا كقوله هاهنا : ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي غبنوا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها ، وذهب عنهم ما كانوا يفترون من خبر الشفعاء التي كانوا يعبدونهم من دون الله ، قائلين : ﴿هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللهِ﴾ [يونس ١٠ / ١٨] فلا يشفعون فيهم ، ولا ينصرونهم ، ولا ينقذونهم مما هم فيه.

فقه الحياة أو الأحكام :

القرآن الكريم أعظم نعمة على الإنسان ؛ لأنه بيان للإيمان الصحيح والحق الثابت ، والعبادة المرضية لله تعالى ، ولأنه هدى ورحمة للمؤمنين ، كقوله تعالى : ﴿وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ﴾ [الأنعام ٦ / ١٥٥].

وتظهر في كل حين في الدنيا عاقبة ما أنذر به وحذّر ، وما أعلم به وأخبر ؛ لقوله تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُ﴾ [فصلت ٤١ / ٥٣] وكذا في الآخرة ؛ لقوله : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي عاقبة ما فيه. وعاقبة القرآن : ما وعد الله فيه من البعث والحساب وجزاء التكذيب به.

وتبدو عواقبه يوم القيامة ، فيعترف منكروه بأنه الحق الثابت والصدق الأبلج ، ويتمنون الخلاص بأي وسيلة ممكنة : إما بشفاعة الشفعاء ، أو الرد إلى الدنيا لتصحيح الأعمال بما يتفق مع مرضاة الله ، ولكن لا يجابون إلى مطلبهم ، فيندمون ولات حين مندم.

ولكن هؤلاء الكفار المنكرين قد خسروا أنفسهم بتعريضها للعقاب والعذاب في النار ، وبطل ما كانوا يقولون من أن مع الله إلها آخر ، ولم ينتفعوا بالأصنام التي عبدوها في الدنيا ، ولم ينتفعوا أيضا بنصرة الأديان الباطلة التي بالغوا في نصرتها.

إثبات الربوبية والألوهية لله بالخلق والأمر

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (٥٤)﴾

الإعراب :

﴿حَثِيثاً﴾ منصوب إما لأنه حال أي حاثا ، وإما لأنه صفة لمصدر محذوف ، تقديره : يطلبه طلبا حثيثا.

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ يقرأ بالنصب والرفع ، فالنصب بالعطف على ﴿السَّماواتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي وخلق الشمس والقمر .. والرفع على الابتداء ، وخبره : ﴿مُسَخَّراتٍ﴾.

البلاغة :

﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ فيه ما يسمى «إيجاز قصر» وهو جمع المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة.

المفردات اللغوية :

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ﴾ الرب : هو السيد المالك المدبر والمربي ، و ﴿اللهُ﴾ : اسم الذات الأقدس خالق الخلق أجمعين ، والإله : هو المعبود المرتجى لجلب النفع وكشف الضر ، ويتقرب إليه بما يرضيه من العبادة والدعاء. وليس للمؤمنين الموحدين سوى إله واحد ورب واحد هو الله عَزَّوَجَلَّ . وأكثر المشركين يقولون : إنه أعظم الآلهة ، وكان مشركو العرب لا يعترفون برب سواه ، وإنما يعبدون آلهة تقربهم إليه ﴿السَّماواتِ وَالْأَرْضَ﴾ المراد بهما العالم العلوي والعالم السفلي ، ولم يرد خبر ببيان حقيقتهما. ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ جمع يوم ، وهو الوقت المحدود بطلوع الشمس إلى غروبها ، والمراد بالأيام الستة : أنها من أيام الدنيا ، أي في قدرها ، لأنه لم يكن ثمّ شمس ، ولو شاء لخلقهن في لمحة ، والعدول عنه لتعليم خلقه التثبت.

﴿اسْتَوى﴾ في اللغة : استقر ، أو قصد أو استولى وملك ، والمراد أنه يتصرف فيه بما يريد وقد استوى استواء يليق به ﴿الْعَرْشِ﴾ لغة : سرير الملك ، أو كل شيء له سقف ، أو هودج المرأة ، أو الملك والسلطان ، يقال : ثلّ عرشه ، أي ذهب ملكه وزوال أو هلك. ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ﴾ أي يغطي كلا منهما بالآخر ، ويجعل الليل كالغشاء ، أي يذهب نور النهار ﴿يَطْلُبُهُ﴾ يطلب كل منهما الآخر ﴿حَثِيثاً﴾ أي طلبا سريعا من غير فتور ﴿مُسَخَّراتٍ﴾ مذلّلات خاضعات لتصرفه ﴿بِأَمْرِهِ﴾ بقدرته وتدبيره وتصرفه ﴿الْخَلْقُ﴾ إيجاد الأشياء من العدم بقدر ، فله الخلق جميعا ﴿وَالْأَمْرُ﴾ كله ، أي التدبير والتصرف كما يشاء ﴿تَبارَكَ اللهُ﴾ تعاظم وتنزّه ، أو كثر خيره وإحسانه ﴿رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ مالك العوالم من الجن والإنس.

المناسبة :

إن مدار القرآن على إثبات أسس أربعة : وهي التوحيد ، والنبوة ، والمعاد ، والقضاء والقدر. وإثبات المعاد متوقف على إثبات التوحيد والقدرة والعلم.

فلما قرر الله تعالى أمر المعاد ، وذكر ما يدور من حوار بين أصحاب النار وأصحاب الجنة وأصحاب الأعراف ، عاد إلى ذكر أدلة التوحيد ، وكمال القدرة ، والعلم ، لتكون دليلا على الربوبية والألوهية وإثبات المعاد.

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى أنه خالق الكون أو العالم كله سماواته وأراضيه السبع ، وما بين ذلك في ستة أيام ، وهي ما عدا السبت ، وقد اجتمع الخلق كله في الجمعة ، الذي فيه خلق آدم عليه السلام . وأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق ؛ لأنه اليوم السابع ، ومنه سمي السبت وهو القطع ، وهذا من الأخبار الإسرائيلية.

والمتبادر إلى الأذهان أن هذه الأيام مقدرة بأيام الدنيا ؛ لأنه لم يكن ثمّ شمس ، ووجدت هذه الأشياء المخلوقة بعد خلق هذه الأرض. ورأى مجاهد وأحمد بن حنبل : أن كل يوم كألف سنة ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ

﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج ٢٢ / ٤٧] وأما يوم القيامة فقال الله في وصفه : ﴿فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج ٦٩ / ٤].

ومعنى الآية : إن ربكم ومالك أمركم أيها الناس هو الله وحده لا شريك له ، وهو الذي أوجد السموات والأرض ، وقدرهما ، ودبر أمورهما وأحكم نظامهما في ستة أيام ، إما مقدرة بأيام الدنيا ، وإما أن الله أعلم بمقدارها وحدودها ، ولو شاء خلّقها في لحظة لخلقها ، وإنما أراد تعليم خلقه التثبت في الأمور : ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس ٣٦ / ٨٢] وذلك الخلق والتكوين ليس بالهين وهو دليل على القدرة التامة : ﴿لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر ٤٠ / ٥٧].

وكان خلق الأرض في يومين ، وخلق الجبال الرواسي وأنواع النبات والحيوان في يومين آخرين ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ : أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ، وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ، ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها ، وَبارَكَ فِيها ، وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ، سَواءً لِلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت ٤١ / ٩ . ١٠].

وخلق السموات وما فيها من أجرام وكواكب في يومين ، كما قال تعالى : ﴿فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ ، وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها ، وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَحِفْظاً ، ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت ٤١ / ١٢].

ثم إنه تعالى بعد هذا الخلق استوى على عرشه ، يدبر أمره ، ويصرف نظامه ، على نحو يليق به ، غير مشابه لشيء من المخلوقات والحوادث. فاستواؤه على العرش : هو انفراده بتدبير السموات والأرض ، واستيلاؤه على زمام الأمور والسلطة فيهما. ونحن نؤمن كإيمان الصحابة باستواء الله على العرش بكيفية تليق به ، من غير تشبيه ولا تكيف ، أي من غير تحديد بجهة ، ولا تقدير بكيف أو

وصف ، وتترك معرفة الحقيقة إلى الله ، وهذا ما قرره الإمام مالك ومن قبله شيخة ربيعة ، فقال : الاستواء معلوم (أي في اللغة) والكيف (أي كيفية الاستواء) مجهول ، والسؤال عن هذا بدعة. وهذا القدر كاف في الموضوع.

وقال الحافظ ابن كثير : مذهب السلف الصالح : مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديما وحديثا ، هو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبّهين منفي عن الله ، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ، و ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى ٤٢ / ١١].

بل الأمر كما قال الأئمة ، منهم نعيم بن حمّاد شيخ البخاري قال : من شبّه الله بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه ، فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه ، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة ، على الوجه الذي يليق بجلال الله ، ونفى عن الله تعالى النقائص ، فقد سلك سبيل الهدى[1].

وأما الخلف فيتأولون ويقولون : استوى على عرشه بعد تكوين خلقه ، بمعنى أنه يدبر أمره ، ويصرّف نظامه ، على حسب تقديره وحكمته ، كما قال : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس ١٠ / ٣].

ثم بيّن الله تعالى بعض مظاهر تدبيره الكون فقال : ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ ...﴾ أي أنه تعالى يلحق الليل بالنهار ، أو النهار بالليل ، يحتملهما جميعا على التعاقب ، ويذهب ظلام الليل بضياء النهار ، وضياء النهار بظلام الليل ، وكل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا ، أي سريعا لا يتأخر عنه ، بل إذا ذهب هذا

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٢٠

جاء هذا وعكسه. والمراد أنه يعقبه سريعا دون وجود فاصل أو تأخر ، مثل قوله تعالى : ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ ، فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ. وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ، ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ، لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ، وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس ٣٦ / ٣٧ ـ ٤٠].

وفي تعاقب الليل والنهار منافع كثيرة ، إذ بتعاقبهما يتم أمر الحياة ، وتتحقق مصالح الناس.

وقد تأيد هذا الطلب السريع بما أثبته العلم الحديث من كروية الأرض ودورانها على محورها حول الشمس ، فيكون نصف كرتها مضيئا بالشمس ، والنصف الآخر مظلما ، فإذا كان الوقت نهارا في الشرق الأوسط مثلا ، كان الوقت ليلا في أمريكا الجنوبية وطوكيو ـ اليابان. وقد سبق إلى ما قرره العلماء المعاصرون كثير من علماء الإسلام كالغزالي والرازي وابن تيمية وابن قيّم الجوزية.

ومن مظاهر التدبير الإلهي للكون : خلقه الشمس والقمر وسائر النجوم والكواكب ، وكونها جميعا تحت قهره وتسخيره ومشيئته ، أي أنها خاضعة لأمره وتصرفه. لذا قال : ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أي أنه هو الخالق المبدع المالك ، المتصرف المدبر ، فمعنى ﴿لَهُ الْخَلْقُ﴾ أي له ملك المخلوقات كلها كبيرها وصغيرها ، ومعنى له ﴿الْأَمْرُ﴾ أي التصرف والتدبير ، ليس لأحد شيء.

﴿تَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ أي تعاظم وتنزّه ، وانفرد بالربوبية ، وكل ما في العالم من الخيرات الكثيرة منه ، فعلى عباده شكره عليها ، وعبادته دون غيره. كقوله : ﴿تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك ٦٧ / ١] وقوله : ﴿تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً ، وَجَعَلَ فِيها سِراجاً وَقَمَراً مُنِيراً﴾ [الفرقان ٢٥ / ٦١].

روى ابن جرير الطبري عن عبد العزيز الشامي عن أبيه ، وكانت له صحبة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح ، وحمد نفسه ، فقد كفر وحبط عمله. ومن زعم أن الله جعل للعباد من الأمر شيئا فقد كفر بما أنزل الله على أنبيائه ، لقوله : ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾».

وفي الدعاء المأثور عن أبي الدرداء ، وروي مرفوعا : «اللهم لك الملك كله ، ولك الحمد كله ، وإليك يرجع الأمر كله ، أسألك من الخير كله ، وأعوذ بك من الشر كله».

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآية إلى ما يلي :

١ ـ الله عَزَّوَجَلَّ هو المنفرد بقدرة الإيجاد ، وخالق السموات والأرض ، فهو الذي يجب أن يعبد.

٢ ـ استوى الله تعالى على العرش ، وخص العرش بذلك ؛ لأنه أعظم مخلوقاته ، ورأي السلف الصالح : أنه استوى على عرشه حقيقة ، لكن كيفية الاستواء مجهولة ، فإنه لا تعلم حقيقته. قال مالك رَحِمَهُ اللهُ : الاستواء معلوم (يعني في اللغة) والكيف مجهول ، والسؤال عن هذا بدعة. وكذا قالت أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وأكثر المتقدمين والمتأخرين من علماء المتكلمين على تنزيه الله تعالى عن الجهة والتحيّز في مكان ، لأنه يلزم من ذلك أنه متى اختص بجهة أن يكون في مكان أو حيّز ، ويلزم على المكان والحيّز : الحركة والسكون للمتحيّز ، والتغيّر والحدوث.

وقد يؤوّل العرش في الآية بمعنى الملك والسلطان ، أي ما استوى الملك

المطلق إلا له جل وعز. قال القرطبي : وهو قول حسن ، وفيه نظر [١].

٣ ـ الليل والنهار متعاقبان ، وتعاقبهما دليل على كروية الأرض وحركتها ودورانها. ولم يذكر في هذه الآية دخول النهار على الليل ، واكتفى بأحدهما عن الآخر ، مثل : ﴿سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل ١٦ / ٨١] أي والبرد. ومثل : ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران ٣ / ٢٦] أي والشر.

٤ ـ الشمس والقمر والنجوم وسائر الكواكب مخلوقة لله ، بدليل أنها معطوفة على السموات ، أي وخلق السموات ، وهي مذللات خاضعات لتصرف الله.

٥ ـ لله الخلق والأمر ، وقد دلت الآية على صدق الله في خبره ، فله الخلق وله الأمر ، خلقهم وأمرهم بما أحب ، وهذا الأمر يقتضي النهي. قال سفيان بن عيينة : فرق بين الخلق والأمر ؛ فمن جمع بينهما فقد كفر. فالخلق : المخلوق ، والأمر : كلامه الذي هو غير مخلوق ، وهو قوله : ﴿كُنْ﴾ : ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس ٣٦ / ٨٢].

وفي تفرقته بين الخلق والأمر دليل بيّن على فساد قول من قال بخلق القرآن ؛ إذ لو كان كلامه الذي هو أمر مخلوقا ، لكان قد قال : ألا له الخلق والخلق. وذلك عيّ من الكلام ومستهجن ، والله يتعالى عن التكلم بما لا فائدة فيه. ولو كان الأمر مخلوقا لافتقر إلى أمر آخر يقوم به ، وذلك الأمر إلى أمر آخر إلى ما لا نهاية له ، وذلك محال ، فثبت أن أمره الذي هو كلامه قديم أزلي غير مخلوق ؛ ليصح قيام المخلوقات بأمره ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم ٣٠ / ٢٥] وقوله هنا : ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ﴾ فأخبر سبحانه أن المخلوقات قائمة بأمره.

---

(١) تفسير القرطبي : ٧ / ٢٢١

والأمر ليس من الإرادة في شيء. والمعتزلة تقول : الأمر نفس الإرادة. قال القرطبي : وليس بصحيح ، بل يأمر بما لا يريد ، وينهى عما يريد. ألا ترى أنه أمر إبراهيم بذبح ولده ، ولم يرده منه ، وأمر نبيه أن يصلّي مع أمّته خمسين صلاة ، ولم يرد منه إلا خمس صلوات. وقد أراد شهادة حمزة حيث يقول : ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ﴾ [آل عمران ٣ / ١٤٠] ونهى الكفار عن قتله ، ولم يأمرهم به [١].

٦ ـ الله تعالى متعاظم منزه عن الدنايا ، باق دائم ثابت ، كثير الخيرات والآثار الفاضلة والنتائج الشريفة ، واسع الفضل والإحسان ﴿تَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾.

مشروعية الدعاء وآدابه وتحريم الإفساد في الأرض

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)﴾

الإعراب :

﴿تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾ إما منصوبان على المصدر ، أو على الحال على معنى : ذوي تضرع وخفية.

﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ إنما قال : قريب بالتذكير لثلاثة أوجه : أنه ذكره حملا على المعنى ، لأن الرحمة بمعنى الرّحم أو الترحم ، وهو مذكر ، أو لأن المراد بالرحمة : المطر ، وهو مذكر ، أو ذكّره على النّسب ، أي : ذات قرب ، كقولهم : امرأة طالق وطامث وحائض ، أي ذات طلاق وطمث وحيض (ابن الأنباري : ١ / ٣٦٥). وأضاف الزمخشري : أو لأنه صفة موصوف محذوف ، أي شيء قريب ، أو على تشبيهه بفعيل الذي هو بمعنى مفعول ، أو لأن تأنيث الرحمة غير حقيقي (الكشاف : ١ / ٥٥١) وذكر الرازي في تفسيره (١٤ / ١٣٦ ـ ١٣٧) أربعة وجوه من هذه.

وذكر القرطبي في تفسيره : ٧ / ٢٢٧ سبعة أوجه لقوله : ﴿قَرِيبٌ﴾ ولم يقل : قريبة ، هي

---

(١) المرجع السابق : ٧ / ٢٢٣

أن الرّحمة والرّحم واحد ، وهي بمعنى العفو والمغفرة ، وقيل : أراد بالرحمة الإحسان ، وقيل : مالا يكون تأنيثه حقيقيا جاز تذكيره ، وقيل : أراد بالرحمة هنا المطر ، وقيل : على تذكير المكان أي مكانا قريبا ، وقيل : ذكّر على النسب ، كأنه قال : إن رحمة الله ذات قرب. وقيل : في غير النسب يجوز التذكير والتأنيث ، يقال : دارك منا قريب ، وفلانة منا قريب.

المفردات اللغوية :

﴿تَضَرُّعاً﴾ تذللا ، وهو إظهار ذل النفس وخضوعها ﴿خُفْيَةً﴾ سرا ، وهو ضد العلانية ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ في الدعاء بالتشدق ورفع الصوت ، والمراد : عدم الثواب وعدم الرضا عن الداعي.

﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالشرك والمعاصي ﴿بَعْدَ إِصْلاحِها﴾ ببعث الرسل ﴿خَوْفاً﴾ من عقابه ، والخوف : توقع الشر والمكروه ﴿وَطَمَعاً﴾ في رحمته ، وهو توقع الخير.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى الأدلة على توحيد الربوبية من كمال القدرة والتدبير ، والحكمة والتصرف ، أتبعه بالأمر بتوحيد الألوهية بإفراده تعالى بالعبادة والاشتغال بالدعاء والتضرع ، فإن الدعاء مخ العبادة.

التفسير والبيان :

أرشد الله تعالى عباده إلى دعائه الذي هو صلاحهم في دنياهم وأخراهم ، فقال : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾ أي ادعوا ربكم ومتولي أموركم والمنعم عليكم ، متضرعين متذللين مستكينين ، مع إسرار الدعاء وإخفائه ، فالدعاء مخ العبادة. وفيه إيماء إلى ندب الدعاء خفية ؛ لأنه أبعد عن الرياء ، ولقوله تعالى : ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً﴾ [الأعراف ٧ / ٢٠٥] وقوله بالثناء على زكريا : ﴿إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا﴾ [مريم ١٩ / ٣].

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال : رفع الناس

أصواتهم بالدعاء ، فقال رسول الله ﷺ : «أيها الناس ، اربعوا [١] على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون وأصمّ ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريبا ، وهو معكم».

وروى أبو الشيخ ابن حيان الأنصاري في الثواب عن أنس رضي الله عنه : «دعوة في السرّ تعدل سبعين دعوة في العلانية».

وروى أبو الشيخ ابن حبان في الثواب عن أنس رضي الله عنه : «دعوة في السرّ تعدل سبعين دعوة في العلانية».

وقال الحسن البصري رحمه الله : «ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ، وما يسمع لهم صوت ، إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم ، وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً**﴾.

وذكر بعض العلماء : أن الأولى الإسرار بالدعاء في حال اجتماع الناس في المساجد والمشاعر وغيرها إلا ما ورد فيه رفع الصوت من الجميع كالتلبية في الحج وتكبير العيدين.

﴿**إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ في الدعاء ولا في غيره ، بتجاوز الحدود المأمور بها ، والتجاوز هنا في ترك هذين الأمرين المذكورين : وهما التضرع والإخفاء. وعدم المحبة : أي أن الله لا يثيبه البتة ، ولا يحسن إليه ، فظهر أن قوله تعالى : ﴿**إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ كالتهديد الشديد على ترك التضرع والإخفاء في الدعاء.

روى أحمد وأبو داود عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء ، وقرأ هذه الآية : ﴿**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً**﴾ الآية ، وإن بحسبك أن تقول : اللهم إني أسألك

---

(١) أي ارفقوا بأنفسكم.

الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل».

وكما أمر الله بدعائه والتضرع إليه ، نهى عن الإفساد في الأرض ، فقال : ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ...﴾ أي لا تفسدوا شيئا في الأرض بعد الإصلاح بما بناه المرسلون وأتباعهم المصلحون ، وشيّده العقلاء المخلصون ، من النواحي المادية والمعنوية ، كتقوية وسائل الحياة من زراعة وصناعة وتجارة ، وتهذيب الأخلاق ، والحث على العدل والشورى والتعاون والتراحم.

والإفساد شامل إفساد الأديان بالكفر والبدعة ، وإفساد النفوس بالقتل وبقطع الأعضاء ، وإفساد الأموال بالغصب والسرقة والاحتيال ، وإفساد العقول بشرب المسكرات ونحوها ، وإفساد الأنساب بالإقدام على الزنى واللواطة والقذف.

وبعد أن أبان الله تعالى شرط الدعاء وهو التضرع والخفية ، نبّه إلى بواعث الدعاء وموجباته ، وأشعر أن من لا يدعو ربه على هذا النحو يكون أقرب إلى الإفساد ، فقال : ﴿وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾.

أي ادعوا الله خوفا من عقابه ، وطمعا في جزيل ثوابه ، فإن الدعاء مخ العبادة ولبّها ، لذا صرح بفائدة الدعاء ، وأنه مرجو الإجابة متى استكمل شرائطه وآدابه ، فقال : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ ..﴾ أي إن رحمة الله تعالى قريبة من المحسنين أعمالهم ، وهي مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره ، كما قال تعالى : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٥٦].

فمن أحسن الدعاء أعطي خيرا مما طلبه ، أو مثله ، أو دفع عنه من الشر مثله.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيتان على ما يأتي من الأحكام :

١ ـ الأمر بالدعاء والتعبد به ، وهو نوع من أنواع العبادة ، ويفيد معرفة ذل العبودية ، ومعرفة عزة الربوبية ، ويكون سببا لجلب الخير ودفع الضر ؛ لأن هناك أمورا معلقة بالأسباب ، والدعاء سبب.

٢ ـ للدعاء آداب وصفات تحسن معه : وهي الخشوع والاستكانة والتضرع ، وكونه سرا في النفس ليبعد عن الرياء ، وأن يكون الإنسان في حالة بين الرجاء والخوف ، فيدعو خوفا من عقاب الله ، وطمعا في ثوابه ، قال الله تعالى : ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾ [الأنبياء ٢١ / ٩٠].

قال بعض أهل العلم : ينبغي أن يغلب الخوف الرجاء طوال الحياة ، فإذا جاء الموت غلب الرجاء. أخرج مسلم عن النّبي ﷺ قال : «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله».

وينبغي عدم الاعتداء في الدعاء : بالجهر الكثير والصياح ، أو يدعو الإنسان أن تكون له منزلة نبي ، أو يدعو في محال ونحو هذا من الشطط ، أو يدعو طالبا معصية وغير ذلك ، أو يدعو بما ليس في الكتاب والسنة ، فيتخير ألفاظا مفقّرة ، وكلمات مسجّعة ، وكل هذا يمنع من استجابة الدعاء ، والأولى ترك كل ذلك.

ومجمل آداب الدعاء : أن يكون على طهارة ، وأن يستقبل القبلة ، وتخلية القلب من الشواغل ، وافتتاحه واختتامه بالصلاة على النّبي ﷺ ، ورفع اليدين نحو السماء ، وإشراك المؤمنين فيه ، وتحري ساعات الإجابة كثلث الليل الأخير ، ووقت إفطار الصائم ، ويوم الجمعة ، وحال السفر والظلم وغير ذلك [1].

---

(١) روح المعاني للالوسي : ٨ / ١٤٠

٣ ـ ودل قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ على أن كل من خالف أمر الله ونهيه ، فإنه يكون معاقبا إذا ارتكب محرما ، فإن لم يكن من المحرمات فالأولى تركه.

٤ ـ استدل الحنفية بقوله تعالى : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾ على أن إخفاء التأمين «آمين» أولى من الجهر بها ؛ لأنه دعاء. وقال الشافعي ﷺ : إعلانه أفضل.

وأما رفع اليدين في الدعاء ، فكرهه طائفة من العلماء مثل عطاء وطاوس ومجاهد وجبير بن مطعم وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير عملا بحديث أنس أن النّبي ﷺ كان لا يرفع يديه في شيء من الدعاء إلا عند الاستسقاء ، فإنه كان يرفعهما حتى يرى بياض إبطيه.

وأجاز جماعة آخرون من الصحابة والتابعين رفع الأيدي ، ذكر البخاري عن أبي موسى الأشعري : دعا النّبي ﷺ ، ثم رفع يديه ، ورأيت بياض إبطيه. ومثله عن أنس. وقال ابن عمر : رفع النّبي ﷺ يديه وقال : «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد». وفي صحيح مسلم عن عمر قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين ، وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وسبعة عشر رجلا ، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة مادّا يديه ، فجعل يهتف بربه. وروى الترمذي عن عمر قال : كان رسول الله ﷺ إذا رفع يديه ، لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه ، وقال : هذا حديث صحيح غريب. وهذه الأحاديث ـ كما ذكر القرطبي ـ أصح طرقا ، وأثبت من حديث أنس المتقدم. ثم قال : والدعاء حسن كيفما تيسر ، فإن شاء استقبل القبلة ورفع يديه فحسن ، وإن شاء فلا ، فقد فعل ذلك النّبي ﷺ حسبما ورد في الأحاديث.

٥ ـ نهى سبحانه عن كل فساد قل أو أكثر بعد صلاح قل أو كثر. ودل قوله

تعالى : ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها﴾ على أن الأصل في المضار الحرمة والمنع على الإطلاق. وبان في الآية المتقدمة : ﴿قُلْ : مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ﴾ أن الأصل في المنافع واللذات الطيبة الإباحة والحل.

٦ ـ دل قوله : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ ..﴾ على أن كل ما كان رحمة فهي قريبة من المحسنين ، ويفهم منه : ليس لله في حق الكافر رحمة ولا نعمة ؛ لأنه يلزم من الآية أن كل ما لا يكون قريبا من المحسنين ألا يكون رحمة.

إنزال المطر وإخراج النبات

ودلالتهما على القدرة الإلهية وإثبات البعث

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨)﴾

الإعراب :

﴿بُشْراً﴾ منصوب على الحال.

﴿إِلَّا نَكِداً﴾ حال من الضمير في ﴿يَخْرُجُ﴾.

البلاغة :

﴿سُقْناهُ﴾ فيه التفات عن الغيبة.

﴿لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ استعارة ، إذ شبه جدب البلد وعدم نباته بالجسد الذي لا روح فيه ، من حيث عدم الانتفاع به.

﴿كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى﴾ تشبيه مرسل مجمل ، ذكر فيه الأداة ولم يذكر وجه الشبه ، شبّه إخراج الموتى من قبورهم بإخراج النبات من الأرض.

المفردات اللغوية :

﴿الرِّياحَ﴾ جمع ريح ، وهو الهواء العاصف الشديد الحركة ، وإذا جمعت كانت في معنى الخير ، كما هنا ، وإذا أفردت كانت في معنى الشر ، كما في قوله تعالى : ﴿أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ [القمر ٥٤ / ١٩] وكان عليه الصلاة والسلام يقول : «اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا».

﴿بُشْراً﴾ مبشرات متفرقة قبل نزول المطر ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ قبل نزول المطر ﴿أَقَلَّتْ﴾ حملت ورفعت أي الرياح ﴿سَحاباً﴾ جمع سحابة وهي الغيوم ﴿ثِقالاً﴾ مشبعة ببخار الماء ﴿سُقْناهُ﴾ سيرناه أي السحاب ﴿لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ أرض لا نبات فيها ولا مرعى ، أي لإحيائها ﴿فَأَخْرَجْنا بِهِ﴾ أي بالماء ﴿الثَّمَراتِ﴾ جمع ثمرة ، وهي ما تحمله الشجرة ، سواء أكان مأكولا أم لا ﴿كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى﴾ أي كذلك الإخراج للنبات بالمطر نخرج الموتى من قبورهم بالإحياء. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتؤمنوا.

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ العذب التراب ﴿يَخْرُجُ نَباتُهُ﴾ حسنا ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ هذا مثل للمؤمن ، يسمع الموعظة ، فينتفع بها ﴿وَالَّذِي خَبُثَ﴾ ترابه ﴿لا يَخْرُجُ﴾ نباته ﴿إِلَّا نَكِداً﴾ عسرا بمشقة ، لا خير فيه ، وهذا مثل للكافر ﴿كَذلِكَ نُصَرِّفُ﴾ كما بينا ما ذكر نبيّن الآيات ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ الله فيؤمنوا.

المناسبة :

لما ذكر الله تعالى أنه خالق السموات والأرض ، وأنه المتصرف الحاكم المدبر للعالم العلوي والسفلي ، والمسخّر للإنسان ما في الكون ، وأرشد إلى دعائه ؛ لأنه على ما يشاء قادر ، ونهى عن الإفساد في الأرض ، وأبان أن رحمته قريبة من المحسنين ، نبّه تعالى إلى أنه الرزاق ، وأن أهم مصادر الرزق هو المطر الذي يترجم إلى خيرات كثيرة ويكون سببا للنبات الحسن ، وأنه يعيد الموتى أحياء يوم القيامة كإحياء الأرض بعد موتها.

التفسير والبيان :

الله الذي يرسل الرياح قبل نزول المطر ، مبشرات بها ، فقوله : ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي مقدم إنزال المطر ، كما قال : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا ، وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ، وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى ٤٢ / ٢٨] وقال : ﴿فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللهِ ، كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ، إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم ٣٠ / ٥٠].

فإذا حملت الرياح سحابا ثقالا ، أي من كثرة ما فيها من الماء ، تكون ثقيلة قريبة من الأرض ، سقناه لإحياء أرض مجدبة لا نبات فيها ، كقوله تعالى : ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها ..﴾ [يس ٣٦ / ٣٣].

فأنزلنا بالسحاب الماء ، إذ من المعروف علميا أن الهواء القريب من سطح البحر يسخن بتأثير الحرارة ، فيصعد في الجو ويبرد بتأثير منطقة باردة ، أو بالهواء البارد ، فإذا برد تكاثف منه بخار الماء ، وتكوّن السحاب ، ثم يتحرك السحاب بقوة الريح ، ثم ينزل مطرا بمشيئة الله وإرادته.

وهذا المعنى كثير متردد في الآيات مثل قوله تعالى : ﴿وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ ، فَتُثِيرُ سَحاباً ، فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ ، فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ، كَذلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر ٣٥ / ٩] ومثل الآية ٤٣ من سورة النور ، والآية ٤٨ من سورة الروم.

فأخرجنا بالمطر أنواع النبات والثمار من الأرض ، على اختلاف ألوانها وأشكالها وطعومها وروائحها ، مما يدل على قدرة الله وتمام رحمته ، كما قال تعالى : ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ ، وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ ، وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ ، يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد ١٣ / ٤].

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر ، والأمثال تقرن ببعضها لمعرفة تماثلها في الحكم ، فإنه تعالى أشار إلى إنكار البعث ، فقال : ﴿كَذلِكَ نُخْرِجُ ..﴾ أي مثل هذا الإخراج لأنواع النبات من الأرض الميتة الجدبة بالماء ، نخرج الموتى ونبعثهم ، فالله على كلّ شيء قدير ، يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، وقد بينا هذا الشبه لتتذكروا وتتعظوا ، فتؤمنوا بالبعث أو اليوم الآخر. كما قال تعالى : ﴿وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قالَ : مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس ٣٦ / ٧٨ ـ ٧٩] وقال : ﴿كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء ٢١ / ١٠٤] وقال : ﴿ما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ٢٩].

ولكن استعداد الناس للإيمان بالبعث مختلف باختلاف الطبائع والنفوس ، فمنها الطيب الذي يتجاوب لنداء الإيمان ، ومنها الخبيث الذي يعرض عن الإيمان ، لذا قال تعالى : ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ ...﴾ أي إن الأرض الطيبة التربة يخرج نباتها سريعا حسنا ، والأرض الخبيثة التربة كالسّبخة ونحوها ، لا يخرج نباتها القليل إلا بعسر وصعوبة.

قال ابن عباس : هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر. أي إنه تعالى شبه المؤمن بالأرض الخيّرة ، والكافر بالأرض السبخة ، ومثله الحديث الذي رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير ، أصاب أرضا ، فكانت منها نقيّة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به ، فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

هذه الأمثال والمقارنات وعقد أوجه الشبه بين الأشياء لإقناع الناس وحملهم على الإيمان والتفكير بالحقائق ، لذا قال تعالى : ﴿كَذلِكَ نُصَرِّفُ ...﴾ أي مثل ذلك البيان والتصريف نردد الآيات الدالة على القدرة الباهرة ونكررها ونبينها لقوم يشكرون نعمة الله ، وهم المؤمنون ليكفروا فيها ويعتبروا بها.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ الله تعالى مصدر الرزق ، فهو الذي ينزل المطر ، فينبت الزرع والعشب والشجر والنبات والثمار ، فيستفيد منها الإنسان والحيوان ثم يعود نفع الحيوان في النهاية إلى الإنسان. والإنزال والإنبات دليل على وجود الله وعلمه وقدرته وحكمته.

٢ ـ إخراج الموتى أحياء من القبور مثل إخراج النبات الحي من الأرض الجدبة الميتة التي لا حراك فيها ، وفي ذلك ذكرى ، تذكر الناس فيؤمنوا بالبعث والنشور يوم القيامة.

٣ ـ ضرب الله تعالى للمؤمن والكافر مثلا ، فإنه شبّه المؤمن بالأرض الخيّرة التي نزل عليها المطر ، فيحصل منها أنواع الأزهار والثمار ، والكافر بالأرض السّبخة التي لا تنبت إلا النزر القليل ، وإن نزل عليها المطر ، وشبّه نزول القرآن بنزول المطر ، فالروح الطاهرة النقية عن شوائب الجهل والأخلاق الذميمة إذا اتصل بها نور القرآن ، ظهرت فيها أنواع الطاعات والمعارف والأخلاق الحميدة ، والروح الخبيثة وإن اتصل بها نور القرآن ، لم يظهر فيها من المعارف والأخلاق الحميدة إلا القليل.

٤ ـ يضرب الله الأمثال للناس ليتذكروا ويتعظوا فيؤمنوا ، ويصرّف الآيات ويرددها ، ويأتي بالحجج والدلالات لإبطال الشرك ، كما يصرف الآيات

في كل ما يحتاج إليه الناس ، لعل الشاكرين يتذكرون فيشكروا الله على ما أنعم عليهم. وخص الشاكرين ؛ لأنهم المنتفعون بذلك ، مثل قوله : ﴿هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة ٢ / ٢].

قصة نوح عليه‌السلام

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٦٠) قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ (٦٤)﴾

الإعراب :

﴿ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ﴾ : وصف لإله على الموضع ؛ لأن موضعه رفع. وقرئ بالجر صفة لإله على اللفظ.

﴿يا قَوْمِ﴾ نداء مضاف ، ويجوز : يا قومي على الأصل ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ إما كلام مستأنف بيان لكونه : ﴿رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ ، أو يكون صفة لرسول. ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ زيادة اللام مبالغة ودلالة على إمحاض النصيحة.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ فتحت الواو ؛ لأنها واو عطف ، دخلت عليها ألف الاستفهام للتقرير. والهمزة للإنكار ، والواو للعطف ، والمعطوف عليه محذوف ، كأنه قيل : أكذبتم وعجبتم.

المفردات اللغوية :

﴿لَقَدْ﴾ جواب قسم محذوف ﴿عَذابَ يَوْمٍ﴾ المراد هنا يوم القيامة ﴿الْمَلَأُ﴾ أشراف القوم ورؤساؤهم ﴿رِسالاتِ رَبِّي﴾ ما أوحي إليّ من الأوامر والنواهي والمواعظ والزواجر والبشائر والنذائر ﴿ضَلالٍ﴾ عدول عن طريق الحق ﴿مُبِينٍ﴾ بيّن ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ أريد الخير ، وأرشد إلى المصلحة مع إخلاص النية ﴿ذِكْرٌ﴾ موعظة ﴿عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ ، أي على لسان رجل من جنسكم ﴿لِيُنْذِرَكُمْ﴾ العذاب إن لم تؤمنوا ﴿الْفُلْكِ﴾ السفينة ﴿عَمِينَ﴾ جمع عم ، أي ذو عمى عن الحق ، والأعمى : أعمى البصر.

المناسبة :

لما ذكر الله تعالى قصة آدم في أول السورة وما يتصل به ، شرع في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام الأول فالأول ، مبتدئا بنوح عليه السلام الذي هو أبو البشر الثاني ، وأول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام .

والهدف من إيراد قصص الأنبياء : التنبيه على أن إعراض الناس عن قبول دعوة الأنبياء ليس مقتصرا على قريش قوم محمد عليه الصلاة والسلام ، بل هذا موقف متبع في جميع الأمم السابقة ، والمصيبة إذا عمت خفت ، وفي ذلك تسلية للرسول ﷺ وتخفيف على قلبه : ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ ..﴾ [هود ١١ / ١٢٠]. وفي القصص بيان العاقبة : عاقبة المنكرين وهي اللعن في الدنيا والخسارة في الآخرة ، وعاقبة المؤمنين وهي العزة في الدنيا والسعادة في الآخرة.

وفي إيراد القصص أيضا التنبيه إلى أن الله وإن كان يمهل هؤلاء المبطلين ، فلا يهملهم ، بل ينتقم منهم. وفي هذا من العظة والعبرة للأجيال ما يكفي : ﴿لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ﴾ [يوسف ١٢ / ١١١].

وسرد القصة من غير تحريف ولا خطأ دليل على نبوة محمد ﷺ الذي كان

أميا لا يقرأ ولا يكتب ، إذ يدل ذلك على أنه إنما عرف القصة بالوحي من الله ، مما يدل على صحة نبوته.

أضواء على قصة نوح من التاريخ :

نوح عليه‌السلام : هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ : وهو إدريس [١] بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر.

وهو أول الرسل إلى المشركين ، كما في حديث الشفاعة في صحيح مسلم عن أبي هريرة : «يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض» وهو أول الرسل بتحريم البنات والأخوات والعمات والخالات. قال محمد بن إسحاق : ولم يلق نبي من قومه من الأذى مثل نوح إلا نبي قتل. وقد أرسله الله إلى قومه وهو ابن خمسين سنة ، وكان نجارا.

وقال ابن عباس : وكان ابن أربعين سنة. ثم عاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا.

وقال يزيد الرقاشي : إنما سمي نوح لكثرة ما ناح على نفسه. وقد كان بين آدم إلى زمن نوح عليهما‌السلام عشرة قرون ، كلهم على الإسلام.

وذكر الترمذي وغيره أن جميع الخلق الآن من ذرية نوح عليه‌السلام . ذكر الزهري أن العرب وفارس والروم وأهل الشام وأهل اليمن من ولد سام بن نوح. والسند والهند والزنج والحبشة والزط والنوبة وكل السود من ولد حام بن نوح. والترك والبربر ووراء الصين ويأجوج ومأجوج والصقالبة كلهم من ولد يافث بن نوح.

---

(١) من قال من المؤرخين : إن إدريس النبي عليه‌السلام كان قبل نوح عليه‌السلام ، فقد وهم ، كما ذكر القرطبي بدليل الحديث الصحيح في الإسراء حين لقي النّبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم إدريس قال له : «مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح» ولم يقل له : «بالابن الصالح» كآدم ونوح وإبراهيم.

وكان أول ما عبدت الأصنام : أن قوما صالحين ماتوا ، فبنى قومهم عليهم مساجد ، وصوروا صورهم ، ليتذكروا حالهم وعبادتهم ، فيتشبهوا بهم ، فلما طال الزمان جعلوا أجسادا على تلك الصور ، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام ، وسموها بأسماء أولئك الصالحين : ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا.

فلما تفاقم الأمر بعث الله تعالى رسوله نوحا ، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، فقال : ﴿يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ ...﴾.

وذكر نوح في (٤٣) ثلاثة وأربعين موضعا من القرآن الكريم ، وذكرت قصته مفصلة في سورة الأعراف وهود والمؤمنون والشعراء والقمر ونوح. ومضمون قصته : أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن يتركوا عبادة الأصنام ، ولكنهم عاندوه وعارضوه وآذوه ، واتبعوا بعض زعمائهم ، ومكروا مكرا عظيما ، وصمموا ألا يذروا عبادة : ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر. وقالوا في حماقة وكبرياء : إنك جادلتنا فأكثرت جدالنا ، وإنا لن نترك ما نحن عليه ، فأتنا بالعذاب الذي تهددنا به ، فرد عليهم بأن تعذيبهم بيد الله تعالى.

ولما يئس نوح من إيمان قومه بعد دعوتهم إليه ألف سنة إلا خمسين ، أمره الله تعالى بصناعة سفينة أداة النجاة ، وكانوا كلما مروا عليه سخروا منه ومن عمله. فلما أتمها ، وأمره الله تعالى أن يأخذ معه أهله إلا زوجته ، وأن يأخذ من آمن معه من قومه ، وكانوا ستة فقط ، وقيل : أربعين رجلا وامرأة ، وأن يصحب معه من أجناس الحيوان والطير والوحش زوجين اثنين.

ثم فار تنور أهله بالماء ، وبدأ تفجر الماء الكثير من كل مكان حتى عمّ الطوفان قومه وكل ما على الأرض من إنسان وحيوان ، فهلكوا حتى ابنه الذي أبى الركوب في السفينة قائلا : ﴿سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ﴾

[هود ١١ / ٤٣]. واستوت السفينة على جبل الجودي في نواحي ديار بكر من جبال أرمينية جنوب تركيا : ﴿وَقِيلَ : يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ ، وَيا سَماءُ أَقْلِعِي ، وَغِيضَ الْماءُ ، وَقُضِيَ الْأَمْرُ ، وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ، وَقِيلَ : بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود ١١ / ٤٤].

وللعلماء رأيان في عموم طوفان الأرض ، فقال جماعة : لقد عمّ جميع أنحاء الأرض ، بدليل وجود بقايا حيوانية مائية في أعالي الجبال. وقال آخرون : لم يكن الطوفان عاما ، وإنما كان على الجهة التي كان يسكنها نوح وقومه ، وهي بلاد الشرق الأوسط وما جاورها.

ومن المعلوم أن البلاء يعم والرحمة تخص ، والنقمة لا تقتصر على الظالمين ، فتشمل الأطفال الأبرياء والوحوش والطيور : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال ٨ / ٢٥].

وكان نوح قد دعا بدعوتين : الأولى للمؤمنين والثانية على الكافرين ، أما الأولى فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ ..﴾ [نوح ٧١ / ٢٨].

والثانية هي : ﴿وَقالَ نُوحٌ : رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً ، إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ ، وَلا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً﴾ [نوح ٧١ / ٢٦ ـ ٢٧]. وكان ابن نوح في عداد الهالكين ؛ لأنه كان ظالما كافرا ، بدليل تمام الآية الأولى : ﴿وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَباراً﴾ والظلم هو الكفر. وهذا ابن نوح حقيقة في رأي جماعة ، وقال آخرون : إنه كان ابن امرأته من غيره ، ولم يكن ابنا حقيقيا له.

وكانت امرأة نوح تقول : زوجي مجنون ، كما كانت امرأة لوط تدل الناس على ضيفه إذا نزلوا به : ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ،

كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ ، فَخانَتاهُما ، فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللهِ شَيْئاً ، وَقِيلَ : ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم ٦٦ / ١٠].

ولم ينص القرآن الكريم على حجم السفينة ، وإنما أشير إليها بأنها ﴿الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس ٣٦ / ٤١] وبأنها ﴿ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر ٥٤ / ١٣] أي مسامير ، وبأن صناعتها بوحي من الله وإلهام : ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا﴾ [هود ١١ / ٣٧].

التفسير والبيان :

أقسم الله تعالى لأهل مكة وغيرهم بأنه أرسل نوحا إلى قومه لإنذارهم ، ودعوتهم إلى توحيد الله ، وعبادته دون سواه ، فقال لهم : ﴿يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ﴾ أي توجهوا بعبادتكم إلى الله وحده لا شريك له ، إذ ليس لكم إله غير الله ، تتوجهون إليه بالعبادة والدعاء وطلب الخير ، فالله هو خالق كل شيء ، وبيده ملكوت السموات والأرض ، وهو الإله الحق القائم على هذا الكون ، وهو المستحق للعبادة والتقديس والتعظيم.

﴿إِنِّي أَخافُ ...﴾ إني أخاف عليكم بسبب الشرك عذاب يوم عظيم من عذاب يوم القيامة إذا لقيتم الله ، وأنتم تشركون به. فاليوم العظيم : هو يوم القيامة ، أو يوم نزول العذاب عليهم ، وهو الطوفان.

وموقع الجملتين بعد قوله : ﴿اعْبُدُوا اللهَ﴾ : أن الأولى : بيان لوجه اختصاصه بالعبادة ، والثانية : بيان للداعي إلى عبادته.

قال الملأ من قومه أي أشراف القوم والسادة والقادة : إنا لنراك في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة الأصنام لفي غمرة من الضلال أحاطت بك ، وهكذا حال الفجار يرون الأبرار في ضلالة ، وهم أعداء دائما للهداة ، كقوله تعالى : ﴿وَإِذا رَأَوْهُمْ قالُوا : إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ﴾ [المطففين ٨٣ / ٣٢] وقوله : ﴿وَقالَ الَّذِينَ

كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ ، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ، فَسَيَقُولُونَ : هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف ٤٦ / ١١].

قال نوح مجيبا لهم : يا قوم ، ما أنا فيما أمرتكم به من توحيد الله وعبادته دون الأنداد بضال عن جادة الحق ، ولكن أنا رسول من رب العالمين إليكم ، ربّ كل شيء ومليكه ، أهديكم إلى سبيل الرشاد ، وأدعوكم إلى ما فيه سعادتكم في الدنيا والآخرة. والضلالة كما ذكر الزمخشري أخص من الضلال ، فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه ، كأنه قال : ليس بي شيء من الضلال.

أبلغكم ما أرسلني به ربي من الدعوة إلى التوحيد الخالص ، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وما اشتمل عليه من جنة ونار ، وثواب وعقاب ، وأبيّن لكم أصول العبادات والمعاملات وأحكامها العامة وفضائل الأخلاق والآداب ، وفي الجملة : كل الأوامر والنواهي والمواعظ والزواجر والبشائر والنذائر.

وأنصح لكم نصحا خالصا من شوائب المصلحة والمكر ، بتحذيركم من عقاب الله على كفركم وتكذيبكم لي. روي مسلم وأبو داود والنسائي عن تميم الداري أن رسول الله ﷺ قال : «الدين النصيحة ، قلنا : لمن يا رسول الله؟ قال : لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم».

وأنا في هذا التبليغ والنصح أعلم من الله وشؤونه مالا تعلمون من مصير هذا العالم ، وإن إنذاري عاقبة الشرك بعذاب الدنيا ، ونصحي لكم ناشئ عن علم يقيني لا تعلمونه. وهذا شأن الرسول : أن يكون مبلّغا فصيحا ناصحا عالما بالله. ويكون المقصود من قوله : ﴿**وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ**﴾ حمل القوم على أن يرجعوا إليه في طلب العلوم المتعلقة بتوحيد الله وصفات جلاله ، وعقابه الشديد في الدنيا والآخرة على عصيان أوامره.

جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ : قال لأصحابه يوم عرفة ، وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعا : «أيها الناس ، إنكم مسئولون عني ، فما أنتم قائلون؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فجعل يرفع أصبعه إلى السماء ، وينكسها عليهم ويقول : اللهم اشهد ، اللهم اشهد».

ثم أخبر الله تعالى عن نوح أنه قال لقومه : أكذبتم وعجبتم أن جاءكم ذكر يذكّركم ، ووعظ من ربكن ، على لسان رجل منكم ، ليحذّرنكم عاقبة كفركم ، وينذركم عاقبة الشرك في العبادة ، وليعدّكم بالتقوى (أي التزام الأوامر واجتناب النواهي) لرحمته تعالى التي ينزلها على المؤمنين ، أو ليوجد فيكم التقوى وهي الخشية بسبب الإنذار ، ولترحموا بالتقوى إن وجدت منكم.

ليس هذا بعجب أن يوحي الله إلى رجل من جنسكم ، رحمة بكم ، ولطفا وإحسانا إليكم ، لينذركم ، ولتتقوا نقمه ولا تشركوا به ، وليرحمكم ربكم بطاعته والإيمان برسله.

لكنهم لم يصغوا لنداء الحق والإخلاص هذا ، وتمادوا في تكذيبه ومخالفته من قبل الأكثرية ، وما آمن معه منهم إلا قليل ، كما قال تعالى في موضع آخر : ﴿**وَما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ**﴾ [هود ١١ / ٤٠] قيل : كانت عدتهم ثلاثة عشر : نوح وبنوه : سام وحام ويافث وزوجاتهم ، وستة آخرون آمنوا به. وقيل : كانوا أربعين أو ثمانين : أربعين رجلا وأربعين امرأة.

فكان العقاب إغراقهم بالطوفان : ﴿**وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا ...**﴾ أي وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا أو جحدوا بها بالطوفان ، بسبب كفرهم وتماديهم في ضلالهم وشركهم ، إنهم كانوا قوما عميا عن الحق ، لا يبصرونه ولا يهتدون له. فقوله : ﴿**عَمِينَ**﴾ يراد به عمى القلوب غير مستبصرين ، والفرق بين العمى والأعمى أن الأول بسبب عمى البصيرة ، والثاني بسبب عمى البصر.

ونجّى الله رسوله نوحا والمؤمنين القائل معه.

وهكذا بيّن الله تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه ، وأنجى رسوله والمؤمنين ، وأهلك أعداءهم من الكافرين ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ﴾ [غافر ٤٠ / ٥١].

فاحذروا أيها المخاطبون بدعوة الإسلام أن تكونوا مثلهم ، أو تسيروا على منوالهم. وسيأتي في سورة هود تفصيل أشمل لهذه القصة.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت قصة نوح عليه السلام على أنه اهتم في دعوة قومه بثلاثة عناصر :

أحدها : أنه أمرهم بعبادة الله تعالى.

والثاني : أنه حكم أن لا إله غير الله. والمقصود من الكلام الأول : إثبات التكليف ، والمقصود من الكلام الثاني الإقرار بالتوحيد ، والثاني كالعلة للأول.

والثالث : ﴿إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ : وهو إما عذاب يوم القيامة ، أو عذاب يوم الطوفان. والمراد من الخوف : اليقين ؛ لأنه كان جازما بنزول العذاب بهم إما في الدنيا وإما في الآخرة إن لم يقبلوا ذلك الدين. وقال آخرون : بل المراد منه الظن والشك.

وظاهر هذه الآية يدل على أن الإله هو الذي يستحق العبادة ؛ لأن قوله : ﴿اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ﴾ إثبات ونفي ، يجب أن يتواردا على مفهوم واحد حتى يستقيم الكلام ، فكان المعنى : اعبدوا الله ما لكم من معبود غيره ، حتى يتطابق النفي والإثبات.

ودلت الآية أيضا على أن الفجار والكفار يرون الأبرار والمؤمنين عادة في

ضلال ، ويكونون دائما أعداء للهداة ، فقد نسبوا نوحا عليه‌السلام في ادعاء النبوة إلى الضلال ، وكذبوه وتمردوا على دعوته ، وأمعنوا في إيذائه ، وأصروا على عبادة الأصنام.

ومهمة الأنبياء عادة هي تبليغ الرسالة. وهناك فرق بين تبليغ الرسالة وبين النصيحة وهو أن التبليغ معناه : التعريف بأنواع تكاليف الله وأقسام أوامره ونواهيه. وأما النصيحة : فهو الترغيب في الطاعة ، والتحذير من المعصية ، بالاعتماد على وسائل الترغيب والترهيب.

وذكرت الآيات الغاية التي من أجلها يبعث الله الرسول ، فقال تعالى : ﴿لِيُنْذِرَكُمْ﴾ وما لأجله ينذر ، وقال : ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ وما لأجله يتقون ، وقال ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إذ طاعة الرسول سبيل لاستدرار الرحمة الإلهية. فالمقصود من البعثة : الإنذار ، والمقصود من الإنذار : التقوى عن كل ما لا ينبغي ، والمقصود من التقوى : الفوز بالرحمة في دار الآخرة. قال الجبائي والكعبي والقاضي عبد الجبار المعتزلي : هذه الآية دالة على أنه تعالى أراد من الذين بعث الرسل إليهم : التقوى ، والفوز بالرحمة.

والنبي أو الرسول يكون عادة من جنس المرسل إليهم ، فهو بشر من جنس البشر الذين يدعوهم إلى الله. ولو كان ملكا فربما كان في اختلاف الجنس تنافر الطباع. لذا تكرر في قصة كل نبي : ﴿رَجُلٍ مِنْكُمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ إلخ.

وكانت عاقبة قوم نوح المكذبين الجاحدين المشركين إغراقهم بالطوفان العظيم.

قصة هود عليه‌السلام

﴿وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٦٥) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ (٦٦) قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قالُوا أَجِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما نَزَّلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٧١) فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَما كانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢)﴾

الإعراب :

﴿أَخاهُمْ﴾ عطف على : ﴿نُوحاً﴾ ، و ﴿هُوداً﴾ عطف بيان له.

﴿آلاءَ اللهِ﴾ نعماؤه ، واحدها : إلِيّ ، وألىّ ، وإلِيّ. وهي بمنزلة آناء الليل وهي ساعاته. و ﴿آلاءَ﴾ : مفعول به منصوب.

﴿وَما كانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ عطف على : ﴿كَذَّبُوا﴾. و ﴿عادٍ﴾ : من لم يصرفه جعله اسما للقبيلة ، ومن صرفه جعله اسما للحي.

البلاغة :

﴿قَطَعْنا دابِرَ﴾ كناية عن استئصالهم وإهلاكهم جميعا.

المفردات اللغوية :

﴿وَإِلى عادٍ﴾ وأرسلنا إلى عاد الأولى ﴿أَخاهُمْ﴾ أي واحدا من جنسهم أو منهم ، كقولك : يا أخا العرب للواحد من إخوة الجنس ، وإنما جعل واحدا منهم ؛ لأنهم أفهم عن رجل منهم ، وأعرف بحاله في صدقه وأمانته ، وهو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، فهي أخوة في النسب لا في الدين.

﴿قالَ﴾ لم يقل : فقال كما في قصة نوح ؛ لأنه على تقدير سؤال سائل ، قال : فما قال لهم هود؟ فقيل : قال : يا قوم اعبدوا الله. وكذلك : ﴿قالَ الْمَلَأُ﴾ أي أشراف القوم. ووصف الملأ بالذين كفروا دون الملأ من قوم نوح ؛ لأنه كان في أشراف قوم هود من آمن به سرا مثل مرثد بن سعد الذي أسلم وكان يكتم إسلامه ، ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن ، فأريدت التفرقة بالوصف.

﴿سَفاهَةٍ﴾ خفة حلم وسخافة عقل ﴿ناصِحٌ أَمِينٌ﴾ أي عرفت فيما بينكم بالنصح والأمانة ، فما حقي أن أتهم ، وأنا لكم ناصح فيما أدعوكم إليه ، أمين على ما أقول لكم ، لا أكذب فيه.

﴿خُلَفاءَ﴾ أي خلفتموهم في الأرض ، أو جعلكم ملوكا في الأرض ، قد استخلفكم فيها بعدهم ﴿فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ أي زاد أجسامكم في الطول والقوة والبدانة قيل : كان طويلهم مائة ذراع وقصيرهم ستين. ﴿آلاءَ اللهِ﴾ نعمه في استخلافكم وبسطة أجسادكم ، وما سواها من عطاياه ، وواحد الآلاء : ألىّ ﴿تُفْلِحُونَ﴾ تفوزون. ﴿وَنَذَرَ﴾ نترك ﴿بِما تَعِدُنا﴾ به من العذاب ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ﴾ حق عليكم ووجب أو قد نزل عليكم. ﴿رِجْسٌ﴾ عذاب ﴿وَغَضَبٌ﴾ سخط وانتقام ﴿أَتُجادِلُونَنِي﴾ المجادلة : المماراة والمخاصمة ﴿فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها﴾ أي سميتم بها أصناما تعبدونها. أي في أشياء ما هي إلا أسماء ليس تحتها مسميات ، لأنكم تسمونها آلهة ، ومعنى الألوهية فيها معدوم محال وجوده.

﴿سُلْطانٍ﴾ حجة وبرهان ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ العذاب ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ ذلكم بتكذيبكم لي ، فأرسلت عليهم الريح العقيم.

﴿فَأَنْجَيْناهُ﴾ أي هودا ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المؤمنين ﴿وَقَطَعْنا دابِرَ﴾ الدابر : الآخر ، أي

أهلكناهم جميعا بعذاب الاستئصال ، أو استأصلناهم. فمعنى قطع دابر القوم : استئصالهم وتدميرهم عن آخرهم.

المناسبة وتاريخ القصة :

قبيلة عاد قوم هود من أقدم الأمم وجودا وآثارا في الأرض ، وهم على ما يظهر أقدم من إبراهيم ، لذا ناسب ذكرها بعد قصة نوح مع قومه ، بدليل قوله تعالى : ﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ**﴾ فأصبح الناس على علم بواقعة قوم نوح العظيمة وهي الطوفان العظيم ، لذا كان قول هود لقومه عاد : ﴿**أَفَلا تَتَّقُونَ**﴾ إشارة إلى التخويف بتلك الواقعة المتقدمة المشهورة في الدنيا.

أخرج ابن إسحاق عن الكلبي قال : إن عادا كانوا أصحاب أوثان يعبدونها ، اتخذوها على مثال ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، فاتخذوا صنما يقال له «صمود» وآخر يقال له : «الهتار» ، فبعث الله إليهم هودا وكان من قبيلة يقال لها «الخلود» ، وكان من أوسطهم نسبا وأصبحهم وجها ، فدعاهم إلى عبادة الله وأمرهم أن يوحّدوه ، وأن يكفوا عن ظلم الناس ، فأبوا ذلك وكذبوه وقالوا : ﴿**مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً**﴾ [فصلت ٤١ / ١٥]؟ كما جاء في تفسير المنار.

وكانت منازلهم أي مساكنهم باليمن بالأحقاف : وهي جبال الرمل ، فيما بين عمان إلى حضرموت باليمن ، وكانوا مع ذلك قد أفسدوا في الأرض كلها ، وقهروا أهلها ، بفضل قوتهم التي آتاهم الله تعالى.

فعاد : قبيلة عربية ، كانت باليمين بالأحقاف شمال حضرموت ، وكانوا قد تبسطوا في الدنيا ما بين عمان إلى حضرموت ، وكانت لهم أصنام يعبدونها : صداء وصمود والهتار. وهم عاد الأولى ، وأما عاد الثانية فهم سكان اليمن من قحطان وسبأ. ولم تذكر عاد فيما سوى القرآن الكريم من الكتب المقدسة.

فبعث الله إليهم هودا نبيا ، وهو هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن

نوح. وكان من أوسطهم وأفضلهم حسبا ، فكذبوه ، وازدادوا عتوا وتجبرا ، فأمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين ، حتى جهدوا ، وكان الناس إذا نزل بهم بلاء ، طلبوا إلى الله تعالى الفرج منه عند بيته المحرم ، مسلمهم ومشركهم ، وأهل مكة إذ ذاك العماليق أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ، وسيدهم معاوية بن بكر.

فجهزت عاد إلى مكة من أماثلهم سبعين رجلا ، منهم : قيل بن عنز ومرثد بن سعد الذي كان يكتم إسلامه ، فلما قدموا نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجا عن الحرم ، فأنزلهم وأكرمهم ، وكانوا أخواله وأصهاره ، فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر ، وتغنيهم الجرادتان (قينتان كانتا لمعاوية) فلما رأى طول مقامهم وذهولهم باللهو عما قدموا له ، أهمّه ذلك ، وقال : قد هلك أخوالي وأصهاري ، وهؤلاء على ما هم عليه ، وكان يستحيي أن يكلمهم ، خيفة أن يظنوا به ثقل مقامهم عليه ، فذكر ذلك للقينتين ، فقالتا : قل شعرا نغنيهم به ، لا يدرون من قاله ، فقال معاوية :

ألا يا قيل ، ويحك قم فهينم لعل الله يسقينا غماما

فيسقي أرض عاد إن عادا قد امسوا ما يبينون الكلاما

فلما غنّتا به قالوا : إن قومكم يتغوّثون [1] من البلاء الذي نزل بهم ، وقد أبطأتم عليهم ، فادخلوا الحرم ، واستسقوا لقومكم ، فقال لهم مرثد بن سعد : والله لا تسقون بدعائكم ، ولكن إن أطعتم نبيكم ، وتبتم إلى الله سقيتم ، وأظهر إسلامه.

فقالوا لمعاوية : احبس عنا مرثدا ، لا يقدمن معنا مكة ، فإنه قد اتبع دين هود ، وترك ديننا ، ثم دخلوا مكة ، فقال قيل : اللهم اسق عادا ما كنت تسقيهم.

---

(١) غوّث الرجل تغويثا : قال : وا غوثاه.

فأنشأ الله تعالى سحابات ثلاثا : بيضاء ، وحمراء ، وسوداء ، ثم ناداه مناد من السماء : يا قيل ، اختر لنفسك ولقومك ، فقال : اخترت السوداء ، فإنها أكثرهن ماء ، فخرجت على عاد من واد لهم يقال له المغيث ، فاستبشروا بها ، وقالوا : هذا عارض ممطرنا ، فجاءتهم منها ريح عقيم ، فأهلكتهم ، ونجا هود والمؤمنون معه ، فأتوا مكة ، فعبدوا الله فيها حتى ماتوا [١].

وذكر هود في القرآن الكريم سبع مرات ، في سورة الأعراف في الآية ٦٥ ، وفي سورة هود في الآيات : ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٨٩ ، وفي سورة الشعراء في الآية ١٢٤.

وظل هود عليه‌السلام ينذر قومه ويحذرهم بأس الله ، ويذكرهم بقوم نوح وبنعم الله تعالى عليهم : طول القامة وقوة البدن ، والإقامة في أرض كثيرة الخير من الزروع والماشية ، ويدعوهم إلى نبذ عبادة الأصنام ، ثم توحيد الله تعالى ، والتوبة والاستغفار من الشرك في العبادة.

ولكن أغلب القوم كذبوه ، ووصفوه بالسفاهة ، لتركه ما ورثوه عن الآباء من عبادة الأصنام ، وإفراد الله تعالى بالعبادة.

ثم اشتطوا فاتهموه بالجنون والخبال والعته ، وأن آلهتهم مستة بسوء ، فتبرأ من تلك الآلهة ، وتحداهم وسخر من تأثيرها المزعوم ، وأعلن أن الله وحده هو المؤثر الآخذ بنواصي كل ما على الأرض من دابة ، وأنذرهم أنه إن لم يستمعوا لنصيحته ، فإن الله تعالى سيبيدهم ويستخلف قوما غيرهم ، وسيحل بهم عذاب قريب : ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾.

وعتا قوم هود وتجبروا وعصوا هودا وكذبوه وجحدوا بآيات الله التي أيده الله بها لتصديقه في أنه رسول من ربه. ومع ذلك ظل هود عليه‌السلام يحذرهم

---

(١) الكشاف : ١ / ٥٥٤ وما بعدها.

ويذكرهم بأن نجاتهم بالإيمان بدعوته والعمل بنصائحه ، فزادهم ذلك عتوا إلى أن دمرهم الله بالريح العقيم ، سلطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما.

ونجىّ الله هودا والذين آمنوا معه برحمة منه ، وظل هود بعد هلاك عاد ساكنا بلاد حضرموت ، إلى أن مات ، ودفن في شرقي بلادهم ، على نحو مرحلتين من مدينة «تريم» قرب وادي برهوت. روى ابن جرير عن علي كرم الله وجهه أنه مدفون في كثيب أحمر وعند رأسه سمرة (سدر) في حضرموت.

التفسير والبيان :

وأرسلنا إلى قبيلة عاد أخاهم هودا ، ليس أخا في الدين ، وإنما كان واحدا من تلك القبيلة أو من جنسهم جنس بني آدم ، لا من جنس الملائكة ، وذلك ليفهموا كلامه ويأنسوا بمنطقه وأفعاله ، ولتكون أخلاقه دليلا معروفا على سلوكه ، فيكونوا أقرب إلى تصديقه.

قال هود : يا قوم ، اعبدوا الله وحده ، ولا تجعلوا معه إلها آخر. أفلا تتقون ربكم ، وتبتعدون عما أنتم عليه من الشرك والمعصية؟

فقال الملأ أي الجمهور والسادة والقادة منهم : إنا لنراك في خفة حلم ، وسخافة عقل ، حيث تهجر دين قومك إلى دين آخر. وجعلت السفاهة ظرفا على طريق المجاز ، للإشارة إلى تمكنه فيها. ووصف الملأ هنا بالكفر دون ملأ قوم نوح ؛ لأن منهم من كان قد آمن وكتم إسلامه مثل مرثد بن سعد.

وإنا لنظنك في كلامك وادعائك أنك رسول من رب العالمين أنك أحد الكاذبين الذين يكذبون على الله في ادعائهم الرسالة من الله.

قال لهم غاضا عن اتهامهم بأدب حسن وخلق عظيم : ليس بي سفاهة أي ضلالة وحماقة ، ولكني بحق رسول من رب العالمين ، أرسلني إليكم لتبليغكم

ما أرسلت به من التكاليف الإلهية ، وأنا لكم ناصح فيما أدعوكم إليه ، أمين فيما أبلغكم إياه ، فلا أكذب على الله. وهذه هي صفات الرسل : التبليغ والنصح والأمانة.

ولا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولا من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه ، بل احمدوا الله على ذاكم. فقوله : ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ معطوف على محذوف تقديره : أكذبتم وعجبتم من إنزال وحيه بتذكيركم وعظتكم على لسان رجل منكم ، لينذركم عقابه ويحذركم من بأسه؟!

واذكروا فضل الله عليكم ونعمته ، إذ جعلكم ورثة نوح ، ومنحكم طولا في القامة وقوة في الجسد تفوق أمثالكم من أبناء جنسكم.

واذكروا آلاء الله ، أي نعمه ومننه عليكم ، واشكروه عليها بإخلاص العبادة وترك الشرك به لتفوزوا بجنان الخلد والنعيم الأبدي.

فردوا عليه متمردين بقولهم : أجئتنا لأجل أن نعبد الله وحده ، ونفرده بالتعظيم ، ونترك ما كان عليه آباؤنا من اتخاذ الأصنام شركاء معه؟ أي أنهم أنكروا عليه دعوته ، واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة ، وترك دين الآباء في اتخاذ الأصنام شركاء معه ، حبا لما نشؤوا عليه ، وإلفا لما يتدين به آباؤهم.

وازدادوا طغيانا وعنادا وإنكارا على هود عليه السلام ، بل اشتطوا في الحماقة والتحدي فطلبوا إنزال العذاب عليهم على ترك الإيمان به ، قائلين : ﴿فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي استعجل إنزال العذاب علينا إن كنت صادقا في تهديدك ووعيدك.

فأجابهم هود عليه السلام : إنه قد وجب عليكم وحقّ بمقالتكم هذه من ربّكم عذاب وسخط وطرد من رحمته ، أو قد نزل عليكم ، جاعلا المتوقع الذي لا بدّ من نزوله بمنزلة الواقع ، وقد كان عذابهم ريحا صرصرا (شديدة الصوت) عاتية تلقي

الناس على الأرض ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر ٥٤ / ٢٠] أي أصول نخل قلع من جذره.

أتحاجونني في هذه الأصنام التي سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة ، وهي لا تضر ولا تنفع ، وما أنزل الله من حجّة ولا برهان أو دليل على عبادتها؟!

ثم هددهم وأوعدهم بقوله : ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ أي انتظروا نزول العذاب الشديد من الله الذي طلبتموه بقولكم : ﴿فَأْتِنا بِما تَعِدُنا﴾ إني معكم أحد المنتظرين لنزوله بكم.

وقد نزل بهم العذاب ونجّى الله هودا والذين آمنوا معه برحمة عظيمة من الله ، واستأصل الكافرين ، وقطع دابر الذين جحدوا بآيات الله ؛ لأنهم لم يكونوا مؤمنين بالله تعالى ، وكذبوا بآيات الله ، فهاتان صفتان استوجبتا التّعذيب ، وهما : التّكذيب بآيات الله ، والكفر أو عدم الإيمان.

وكان العذاب كما في آيات أخرى بالأعاصير الهوجاء والرّيح العاتية : ﴿وَفِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ، ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذّاريات ٥١ / ٤١ ـ ٤٢] ، ﴿وَأَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ. سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً ، فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى ، كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ ، فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ﴾ [الحاقة ٦٩ / ٦ ـ ٨] ، فلما تمرّدوا وعتوا أهلكهم الله بريح عاتية ، فكانت تحمل الرّجل منهم ، فترفعه في الهواء ، ثمّ ترميه على رأسه ، فتخلع رأسه ممن بين جثّته ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها ، فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلَّا مَساكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف ٤٦ / ٢٥].

ومظاهر عتوّهم : عبادة الأوثان ، وظلم النّاس ، والاغترار بالقوّة : ﴿فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقالُوا : مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟﴾ [فصلت ٤١ / ١٥] ، وبناء الأبنية الضخمة في كلّ مكان عبثا بغير نفع ، فعاتبهم هود

وكلمهم : ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ. وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ. فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ...﴾ [الشعراء ٢٦ / ١٢٨ ـ ١٣١] ، ﴿قالُوا : يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وَما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ ، وَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ، إِنْ نَقُولُ : إِلَّا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ﴾ [هود ١١ / ٥٣ ـ ٥٤] أي بجنون.

فقه الحياة أو الأحكام :

في قصة هو مع قومه عبر وعظات أهمها ما يأتي :

١ ـ ضرورة التّحلّي بالصبر بسبب معاناة الأنبياء الشديدة في دعوة أقوامهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ورفض الإشراك به معه إلها آخر. فقد دعا هود قومه إلى عبادة الله وحده ، وذكّرهم بنعم الله وأفضاله عليهم من التّمكين في الأرض وزيادة القوة البدنية وطول القامة ، قال ابن عباس : كان أطولهم مائة ذراع ، وأقصرهم ستين ذراعا.

٢ ـ خيبة الآمال بالتّفوق حين استمر عناد القوم (قوم عاد) وتمرّدهم وإنكارهم دعوة نبيّهم ، فقد حملهم غرورهم بقوتهم الجسدية والمادية في البناء والمصانع على الاستهانة بتهديد النّبي ووعيده ، فاستعجلوا إنزال العذاب عليهم.

٣ ـ النّبي يكون عادة من جنس قومه ، فهو بشر مثلهم ، وهو أيضا واحد من القبيلة ، لكنه يكون من أوسطهم نسبا وأفضلهم حسبا ، وأكرمهم معشرا ، وأرفعهم خلقا وأدبا. وهذا كلّه كان منطبقا على هود عليه‌السلام ، بدليل إجابته لقومه الذين اتّهموه بالسّفاهة إجابة صادرة عن الحكمة ، والتّرفّع عمّا قالوا ووصفوه بالسّفاهة والضّلالة. وهذا منهج أصحاب السّمو والرّفعة ، يقابلون السّفهاء بالحلم ، ويغضون عن قول السّوء بالصّفح والعفو والمغفرة.

٤ ـ إنّ نتيجة التّمرّد والعتو والطّغيان هي الانهيار والدّمار ، وقد دمّر الله عادا بسبب تكذيبهم بآيات الله ، وكفرهم وعدم إيمانهم ، فعصف بهم بالرّيح العاتية.

٥ ـ نجّى الله هودا وجماعة الإيمان ؛ لاستحقاقهم الرّحمة بسبب إيمانهم ، وأنزل على عاد عذاب الاستئصال الذي هو الرّيح ، معجزة لهود عليه‌السلام .

قصة صالح عليه‌السلام

﴿وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ ناقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي

﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)﴾

الإعراب :

﴿آيَةً﴾ حال ، عاملها معنى الإشارة ، وكانوا سألوه أن يخرجها من صخرة عينوها ﴿بُيُوتاً﴾ حال مقدرة لأن الجبل لا يكون بيتا في حال النّحت. ﴿لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل من قوله : ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ بإعادة العامل الجارّ ، كقوله تعالى : ﴿وَلَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ﴾ [الزّخرف ٤٣ / ٣٣] : فقوله : ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ بدل من قوله : ﴿لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ﴾ وهذا يدلّ على أن العامل في البدل غير العامل في المبدل منه.

أما الضمير ﴿مِنْهُمْ﴾ فإن رجع إلى ﴿قَوْمِهِ﴾ فهو بدل الشيء من الشيء ، وهما لعين واحدة ، وإن رجع إلى ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ فهو بدل بعض من كلّ. وعلى الأوّل يكون المعنى : أن استضعافهم كان مقصورا على المؤمنين ، وعلى الثاني لم يكن الاستضعاف مقصورا عليهم ، ويدلّ على أن المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين.

البلاغة :

﴿هذِهِ ناقَةُ اللهِ﴾ إضافة تشريف وتكريم.

﴿وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ﴾ التّنكير للتّقليل والتّحقير ، أي لا تمسّوها بأدنى سوء.

﴿مُؤْمِنُونَ﴾ و ﴿كافِرُونَ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿ثَمُودَ﴾ قبيلة عربية كانت تسكن الحجر بين الحجاز والشّام ، إلى وادي القرى قرب تبوك ، سمّوا باسم جدّهم : ثمود بن عامر بن إرم بن سام بن نوح. فإذا كانت ممنوعة من الصّرف فيراد بها القبيلة ، وإذا صرفت يراد بها الحي ، أو باعتبار الأصل ؛ لأنه اسم أبيهم الأكبر.

﴿أَخاهُمْ صالِحاً﴾ هو نبيّهم ، وكان من أشرفهم نسبا وأعلاهم حسبا ، وأخوته لثمود كأخوة

هود لقومه : أخوة في القبيلة أو الجنس ، أي من بني آدم ومن جنسهم لا من جنس الملائكة ، فهي أخوة في النّسب لا في الدّين.

﴿بَيِّنَةٌ﴾ معجزة ظاهرة الدّلالة من الله على صدقه. ﴿وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ﴾ بعقر أو ضرب. ﴿وَاذْكُرُوا﴾ تذكّروا ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ﴾ أي في الأرض. ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أسكنكم فيها أو أنزلكم فيها ، والأرض : أرض الحجر بين الحجاز والشام. ﴿مِنْ سُهُولِها قُصُوراً﴾ تسكنونها في الصيف. ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً﴾ تسكنونها في الشتاء. والنّحت : نحر الشيء الصّلب. ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ﴾ تذكّروا نعم الله الكثيرة. ﴿وَلا تَعْثَوْا﴾ من العثيّ والعثو : الفساد.﴿اسْتَكْبَرُوا﴾ تكبّروا عن الإيمان به.

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ نحروها بالذّبح ، وأصل العقر : الجرح ، وعقر الإبل : قطع قوائمها ، وكانوا يفعلون ذلك بها قبل نحرها لتموت في مكانها ولا تنتقل. والذي عقرها هو : «قدار بن سالف» حيث قتلها بأمرهم بالسّيف ، وإنّما نسب الفعل إليهم جميعا ؛ لأن العقر كان برضاهم وأمرهم ، والآمر والرّاضي بالفعل : شريك في الجريمة.

﴿وَعَتَوْا﴾ تمرّدوا مستكبرين. ﴿الرَّجْفَةُ﴾ الزّلزلة الشديدة من الأرض أو الحركة والاضطراب ، والصّيحة من السّماء. ﴿جاثِمِينَ﴾ باركين على الرّكب ، أو قاعدين لا حراك بهم ، والمراد : أنهم أصبحوا جثثا هامدة ميتة لا تتحرّك.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله في أوّل السّورة قصة آدم الدّالة على قدرته وتوحيده وربوبيته ، وأقام الأدلّة الدّامغة على صحّة البعث بعد الموت ، أتبع ذلك بقصص الأنبياء وموقف أقوامهم المعاندين لهم ، فذكر قصة نوح ثمّ قصة هود ، ثم قصة ثمود ، وكان قوم ثمود يتلون قوم عاد في الوجود والظّهور بين الأمم ، كما قال تعالى على لسان صالح عليه‌السلام : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ﴾.

أضواء من التاريخ :

ثمود بن عاثر بن إرم بن نوح ، وهو أخو جديس بن عائز ، وكذلك قبيلة طسم ، كلّ هؤلاء من العرب العاربة البائدة قبل إبراهيم الخليل عليه‌السلام .

وكانت ثمود ـ قوم صالح ـ بعد عاد ، ورثوا أرضهم وديارهم ، وكانت مساكنهم بالحجر بين الحجاز والشّام ، إلى وادي القرى وما حوله. ومدائن صالح ظاهرة إلى اليوم ، تعرف ب «فجّ النّاقة». وحجر ثمود في الجنوب الشرقي من أرض مدين ، وهي مصاقبة لخليج العقبة. وقد كان يقال لعاد : عاد إرم ، إلى أن هلكوا ، فقالوا : ثمود إرم.

وقد مرّ رسول الله ﷺ على ديارهم ومساكنهم ، وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع ، قال الإمام أحمد عن ابن عمر قال : لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك ، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها ، ونصبوا لها القدور ، فأمرهم النّبي ﷺ ، فأهرقوا القدور ، وعلفوا العجين الإبل ، ثم ارتحل بهم ، حتى نزل على البئر التي كانت تشرب منها النّاقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا ، وقال : «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، فلا تدخلوا عليهم». وروى أحمد أيضا عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ ، وهو بالحجر : «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين ، فلا تدخلوا عليهم ، أن يصيبكم مثل ما أصابهم» وأصل هذا الحديث مخرج في الصحيحين من غير وجه.

وكانت قبيلة ثمود مثل قوم نوح وعاد تدين بعبادة الأصنام يشركونها مع الله في العبادة ، وآتاهم الله نعما كثيرة ، فأرسل الله إليهم صالحا نبيّا عليه السلام ، واعظا لهم ومذكّرا لهم بنعم الله وآياته الدّالة على توحيده وأنه لا شريك له ، وأنه يجب إفراده بالعبادة دون سواه.

فآمن به المستضعفون من قومه ، وكفر الملأ (السّادة والأشراف والقادة) ولم يؤمنوا به ، وعصوا وتكبروا وكفروا ، وأنكروا نبوته : ﴿**أُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا؟ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ**﴾ [القمر ٥٤ / ٢٥] ، وقالوا للمستضعفين : ﴿**أَتَعْلَمُونَ**

﴿أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ؟ قالُوا : إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ٧٥] ، فأجاب المستكبرون : ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ٧٦].

وطلب المستكبرون منه آية على صدقه ، فأيّده الله بالنّاقة وقال لهم : ﴿لَها شِرْبٌ ، وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء ٢٦ / ١٥٥] ، ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ، وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ، كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ [القمر ٥٤ / ٢٧ ـ ٢٨] ، فكانت تشرب ماء البئر أو النّهر الصغير في يوم ، ويشربون منه في اليوم التالي ، ويحلبون منها ما شاؤوا فلا ينضب حليبها.

وأمرهم ألا يمسّوها بسوء ، وأن يذروها تأكل في أرض الله ، وبذل صالح عليه‌السلام قصارى جهده في تذكير قومه بنعم الله تعالى عليهم ، ونهاهم عن أن يعثوا في الأرض مفسدين.

فتكبّروا عن الإيمان به ، واستخفّوا به ، وعاندوه ، وعتوا عن أمر ربّهم ، وعقروا النّاقة ، عقرها قدار بن سالف بأمرهم : ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ ، وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ، وَقالُوا : يا صالِحُ : ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ٧٧] ، ﴿فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطى فَعَقَرَ﴾ [القمر ٥٤ / ٢٩].

فقال لهم : ﴿تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود ١١ / ٦٥] ، ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ ، وَقالَ : يا قَوْمِ ، لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ٧٩] ، ثم نزل عليهم العذاب عذاب الرّجفة (الواقعة الشديدة من صوت الرّعد ، المصحوبة بقطعة من نار تحرق ما أتت عليه) أو عذاب الصيحة : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ، فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ٧٨] ، وقال تعالى : ﴿فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ. إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً ، فَكانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر ٥٤ / ٣٠ ـ ٣١] ، وعبّر تعالى عنها أيضا بالصاعقة ، وتارة بالطاغية. وكلّ ذلك صحيح ؛ لأن الصاعقة تكون

مصحوبة بصوت شديد ، وقد تصحب برجفة أشبه بالزّلزال ، وقد تكون في مكان ويطغى تأثيرها إلى مكان آخر.

ونجّى الله صالحا والذين آمنوا معه من العذاب ، فذهبوا إلى الرّملة بنواحي فلسطين ؛ لأنها بلاد خصبة. وكان عددهم كما ذكر الألوسي مائة وعشرين ، وأما الهالكون فكانوا أهل خمسة آلاف بيت : ﴿أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلا بُعْداً لِثَمُودَ﴾ [هود ١١ / ٦٨].

وذكر اسم صالح في القرآن تسع مرّات ، في سورة الأعراف في الآيات : (٧٣ ، ٧٥ ، ٧٧) ، وفي سورة هود في الآيات : (٦١ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٨٩) ، وفي سورة الشعراء في الآية (٤٢). وصالح كما ذكر البغوي : هو صالح بن عبيد بن أسف بن ماشخ بن عبيد بن حاذر بن ثمود.

التفسير والبيان :

ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحا ، ليس أخا في الدين ، وإنما من القبيلة أو من جنسهم البشري لا من الملائكة.

فقال صالح ثمود : يا قوم اعبدوا الله وحده لا شريك له ، فما لكم من إله تعبدونه غيره ، وهكذا جميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٢٥] وقال : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل ١٦ / ٣٦].

قد جاءتكم حجة وبرهان على صدق ما جئتكم به ، وكانوا هم الذين سألوا صالحا أن يأتيهم بآية ، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم ، وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها : الكاتبة. فأخذ عليهم العهود والمواثيق : لئن أجابهم الله إلى سؤالهم ليؤمنن به وليتبعنّه ، فلما أعطوه على

ذلك عهودهم ومواثيقهم ، قام صالح عليه‌السلام إلى صلاته ، ودعا الله عزّوجلّ ، فتحركت تلك الصخرة ، ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها ، كما سألوا ، والله على كل شيء قدير.

فآمن عندئذ رئيسهم جندع بن عمرو ومن كان معه على أمره ، وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا ، فصدهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد ، والحباب صاحب أوثانهم ، ورباب بن صعر بن جلهس.

وأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعته بين أظهرهم مدة تشرب من بئرها يوما ، وتدعه لهم يوما ، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها ، يحتلبون ، فيملئون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم [1] ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ [القمر ٥٤ / ٢٨] وقال أيضا : ﴿هذِهِ ناقَةٌ ، لَها شِرْبٌ ، وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ الشعراء ٢٦ / ١٥٥] قال ابن عباس : كانوا يستعيضون عن الماء يوم شربها بلبنها.

قال لهم : ﴿هذِهِ ناقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً﴾ أي أنها دليل قاطع على صدق نبوتي ، وأضاف الناقة إلى الله للتشريف والتكريم وتعظيم شأنها ؛ لأنها جاءت من عنده مكونة من غير أم ولا أب ، بل من صخرة عظيمة.

ثم أمرهم أن يتركوها تأكل في أرض الله ما شاءت ، وألا يتعرضوا لها بسوء في نفسها ولا في أكلها ، فإنكم إن فعلتم ذلك أصابكم عذاب أليم.

ثم ذكّرهم بنعم الله عليهم وبوجوب شكرها وعبادته تعالى فقال : ﴿وَاذْكُرُوا ...﴾ أي تذكروا نعم الله وأفضاله وإحسانه عليكم ، إذ جعلكم خلفاء لعاد في الحضارة والعمران وقوة البأس ، وأورثكم أرضهم وديارهم ، وأسكنكم منازلهم ، تتخذون من سهولها قصورا عالية ، بما ألهمكم من حذق الصناعة

---

(١) تفسير الكشاف : ١ / ٥٥٥ ـ ٥٥٦ ، تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٢٨

والاستفادة من التراب بصنع اللبن والآجر ومن سهولة الأرض ، وتنحتون من الجبال أحجارا تبنون بها بيوتا محصنة ، يسكنونها في الشتاء لقوتها ، فلا تؤثر فيها الأمطار والعواصف ، ويسكنون في السهول بقية الفصول للزراعة.

فتذكروا هذه النعم الكثيرة العظيمة ، واشكروا الله عليها بتوحيده وإفراده بالعبادة ، وإياكم أن تفسدوا في الأرض ، بأي نوع من أنواع الفساد.

فقال الملأ أي الأشراف والسادة والزعماء للفقراء المستضعفين الذين هم أسرع الناس عادة إلى إجابة دعوة الرسل ، وهم المؤمنون منهم : أتعلمون أن صالحا رسول من عند الله؟ وهو سؤال يراد به التهكم والسخرية والاستهزاء بهم. فأجابهم هؤلاء : نحن نعلم يقينا أنه رسول من عند ربه بلا ريب ولا شك ، وإنا بما أرسل به صالح من الحق والهدى مؤمنون مصدّقون ومقرون بأنه من عند الله. سألوهم عن العلم بإرساله ، فجعلوا إرساله أمرا معلوما لا شك فيه ، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به ، فنخبركم أنا به مؤمنون. وقوله : ﴿لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل من الذين استضعفوا ، كما بينا ؛ لأن المستضعفين هم المؤمنون ، وهو بدل البعض من الكل ، وهو الراجح.

فأجاب الكفرة الذين استكبروا عن الإيمان برسالة صالح : إنا بالذي صدقتم وآمنتم به من نبوة صالح جاحدون منكرون.

وإنما لم يقولوا : إنا بما أرسل به صالح كافرون ؛ لأن ذلك يتضمن شهادتهم على أنفسهم بإثبات رسالته ، ثم بإنكارها وجحودها عنادا. وقال الزمخشري : وضعوا : ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾ موضع : أرسل به ردّا لما جعله المؤمنون معلوما وجعلوه مسلّما.

ولما اشتد تكذيبهم لصالح النبي عليه السلام عزموا على قتل الناقة ، ليستأثروا بالماء كل يوم ، فاتفقوا على قتلها ، وعقروا الناقة أي نحروها ، ونسب

الفعل إليهم جميعا مع أن قاتلها واحد ، كما جاء في سورة القمر ﴿فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطى فَعَقَرَ﴾ [٢٩] لرضاهم جميعا بفعله ، وكما قال تعالى : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها ، فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها ، وَلا يَخافُ عُقْباها﴾ [الشمس ٩١ / ١٤ ـ ١٥] وجاء في صحيح البخاري مرفوعا : «فانتدب لها رجل ذو عزة ومنعة في قومه كأبي زمعة».

وعتوا عن أمر ربهم أي تمردوا عن اتباع رسالة صالح وأعرضوا عن امتثال أمر ربهم ، وأمر ربهم : ما أمر به على لسان صالح عليه السلام ، من قوله : ﴿فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ ...﴾ أو شأن ربهم وهو دينه. وقالوا : يا صالح ، ائتنا بما وعدتنا به من العذاب والانتقام ، إن كنت رسولا ، وتدعي الصدق فيما تبلغ به عن الله ، وهذه سمة الحمقى والسفهاء والأغرار.

روى الإمام أحمد والحاكم عن جابر قال : لما مرّ رسول الله ﷺ بالحجر قال : «لا تسألوا الآيات ، فقد سألها قوم صالح ، فكانت ـ يعني الناقة ـ ترد من هذا الفج ، وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم ، فعقروها. وكانت تشرب ماءهم يوما ، ويشربون لبنها يوما ، فعقروها ، فأخذتهم صيحة ، أخمدهم الله بها من تحت أديم السماء ، إلا رجلا واحدا كان في حرم الله ، فقالوا : من هو يا رسول الله؟ قال : أبو رغال ، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه».

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ وفي سورة هود : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ وفي سورة فصلت : ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ﴾ وفي سورة الذاريات : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ ، وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ والمراد بالجميع واحد : وهو الصيحة الشديدة التي زلزلت لها الأرض واضطربوا لها. وسببها اصطكاك الأجرام السماوية.

فأصبحوا في دارهم أي في بلادهم أو في مساكنهم جثثا هامدة موتى لا يتحركون.

فتولى عنهم صالح عليه‌السلام ، والظاهر أنه كان مشاهدا لما جرى عليهم ، وأنه تولى عنهم بعد ما أبصرهم جاثمين ، تولّي مغتم متحسر على ما فاته من إيمانهم ، حزنا عليهم.

وقال : يا قوم ، لقد بذلت فيكم منتهى وسعي وجهدي في إبلاغكم النصيحة لكم ، ولكنكم لا تحبون الناصحين ، فوجبت عليكم كلمة العذاب. وهذا تقريع من صالح عليه‌السلام لقومه ، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه ، وتمردهم على الله ، وإبائهم عن قبول الحق.

روي أن عقرهم الناقة كان يوم الأربعاء ، ونزل بهم العذاب يوم السبت.

وروي أنه خرج في مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكي ، فالتفت فرأى الدخان ساطعا ، فعلم أنهم قد هلكوا ، وكانوا ألفا وخمسمائة دار ، وروي غير ذلك.

ونداء صالح عليه‌السلام لقومه بعد الموت كنداء النّبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم بعض قتلى قريش ببدر ، بعد دفنهم في القليب (البئر غير المطوية أو غير المبنية) : «يا أبا جهل بن هشام ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة ، ويا فلان بن فلان ، أيسرّكم أنكم أطعتم الله ورسوله ، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟!».

قال راوي الحديث أبو طلحة الأنصاري ـ فيما أخرجه البخاري وغيره ـ قال عمر : يا رسول الله ، ما تكلم من أقوام قد جيّفوا؟ ـ أي أجساد لا أرواح لها أو فيها وقد أنتنوا ـ فقال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم : «والذي نفسي بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يجيبون.

فقه الحياة أو الأحكام :

ثمود [١] مثل عاد من القبائل العربية العاربة ، بعث الله إليهم صالحا نبيا ، فهم قوم صالح عليه‌السلام ، وكان صالح من أوسطهم نسبا ، وأفضلهم حسبا ، فدعاهم إلى الله تعالى حتى شاب ، فلم يتبعه إلا قليل مستضعفون. وقال المستكبرون : نحن كافرون بما جاء به صالح.

قال الرازي : وهذه الآية من أعظم ما يحتج به في بيان أن الفقر خير من الغنى ، وذلك لأن الاستكبار إنما يتولد من كثرة المال والجاه ، والاستضعاف إنما يحصل من قلتهما ، فبين تعالى أن كثرة المال والجاه حملهم على التمرد ، والإباء ، والإنكار ، والكفر. وقلة المال والجاه حملهم على الإيمان ، والتصديق والانقياد ، وذلك يدل على أن الفقر خير من الغنى[٢].

واستدل بقوله تعالى : ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً﴾ أي تنبون القصور بكل موضع ، وقوله : ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً﴾ اتخذوا البيوت في الجبال لطول أعمارهم ؛ فإن السقوف والأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم ، استدل بهذه الآية من أجاز البناء الرفيع كالقصور ونحوها. وبقوله : ﴿قُلْ : مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف ٧ / ٣٢] وقال ﷺ فيما رواه ابن أبي الدنيا عن علي بن زيد بن جدعان مرسلا : «إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده في مأكله ومشربه». ومن آثار النعمة : البناء الحسن ، والثياب الحسنة.

وكره ذلك آخرون ، منهم الحسن البصري وغيره. واحتجوا بقوله ﷺ فيما رواه الطبراني والخطيب عن جابر وهو ضعيف : «إذا أراد الله بعبد شرا ، خضر

---

(١) ثمود : لم ينصرف لأنه جعل اسما للقبيلة كما ذكر سابقا ، وقال أبو حاتم : لم ينصرف لأنه اسم أعجمي ، قال النحاس : وهذا غلط ؛ لأنه مشتق من الثّمد : وهو الماء القليل.

(٢) تفسير الرازي : ١٤ / ١٦٥

له في الطين واللّبن حتى يبنى» وفي خبر آخر أنه ﷺ قال فيما رواه الطبراني وأبو نعيم عن ابن مسعود : «من بنى فوق ما يكفيه ، كلّف يوم القيامة أن يحمله على عنقه» وأخرج الدار قطني عن جابر بن عبد الله قال : قال النّبي ﷺ : «وما أنفق المؤمن من نفقة ، فإن خلفها على الله عزّ وجلّ ، إلا ما كان في بنيان أو معصية».

ودل قوله تعالى : ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ﴾ على أن الكفار منعم عليهم.

وفي قوله : ﴿قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ..﴾ دلالة على أن السادة والزعماء هم الذين تكبروا عن الإيمان ، شأنهم في ذلك أمثالهم مع كل نبي ومصلح يتمردون ويستعلون عليه. وفيه دلالة أيضا على أن المستضعفين هم الذين آمنوا برسالة صالح عليه‌السلام ، وهو الشأن الغالب أيضا مع كل نبي ، يبادر الضعفاء والفقراء إلى الإصغاء لكلمة الحق والهدى والإيمان ، فيكونون أهل الجنة ، وأولئك المتكبرون هم أهل النار والعذاب في الدنيا.

وأما قول صالح : ﴿وَقالَ : يا قَوْمِ ، لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ...﴾ فيحتمل أنه قال ذلك قبل موتهم ، ويحتمل أنه قاله بعد موتهم ، كقوله ﷺ لقتلى بدر : «هل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟» فقيل : أتكلم هؤلاء الجيف؟ فقال : «ما أنتم بأسمع منهم ، ولكنهم لا يقدرون على الجواب». قال القرطبي : والأول أظهر ، يدل عليه : ﴿وَلكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ أي لم تقبلوا نصحي. وذكر ابن كثير وغيره : أن صالحا قال لهم ذلك بعد هلاكهم تقريعا وتوبيخا.

وقوله تعالى : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ والفاء للتعقيب : يدل على أن الرجفة أخذتهم عقيب ما ذكروا ذلك الكلام ، لكن ليس الأمر كذلك ؛ لأنه تعالى قال في آية أخرى : ﴿فَقالَ : تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ، ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود ١١ / ٦٥].

ولا تناقض بين تعبير الرجفة هنا ، والطاغية والصيحة والصاعقة ، كما ذكرنا

في آيات أخرى ، لأن الرجفة هي الزلزلة في الأرض ، وهي حركة خارجة عن المعتاد ، فلم يبعد إطلاق اسم الطاغية عليها. والطاغية : اسم لكل ما تجاوز حده ، والهاء للمبالغة. وأما الصيحة : فالغالب أن الزلزلة لا تنفك عن الصيحة العظيمة الهائلة. وأما الصاعقة : فالغالب أنها الزلزلة ، وكذلك الزجرة ، قال تعالى : ﴿فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ ، فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات ٧٩ / ١٣ ـ ١٤].

وفي هذه القصة معجزات هي : أن القوم قد شاهدوا خروج الناقة من الصخرة ، وشاهدوا أن الماء الذي كان شربا لكل أولئك الأقوام في أحد اليومين ، كان شربا لتلك الناقة الواحدة في اليوم الثاني ، ثم إن القوم لما نحروها ، وكان صالح عليه‌السلام قد توعدهم بالعذاب الشديد إن نحروها ، فلما شاهدوا بعد إقدامهم على نحرها آثار العذاب ، اقتضاهم العدول عن إصرارهم على الكفر والتوبة منه. روي أنهم احمروا في اليوم الأول ، ثم اصفروا في اليوم الثاني ، ثم اسودوا في اليوم الثالث.

وأما الناقة فكانت تسرح في الأودية ، ترد من فج (طريق) وتصدر (تعود) من غيره ، ليسعها ؛ لأنها كانت تتضلع من الماء ، وكانت على ما ذكر خلقا هائلا ، ومنظرا رائعا ، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها.

قصة لوط عليه‌السلام

﴿وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (٨١) وَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ

يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)﴾

الإعراب :

﴿وَلُوطاً﴾ منصوب بتقدير فعل ، تقديره : واذكروا لوطا ، أو أرسلنا لوطا. ﴿إِذْ قالَ﴾ بدل مما سبق. قال النحويون : إنما صرف لوط ونوح لخفته ، فإنه مركب من ثلاثة أحرف ، وهو ساكن الوسط.

﴿إِنَّكُمْ﴾ الهمزة الأولى همزة الاستفهام ، والثانية همزة : «إن».

﴿شَهْوَةً﴾ منصوب على المصدر ، أي تشتهونهم شهوة ، ويجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال.

البلاغة :

﴿أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ.

﴿إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ هذا تعريض بما يوهم الذم ، قال ابن عباس : عابوهم بما يمدح به.

المفردات اللغوية :

﴿وَلُوطاً﴾ لوط : هو ابن هاران بن آزر ، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام ، ولد في «أور الكلدانيين» في الطرف الشرقي من جنوب العراق ، وكانت تسمى أرض بابل. هاجر بعد موت والده مع عمه إبراهيم إلى ما بين النهرين إلى جزيرة قورا ، حيث توجد مملكة آشور ، ثم ذهب معه إلى الأرض الشام ، حيث أسكنه إبراهيم شرقي الأردن ، وعاش في المكان المسمى بعمق السديم قرب البحر الميت (أو بحر لوط) وهي قرى خمس ، سكن لوط في إحداها المسماة بسدوم ، ثم بعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى ، يدعوهم إلى الله عزوجل ، ويأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر وما يرتكبونه من الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم ، وهو إتيان الذكور دون الإناث ، وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ، حتى صنع ذلك أهل سدوم. ﴿لَتَأْتُونَ الرِّجالَ﴾ يقال : أتى المرأة : غشيها. ﴿مُسْرِفُونَ﴾ متجاوزون الحلال إلى الحرام. ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾ أي لوطا وأتباعه. ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ من أدبار الرجال. ﴿الْغابِرِينَ﴾ الباقين في العذاب.

المناسبة :

هذه هي القصة الرابعة : قصة لوط مع قومه : أهل سدوم ، ذكرت بعد قصة نوح ، وهود ، وصالح عليهم السلام ، لبيان ما حلّ بهم من العذاب والنكال حينما أعرضوا عن نصح الأنبياء ، وعتوا عن أوامر الله.

أضواء من التاريخ :

لوط : هو لوط بن هاران . أخي إبراهيم بن تارح ، آمن بإبراهيم واهتدى بهديه ، كما قال تعالى : ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ، وَقالَ : إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي﴾ [العنكبوت ٢٩ / ٢٦] وتبع إبراهيم في رحلاته ، فكان معه فيما بين النهرين ، ثم بمصر ، ثم ببلاد الشام ، حيث سكن في سدوم في شرقي الأردن.

وذكرت قصة لوط في عدة سور باختلاف يسير ، وبعضها يكمل بعضا.

وكان أهل سدوم يعملون الخبائث دون حياء ولا عفة ، وأمام الناس ، ويقطعون الطريق على التجار ، ويأخذون بضائعهم ، كما قال تعالى على لسان لوط : ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ ، وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ، وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت ٢٩ / ٢٩].

وقد وعظهم لوط عليه السلام ونصحهم ونهاهم وخوفهم بأس الله تعالى ، فلم يأبهوا له ولم يرتدعوا ، فلما ألح عليهم بالموعظة هددوه تارة بالرجم وتارة بالإخراج ، إلى أن جاء لوط الملائكة ، بعد أن مرّوا بإبراهيم وأخبروه أنهم ذاهبون للانتقام من قوم لوط ، وهم أهل سدوم وعامورة ، فخاف أن يمس لوط بأذى ، فأخبروه بأنه ناج هو ومن آمن معه ، وأخبروه بأن العذاب بالقوم أمر حتم : ﴿يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا ، إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود ١١ / ٧٦].

جاء هؤلاء الملائكة إلى لوط بهيئة غلمان مرد حسان الوجوه ، فجاء جماعة من سدوم إلى لوط ، طالبين ضيوفه ، ليفعلوا فيهم الفاحشة ، فحاول لوط جاهدا في ردهم ، وبالغ في ذلك حتى طلب إليهم أن يأخذوا بناته بطريق العرض غير المؤكد وبالزواج المشروع ، اعتمادا على استحيائهم منه ، ليحمي ضيوفه. فلم يرضوا. ثم قال لوط للملائكة الذين لم يعلم أنهم ملائكة : ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود ١١ / ٨٠] أي لجاهدتهم بكم وعاقبتهم بما يستحقون ، وحينئذ أعلموه بحقيقة أمرهم ، وأنهم جاؤوا للتنكيل بأولئك القوم.

ولما حاول أهل القرية أخذ هؤلاء المردان بالقوة ، وهجموا على بيت لوط ، طمس الله أعينهم ، فلم يبصروا ، ولم يهتدوا إلى مكان الاقتحام. ثم أخرج الملائكة لوطا وابنتيه وزوجه من القرية ، وأمروهم ألا يلتفت منهم أحد ، وأن يحضروا حيث يؤمرون ، فصدعوا بالأمر إلا امرأته فإنها التفتت إلى القرية لترى ما يحل بها ، وكانت متعلقة بهم ، وكانت كافرة ، فحل بها من العذاب ما حل بهم ، وأمطر الله عليهم حجارة من سجيل ، وقلبت ديار القوم ، وكانوا ألفا أو أكثر [١].

قال تعالى : ﴿قالُوا : يا لُوطُ ، إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ، لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ، فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ، وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ، إِلَّا امْرَأَتَكَ ، إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ ، إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ، أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ. فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها ، وَأَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ...﴾ [هود ١١ / ٨١ ـ ٨٢].

التفسير والبيان :

واذكر لوطا حين قال لقومه موبخا لهم : أتفعلون الفعلة الفاحشة التي ما فعلها أحد قبلكم في أي زمان ، بل هي مبتدعة منكم ، وعليكم وزر كل من

---

(١) قصص الأنبياء للأستاذ عبد الوهاب النجار : ١١٣ ، ط الرابعة.

يفعلها. وهذا يدل على أنها أمر مناقض للفطرة. وقوله : ﴿ما سَبَقَكُمْ بِها﴾ الباء للتعدية. وقوله ﴿مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ﴾ من الأولى زائدة لتوكيد النفي وإفادة معنى الاستغراق ، والثانية للتبعيض.

إنكم تأتون الرجال في أدبارهم وتدعون الزواج بالنساء في أقبالهن ، أي إنكم عدلتم عن النساء وما خلق لكم ربكم منهن ، إلى إتيان الرجال ، وهذا شذوذ وإسراف منكم وجهل ؛ لأنه وضع الشيء في غير محله ، ولهذا قال لهم في الآية الأخرى : ﴿هؤُلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ﴾ [الحجر ١٥ / ٧١]. فأرشدهم إلى جنس النساء ، فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن.

وقوله : ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ﴾ بيان لقوله : ﴿تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ﴾.

وفي هذا تقريع لهم وتوبيخ شديد ، وقوله : ﴿مِنْ دُونِ النِّساءِ﴾ إشارة إلى أنهم تجاوزوا النساء ، وهن محل قضاء الشهوة عند ذوي الفطر السليمة.

﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ أي إنكم لا تأتون الفاحشة ثم تندمون على فعلها ، بل إنكم قوم عادتكم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء ، فمن ثم أسرفوا في حال قضاء الشهوة ، حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد ، ونحوه قوله تعالى : ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ١٦٦] أي في جمعكم إلى الشرك هذه الفاحشة.

ووصفهم بصفة أخرى في سورة النمل : ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [٥٥]. وفي هذا دليل على إسرافهم في اللذات ، وتجاوزهم حدود العقل والفطرة ، وجهالتهم عواقب الأمور ؛ إذ أنهم لا يقدرون ضرر ذلك على الصحة ، وما يحدثه من مرض ثبت في العصر الحديث أنه مميت.

وما كان جوابهم عن هذا الإنكار والنصح شيئا مقنعا ، أو رجوعا عن الخطأ والضلال وإنكار الفاحشة وتعظيم أمرها ، وإنما هموا بإخراج لوط ونفيه ومن معه

من المؤمنين من قريتهم تضجرا منهم وبما يسمعون من وعظهم ونصحهم وقولهم ، فهم لم يجيبوه بما يناسب كلامه ، ولكنهم جاؤوا بشيء آخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته بالأمر بإخراجه. وقوله : ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾ أي لوطا وأتباعه.

وقالوا لبعضهم : إن هؤلاء أناس يتطهرون ويتنزهون عن مشاركتكم في فعلكم وعن الفواحش وعن أدبار الرجال والنساء. وهذا صادر منهم على سبيل السخرية بهم والتهكم ، والافتخار بما كانوا فيه من القذارة ، كما يقول الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظوهم : أبعدوا عنا هذا المتقشف ، وأريحونا من هذا المتزهد. فقوله : ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي الإتيان في هذا المأتى.

وكانت نتيجة الأمر أن الله تعالى أنجى لوطا وأهل بيته الذين آمنوا معه ، إلا امرأته ، فإنها لم تؤمن ، فكانت من جماعة الهالكين الباقين مع قومها في العذاب ؛ لأنها كانت على دين قومها تمالئهم عليه ، وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات ٥١ / ٣٥ ـ ٣٦] أي لم يكن آمن به أحد من قومه سوى أهل بيته فقط.

وأمطر عليهم مطرا كثيرا عجيبا أمره وهو الحجارة التي رموا بها ، وقد فسرتها آية أخرى: ﴿وَأَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ، وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود ١١ / ٨٢ ـ ٨٣] وآية : ﴿فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها ، وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [الحجر ١٥ / ٧٤] ومعنى قوله : مسومة أي معلمة ببياض في حمرة ، والسّجيل : طين طبخ بالنار كالفخّار.

وربما تكون تلك الحجارة محمولة بإعصار من الريح العاتية ، أو من النيازك وهي الحجارة المنفصلة من بقايا كوكب محطم تجذبه الأرض إليها.

فانظر يا محمد وكل معتبر بهذا القصص للانزجار ، كيف كان عاقبة المجترئ

على معاصي الله عَزَّوَجَلَّ ، ويكذب رسله ، لتعلم عقاب الأمة على ذنوبها في الدنيا قبل الآخرة.

فقه الحياة أو الأحكام :

إن تحريم اللواط لأسباب كثيرة :

١ ـ الضرر بالمفعول به ، فإنه يحدث مرضا ثبت أنه مميت وهو المسمى «الإيدز» أي فقد المناعة ؛ لأنه تعالى أودع في الرحم جاذبية شديدة لامتصاص المني ، وليس في عضو المفعول به قوة جاذبية للمني ، فيتسمم الدم ويحدث الضرر.

٢ ـ إفساد خلق اللائط وإسرافه في الشهوة ، إذ لا يقدر آنيا المخاطر.

٣ ـ إلحاق العار والعيب بكل من الفاعل والمفعول به ، واستحكام العداوة بينهما.

٤ ـ إفساد النساء بالإعراض عنهن إلى الرجال.

٥ ـ إقلال النسل ، لما في الفاحشة من رغبة عن الزواج ، والرغبة عن الزوجات في غير محل الإنجاب. أما الإتيان في محل الحرث فيحقق الإنجاب ، شاء الرجل أم أبى.

لهذا كان عذاب القوم هو الاستئصال في الدنيا ، ثم إن عذاب الآخرة أعظم وأدوم من ذلك.

أما مذاهب العلماء المسلمين في عقاب اللواط فهي ما يأتي :

١ ـ قال أبو حنيفة : يعزر اللوطي فقط ، سواء كان محصنا أو غيره ؛ إذ ليس في اللواط اختلاط أنساب ، ولا يترتب عليه غالبا حدوث منازعات تؤدي إلى قتل اللائط ، وليس هو زنى.

٢ ـ وقال الجمهور (المالكية والشافعية والحنابلة) : إن اللواط يوجب الحد ؛ لأن الله سبحانه غلّظ عقوبة فاعله في كتابه المجيد ، فيجب فيه حد الزنى ، لوجود معنى الزنى فيه.

وحد اللائط عند المالكية ، والحنابلة في أظهر الروايتين عن أحمد : هو الرجم بكل حال ، سواء أحصن (تزوج) أو لم يحصن ، أي سواء أكان ثيبا أم بكرا ؛ لقوله ﷺ ـ فيما رواه أبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم ـ : «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط ، فاقتلوا الفاعل والمفعول به» وفي لفظ : «فارجموا الأعلى والأسفل».

وحد اللائط عند الشافعية هو حد الزنى ، فإن كان اللائط محصنا (متزوجا) وجب عليه الرجم ، وإن كان غير محصن ، وجب عليه الجلد والتغريب ، لما روى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «إذا جاء الرجل الرجل فهما زانيان ، وإذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان» ولأنه حد يجب بالوطء ، فاختلف فيه البكر (غير المتزوج) والثيّب (المتزوج) قياسا على حد الزنى ، بجامع أن كلا منهما إيلاج محرم في فرج محرم [١].

أما إتيان البهيمة : فاتفق أئمة المذاهب الأربعة على أن واطئ البهيمة يعزره الحاكم بما يردعه ؛ لأن الطبع السليم يأبى هذا الوطء ، فلم يحتج إلى زاجر بحد ، بل يعزر. وفي سنن النسائي وأبي داود عن ابن عباس رضي الله عنهما : «ليس على الذي يأتي بهيمة حد» [٢].

وأما حديث أبي داود والدار قطني عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «من وقع على بهيمة فاقتلوه واقتلوا البهيمة معه» فلم يثبت ،

---

(١) كتابي موسوعة الفقه الإسلامي «الفقه الإسلامي وأدلته» : ٦ / ٦٦

(٢) المرجع والمكان السابق.

بدليل قول ابن عباس : ما أراه قال ذلك ، إلا أنه كره أن يؤكل لحمها بعد ذلك العمل [١].

قصة شعيب عليه‌السلام

﴿وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَها عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنا وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (٨٧)﴾

الإعراب :

﴿بَعْدَ إِصْلاحِها﴾ على حذف مضاف أي بعد إصلاح أهلها.

﴿تُوعِدُونَ﴾ محل الجملة وما عطف عليها النصب على الحال ، أي ولا تقعدوا موعدين وصادّين عن سبيل الله وباغيها عوجا. وضمير ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ يرجع إلى كل صراط ، وتقديره : توعدون من آمن به وتصدون عنه ، فوضع الظاهر الذي هو ﴿سَبِيلِ اللهِ﴾ موضع الضمير : زيادة في تقبيح أمرهم ، ودلالة على عظم ما يصدون عنه.

---

(١) قال ابن العربي في أحكام القرآن : ٢ / ٧٧٧ : هذا الحديث متروك بالإجماع ، فلا يلتفت إليه.

المفردات اللغوية :

﴿وَإِلى مَدْيَنَ﴾ أي وأرسلنا إلى مدين ، ومدين قبيلة عربية كانت تسكن أرض معان في شرقي الأردن ، من طريق الحجاز ، وهم من سلالة مدين بن إبراهيم ، وكانوا يكفرون بالله ، وعبدوا الملائكة من دونه ، وكانوا يبخسون الناس في الكيل والوزن. وكما تطلق مدين على القبيلة ، تطلق ـ كما ذكر ابن كثير ـ على المدينة المعروفة قرب معان ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ ، وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص ٢٨ / ٢٣] وهم أصحاب الأيكة ، كما ذكر ابن كثير.

﴿أَخاهُمْ شُعَيْباً﴾ أي ليس أخا في الدين ، وإنما هو من قبيلتهم أو من جنسهم البشري ، لا من جنس الملائكة ، فهي أخوة في النسب لا في الدين ، وشعيب : هو ابن ميكيل بن يشجر ، واسمه بالسريانية «يثرون» بعثه الله إلى أهل مدين.

﴿بَيِّنَةٌ﴾ حجة ظاهرة أو معجزة. ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ على صدقي. ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أتموه. ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ﴾ لا تنقصوهم حقهم. ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ شامل لإفساد نظام المجتمع بالظلم وأكل أموال الناس بالباطل ، وإفساد الأخلاق ، بارتكاب الفواحش ، وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام. ﴿بَعْدَ إِصْلاحِها﴾ إصلاح الأرض : هو إصلاح أهلها وما فيها بغرس العقيدة الصحيحة ، والأعمال الصالحة ، وإعمارها بما يرقي الحالة المعيشية.

﴿بِكُلِّ صِراطٍ﴾ طريق. ﴿تُوعِدُونَ﴾ تخوفون الناس بأخذ ثيابهم وأموالهم أو أخذ المكس منهم. ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ تصرفون عن دين الله من آمن به بتوعدكم إياه بالقتل. ﴿وَتَبْغُونَها عِوَجاً﴾ تطلبون الطريق معوجة. ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾ أي بارك في نسلكم. ﴿عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي من كان قبلكم بتكذيب رسلهم ، كان آخر أمرهم الهلاك.

أضواء من التاريخ :

هذه هي القصة الخامسة من قصص الأنبياء بعد نوح وهود وثمود ولوط عليهم السلام ، وهي قصة شعيب عليه السلام مع قومه شعب مدين.

أما شعيب فهو ابن ميكيل بن يشجر ، وهو من أنبياء العرب ، وذكر في القرآن عشر مرات : في سورة الأعراف في الآيات ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٢ وفي سورة هود في الآيات ٨٤ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٥ ، وفي سورة الشعراء في الآية ١٧٧ ، وفي سورة العنكبوت في الآية ٣٦. وكانت بعثته قبل زمن موسى عليه السلام ؛ لأن

الله تعالى قال بعد ذكر قصص هؤلاء الأنبياء الخمسة : ﴿ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ﴾ [الأعراف ٧ / ١٠٣].

وأما مدين أو مديان ؛ فهم من سلالة مدين بن إبراهيم عليه السلام ، كانوا يسكنون مدينة مدين قرب معان جنوب شرقي الأردن على طريق الحجاز. وكانوا يعبدون غير الله تعالى ، ويبخسون المكيال والميزان ، فنهاهم شعيب عن كل ذلك ، وحذرهم بأس الله ، بما أوتي من قوة البيان والبراعة في إيراد الحجة عليهم ، حتى إنه يسمى «خطيب الأنبياء» وهم أصحاب الأيكة في رأي ابن كثير.

وكانوا يقعدون على الطرق يصدون الناس عن دين الله ، قال ابن عباس : كانوا يجلسون في الطريق ، فيقولون لمن أتى إليهم : إن شعيبا كذاب ، فلا يفتنّكم عن دينكم. ويقولون أيضا : ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ٩٠].

وقد حاولوا إبطال دعوته ، وإلحاق الأذى به ، واحتقار شأنه ، وتهديده : ﴿قالُوا : يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ ، وَإِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً ، وَلَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ ، وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ﴾ [هود ١١ / ٩١]. بل عابوا عليه صلاته التي تأمره بنهيهم عن عبادة غير الله ، والعدل في الكيل والميزان : ﴿قالُوا : يا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا ، أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا ، إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود ١١ / ٨٧].

ولما أفحمهم بدعائهم إلى الإيمان بالله وحسن المعاملة ، هدده الملأ (السادة) من قومه بإخراجه ومن معه من المؤمنين من القرية إذا لم يعتنقوا دين قومهم ، فعاتبهم بقوله : ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ؟!﴾ [الأعراف ٧ / ٨٨].

ولما أصروا على كفرهم ، واشتطوا في مجادلة شعيب وإيذائه بالقول والفعل ، أهلكهم الله بالرجفة وهي الزلزال مثل قبيلة ثمود ، فبادوا جميعا : ﴿فَكَذَّبُوهُ

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ، فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ﴾ [العنكبوت ٢٩ / ٣٧].

وبعد أن نجّى الله شعيبا والذين آمنوا معه ، أرسله إلى أصحاب الأيكة : وهي غيضة من الأشجار قرب مدين ، وكانوا على منهج أهل مدين ، فلما نهاهم عما هم عليه اتهموه بالكذب والسحر ، ولم يصدقوا بنبوته ؛ لأنه بشر مثلهم : ﴿قالُوا : إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ. وَما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا ، وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ١٨٥ ـ ١٨٦].

ثم طلبوا من شعيب أن يسقط عليهم كسفا من السماء ، أي قطعة منها ، إن كان من الصادقين ، وأمعنوا في الإعراض عن الحق ، فأخذهم عذاب يوم الظّلّة : بأن سلط الله عليهم الحر سبعة أيام حتى غلت مياههم ، ثم ساق إليهم غمامة ، فاجتمعوا للاستظلال بها من وهج الشمس ، فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ، إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء ٢٦ / ١٨٩].

التفسير والبيان :

وأرسل الله إلى مدين أخاهم شعيبا ، وهي أخوة نسب لا أخوة دين ، وأمرهم بتكاليف خمسة ترجع إلى أصلين : تعظيم أمر الله ، ويدخل فيه الإقرار بالتوحيد والنبوة ، والشفقة على خلق الله ، ويدخل فيه ترك البخس ، وترك الإفساد ، ويجمعهما ترك الإيذاء.

وتلك التكاليف هي :

١ ـ الأمر بعبادة الله والنهي عن عبادة غير الله : ﴿اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ﴾ ، وهذا أصل معتبر في شرائع جميع الأنبياء ، ودعوة الرسل كلهم.

٢ ـ ادعاؤه النبوة فقال : ﴿قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي قد أقام الله

الحجج والبينات على صدق ما جئتكم به ، والبينة تشمل المعجزة الكونية ، والبرهان العقلي ، وخوارق العادات. وهذا مثل قول صالح عليه السلام ، إلا أنه تعالى ذكر الآية له وهي الناقة ، ولم يذكر آية شعيب ، ولا بد من آية تصدقه ؛ روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النّبي صلى الله عليه وسلم قال : «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثلها آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة».

قال الزمخشري : ومن معجزات شعيب : أنه دفع إلى موسى عصاه ، وتلك العصا حاربت التنّين (ضرب من الحيات) وأيضا قال لموسى : إن هذه الأغنام تلد أولادا فيها سواد وبياض ، وقد وهبتها منك ، فكان الأمر كما أخبر عنه. وهذه الأحوال كانت معجزات لشعيب عليه السلام ؛ لأن موسى في ذلك الوقت ما ادعى الرسالة [١].

وهذا على رأي المعتزلة : وهو عدم ظهور المعجزة قبل النبوة ، وأما على رأي أهل السنة ، فيجوز أن يظهر الله على يد من يصير نبيا ورسولا بعد ذلك أنواع المعجزات قبل إيصال الوحي ، ويسمى ذلك إرهاصا للنبوة ، فتكون هذه الأحوال التي ذكرها الزمخشري إرهاصات لموسى عليه السلام [٢].

٣ ـ إيفاء الكيل والميزان ، فقال : ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ﴾ وهذا مرتب على ما سبق : ﴿قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ على تحريم الخيانة بالشيء القليل ، والمعنى : أتموا الكيل والميزان إذا بعتم. وهذا وعظ لإحسان معاملتهم الناس ، نابع من العدل الذي يجب أن تكون عليه المعاملة بين المبيع والثمن. وقد عني شعيب بعلاج هذه المفسدة أو الانحراف ، لشغف أهل مدين بنقص المكيال والميزان ،

---

(١) الكشاف : ١ / ٥٥٩

(٢) تفسير الرازي : ١٤ / ١٧٣

وأراد بالكيل هنا : آلة الكيل وهو المكيال ، كما قال في سورة هود : ﴿أَوْفُوا الْمِكْيالَ﴾.

٤ ـ منع الخيانة للناس في أموالهم وأخذها دون حق ، قال تعالى إخبارا عن شعيب الذي يقال له : «خطيب الأنبياء» لفصاحة عبارته وجزالة موعظته : ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ﴾ ، أي لا تنقصوهم شيئا في البيع خفية تدليسا ، كما قال تعالى في تهديده ووعيده : ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿لِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾ [المطففين ٨٣ / ١ ـ ٦] والبخس : النقص بالتعييب والتزهيد ، أو المخادعة عن القيمة ، أو الاحتيال في التزيد في الكيل أو النقص منه.

والمراد أنه لما منع قومه من بخس (أي نقص) في الكيل والوزن في البيع ، منعهم بعد ذلك من البخس والتنقيص بجميع الوجوه ، ويدخل فيه المنع من الغصب والسرقة ، وأخذ الرشوة ، وقطع الطريق ، وسلب الأموال بطرق الاحتيال ، ونحو ذلك من المساومات ، والغش ولو في غير البيع ، ويشمل أيضا هضم الحقوق المعنوية كالعلوم والفضائل ، فلا يجوز لإنسان نقص آخر حقه في علم أو خلق أو فضيلة أو أدب ، وادعاء التفوق عليه حسدا وبغيا وكراهية. روي عن قوم شعيب أنهم كانوا إذا دخل الغريب بلدهم ، أخذوا دراهمه الجياد ، وقالوا : هي زيوف ، فيقطعونها قطعا ، ثم يأخذونها منه بنقصان ظاهر ، أو أعطوه بدلها زيوفا.

٥ ـ منع الإفساد ، قال : ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها﴾ أي لا تفسدوا في الأرض بعد ما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء وأتباعهم العاملين بشرائهم ، وهو على حذف مضاف أي بعد إصلاح أهلها.

والإصلاح عام يشمل العقيدة والسلوك والأخلاق ونظام المجتمع والحضارة والعمران وسائر وجوه التقدم الزراعي والصناعي والتجاري.

ويلاحظ أن قوله : ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ﴾ منع عن مفاسد الدنيا ، وقوله : ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ منع من مفاسد الدين ، حتى تكون الآية جامعة للنهي عن مفاسد الدنيا والدين.

﴿ذلِكُمْ﴾ إشارة إلى هذه التكاليف الخمسة من عبادة الله ، والتصديق بنبوتي ، والوفاء بالكيل والميزان ، وترك البخس والإفساد في الأرض. والمعنى : كل ما ذكر خير لكم في الإنسانية وحسن السمعة وما تطلبونه من الربح المادي ، لأن الناس أرغب في معاملتكم إذا عرفوا منكم الأمانة والعدل. وخير لكم في الآخرة بالثواب والرضا الإلهي ، إن كنتم مؤمنين بوحدانية الله وبرسوله وبشرعه وهداه وبالآخرة ، فالإيمان يقتضي الامتثال والعمل بما جاء به الرسول من عند الله.

ويجوز أن يكون ﴿ذلِكُمْ﴾ إشارة إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه ، فإن الله لا يأمر إلا بالنافع ، ولا ينهى إلا عن الضارّ.

وفي هذا دلالة واضحة على أن العلم وحده لا يكفي للإصلاح ، وإنما لا بد في إصلاح الأمم والشعوب من تربية دينية ، تقنع الأجيال بمنافع الفضائل كالصدق والأمانة والعدل ، وبمضار الانحراف والرذائل ؛ لأن الوازع النفسي أقوى من أي ردع أو وازع خارجي.

ثم نهاهم شعيب عن قطع الطريق الحسي والمعنوي بقوله : ﴿وَلا تَقْعُدُوا ...﴾ أي ولا تقعدوا في مفارق الطرقات تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم ، أو تخوفون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه ، قال ابن كثير : والأول أظهر ، لأنه قال : ﴿بِكُلِّ صِراطٍ﴾ وهو الطريق. أما المعنى الثاني فهو مستفاد من قوله : ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ﴾. أي تصرفون من يريد الإيمان عن دين الله ، وتودون أن تكون سبيل الله عوجا مائلة ، ففي هذه الآية نهاهم

عن ثلاثة أمور : قطع الطريق على المارّة لأخذ الأموال ، والصد عن دين الله ، وطلب جعل سبيل الله المستقيمة معوجّة مائلة بالأكاذيب والضلالات وتشوية الحقائق والشبهات والشكوك الملقاة منكم.

والمراد من الآية أن شعيبا منع القوم من أن يمنعوا الناس من قبول الدين الحق بأحد هذه الطرق الثلاث.

ويلاحظ أن شعيبا ركّز في دعوته أولا على الإصلاح الداخلي بإيفاء المكيال والميزان وعدم الإفساد في البلد ، ثم انتقل إلى الإصلاح الخارجي بإزالة الموانع والعقبات أمام نشر دعوته للذين يزورون أرضهم.

وبعد قمع الفساد وتطهير البلد من المنكرات انتقل إلى النواحي الإيجابية الملازمة لهم وهي تذكر النعم ، فقال : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ ..﴾ أي وتذكروا كثرة إنعام الله عليكم ، ليحملهم على الطاعة ويبعدهم عن المعصية ، ومن تلك النعم أنكم كنتم مستضعفين قليلي العدد ، فصرتم أعزة كثيري العدد بما بارك الله في نسلكم ، واشكروا له نعمه بعبادته وحده.

روي أن مدين بن إبراهيم تزوج رئيا بنت لوط ، فولدت أولادا كثيرين ، حتى كثر عددهم ، لأن الله بارك في نسلها.

ويجوز أن يكون المعنى أنكم كنتم فقراء ضعفاء ، فجعلكم موسرين أقوياء.

وتأملوا واعتبروا بمصير السابقين من الأمم الخالية والقرون الماضية والشعوب المجاورة لكم كقوم نوح ، وعاد وثمود ، وقوم لوط ، كيف أهلكهم الله بفسادهم وبغيهم في الأرض ، واجترائهم على معاصي الله ، وتكذيب رسله ، فتذكروا عاقبة فسادهم وما لحقهم من الخزي والنكال.

والمقصود من تذكر نعم الله ، والتأمل في عقاب المفسدين ، حملهم على

الطاعة وترك المعصية بطريق الترغيب أولا ، والترهيب ثانيا.

وإن كان طائفة [١] منكم آمنوا بما أرسلت به ، ولم تؤمن طائفة أخرى ، أي قد اختلفتم علي فاصبروا أي فتربصوا وانتظروا حكم الله الذي يفصل بين الفريقين ، بأن ينصر المحقين على المبطلين ويظهرهم عليهم. وهذا وعيد وتهديد للكافرين بانتقام الله منهم ، كقوله تعالى : ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة ٩ / ٥٢] أو هو عظة للمؤمنين وتسلية لقلوبهم وحث على الصبر واحتمال ما يلحقهم من أذى المشركين إلى أن يحكم الله بينهم ، وينتقم لهم منهم. والظاهر أنه خطاب للفريقين يراد منه حمل المؤمنين على الصبر على أذى الكفار ، وزجر من لم يؤمن ، حتى يحكم الله ، فيميز الخبيث من الطيب.

﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فإنه سيجعل العاقبة للمتقين ، والدمار على الكافرين ؛ لأن حكمه حق وعدل ، لا يخاف فيه الحيف أو الظلم.

فقه الحياة أو الأحكام :

ما ذا يفعل الأنبياء؟ إنهم لا يملكون غير الدعوة إلى الله بالكلمة الحسنة ، والإقناع والإتيان بالبراهين الكونية والعقلية ، ثم النهي عن الفساد والإفساد ، ثم التذكير بنعم الله تعالى على البشر ، ثم حملهم على الطاعة والانقياد لأوامر الله بدعوتهم إلى الاعتبار والاتعاظ بتدمير الأمم والشعوب المفسدة ، وانتظار الحكم الفاصل النهائي لله رب العالمين ، وحكمه حق وعدل لا جور فيه.

هذا ما فعله شعيب عليه السلام وغيره من الأنبياء مع أقوامهم ، دعاهم إلى أصلين : تعظيم أمر الله ويشمل الإقرار بالتوحيد وتصديق النبوة ، والشفقة على خلق الله ويشمل ترك البخس وترك الإفساد وكل أنواع الإيذاء ، وتلك هي التكاليف الخمسة.

---

(١) ذكّر لفظ الفعل وهو «كان» مراعاة للمعنى ، ولو راعى اللفظ قال : «كانت».

وكان يقال لشعيب خطيب الأنبياء ، لحسن مراجعة قومه. وكان قومه أهل كفر بالله وبخس للمكيال والميزان. والكفر جرم عظيم لا يتفق مع إنعام الله ، والبخس وهو النقص في آلة الكيل والوزن جرم اجتماعي ، يشمل تعييب السلعة ، والمخادعة في القيمة ، والاحتيال في زيادة الكيل والنقصان منه ، وكل ذلك من أكل المال بالباطل ، وهو منهي عنه في الأمم جميعها على لسان الرسل عليهم السلام .

والإفساد في الأرض بعد الإصلاح جرم اجتماعي آخر في حق الإنسانية ، لأن صلاح الأرض بالعقيدة والأخلاق فيه خير للجميع ، وإفساد الأرض عدوان على الناس. قال ابن عباس : كانت الأرض قبل أن يبعث الله شعيبا رسولا يعمل فيها بالمعاصي ، وتستحلّ فيها المحارم ، وتسفك فيها الدماء ، فذلك فسادها ، فلما بعث الله شعيبا ودعاهم إلى الله صلحت الأرض. وكل نبي بعث إلى قومه فهو صلاحهم.

وحرم شعيب عليهم القعود على الطرقات لأخذ أموال الناس بالباطل ، فقد كانوا عشّارين ، ومثلهم اليوم المكّاسون (موظفوا الجمرك) الذين يأخذون من الناس مالا يلزمهم شرعا من الرسوم الجمركية بالقهر والجبر ، وذلك غصب وظلم وعسف على الناس وعمل للمنكر. وهذا يشبه عمل قطاع الطرق والمحاربين.

ومنعهم شعيب من محاولة ثني الناس عن قبول دعوته بالتهديد والوعيد والإنذار بقتل من يؤمن به ، وبإلقاء الشكوك والشبهات في دعوته ، وافتراء الكذب عليه.

وذكّرهم بنعم الله عليهم إذ كانوا قلة فكثروا ، وفقراء فاغتنوا ، وضعفاء فتقووا. ولفت نظرهم إلى ضرورة الاتعاظ بأحوال من سبقهم أو جاورهم من

الأمم والشعوب الخالية ، فإنهم حين كذبوا الرسل وكفروا بالله ، دمّرهم الله واستأصلهم وأبادهم.

ثم حسم شعيب عليه‌السلام الموقف بانتظار حكم الله والتهديد والوعيد بهذا الحكم ؛ لأن انقسام الناس بسبب دعوته إلى فريقين : فريق المؤمنين وفريق الكافرين ، يتطلب قضاء الله الفاصل النهائي بين الطرفين ، والله خير من يفصل ، وأعدل من يقضي.

وحكم الله بين عباده نوعان : حكم يوحي به إلى رسله ، كما في قوله تعالى في أول سورة المائدة : : ﴿إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ ما يُرِيدُ﴾ ، وحكم يفصل فيه بين الخلائق إما في الدنيا وإما في الآخرة ، كما في قوله تعالى في آخر سورة يونس : ﴿وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ ، وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ﴾».

والمقصود من كل هذه الأوامر والنواهي بالترغيب أولا ، والترهيب ثانيا هو حمل القوم على الإيمان والطاعة والعمل الصالح. والناس جميعا الذين يسمعون هذه القصة مطالبون بما طولب به هؤلاء ، فإن العاقل يتعظ بالأمثال والنظائر والأشباه ، وهو مدرك تماما أن ما جرى على النظير يجري على نظيره ، فالمؤمن يخصه الله بالدرجات العالية ، والكافر الشقي بأنواع العقوبات : ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [ص ٣٨ / ٢٨].

فهرس

الجزء الثامن

الموضوع	الصفحة
من مظاهر تعنّت المشركين والإياس من إيمانهم	١
القرآن الكريم دليل صدق رسالة النّبي ﷺ	١٢
ضلالات المشركين والمنع من أكل ذبائحهم	١٦
مثل المؤمن المهتدي والكافر الضال	٢٦
تعنت المشركين ومطالبتهم بالنبوة	٣٢
سنّة الله في المستعدّين للإيمان وغير المستعدّين وجزاء الفريقين بعد بيان الحق ومنهجه	٣٦
تولية الظلمة على بعضهم وتقريع الكافرين على عدم إيمانهم	٤٤
التهديد بعذاب الاستئصال والإنذار بعذاب القيامة	٥٠
شريعة الجاهلية في الزروع والثمار والأنعام وقتل الأولاد	٥٤
الأدلة الواضحة على قدرة الله تعالى	٦٥
المطعوم المحرّم على المسلمين والمحرّم على اليهود	٧٧
نسبة المشركين الشرك والتحريم إلى الله تعالى وإقامة الحجة عليهم	٨٦
المحرّمات العشر أو الوصايا العشر	٩٢
السبب في إنزال التوراة والقرآن	١٠٦
إنذار أخير للكفار بسوء العذاب	١١١
عاقبة الاختلاف في الدين	١١٥

جزاء الحسنة والسيئة ١١٨
اتباع ملة إبراهيم في التوحيد والعبادة والتبعة الشخصية ١٢١
الاستخلاف في الأرض ١٢٩
سورة الأعراف ١٣٣
تسميتها وصفة نزولها وموضوعها ١٣٣
ما اشتملت عليه السورة ١٣٤
اتباع القرآن الكريم ١٣٦
عاقبة تكذيب الرسل في الدنيا ١٣٩
عاقبة الكفر في الآخرة والحساب الدقيق على الأعمال ١٤٢
كثرة نعم الله على عباده ١٤٨
تكريم البشرية بالسجود لآدم وإغواء الشيطان وطرده من الجنة ١٥١
قصة آدم في الجنة وخروجه منها ١٦٠
توفير حوائج الدنيا لبني آدم وتحذيرهم من فتنة الشيطان ١٦٧
تشريع المشركين تقليد الآباء وتشريع الله الوحي إلى رسوله ١٧٣
إباحة الزينة والطيبات من المآكل والمشارب ١٨٠
أصول المحرّمات على النّاس ١٩٠
أجل كلّ أمّة وفرد ١٩٤
ما خوطبت به كلّ أمّة على لسان رسولها وإنذار المكذّبين بآيات الله ١٩٦
عاقبة الكذب ومشهد دخول الكفار إلى النّار ١٩٩
جزاء الكافرين ٢٠٤
جزاء المؤمنين المتقين ٢٠٧
محاورة بين أهل الجنة وبين أهل النار والأعراف ٢١٢

المناظرة بين أصحاب الأعراف وأصحاب النار ٢١٨
ما يقوله أهل النار لأهل الجنة..... ٢٢١
أو استغاثة أهل النار بأهل الجنة لإمدادهم بالطعام والشراب..... ٢٢١
فضل القرآن على البشر وحال المكذبين يوم القيامة بإظهار الندم وطلب الشفاعة..... ٢٢٦
إثبات الربوبية والألوهية لله بالخلق والأمر ٢٣٠
مشروعية الدعاء وآدابه وتحريم الإفساد في الأرض..... ٢٣٧
إنزال المطر وإخراج النبات ودلالتهما على القدرة الإلهية وإثبات البعث..... ٢٤٣
قصة نوح عليه السلام..... ٢٤٨
قصة هود عليه السلام ٢٥٨
قصة صالح عليه السلام ٢٦٧
قصة لوط عليه السلام ٢٧٩
قصة شعيب عليه السلام ٢٨٧